

د. لمياء توفيق دلة

دور الموريسكيين وأثرهم في الأندلس

897 - 1023 هـ/ 1492 - 1614م

دار النهضة العربية



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دور الموريسكيين واثرهم في الأندلس

(897 - 1023هـ/1492 – 1614م)



دور الموريسكيين واثرهم في الأندلس

(897 - 1023هـ/1492 – 1614م)

د. لمياء توفيق دلة



دار النهضة العربية

رقم الكتاب : 19201
اسم الكتاب : دور الموريسكين وأثرهم في الأندلس
المؤلف :د. لمياء توفيق دلة
الموضوع : تاريخ
سنة الطبع : 2017م. 1438هـ. /ط 1
القياس : 17 × 24
عدد الصفحات : 308

تلفون : 854161 - 1 - 961 +
فاكس : 833270 - 1 - 961 +
ص ب : 0749 - 11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 - لبنان
بريد الكتروني: e-mail: darnahda@gmail.com

ISBN 978-614-442- 611-1



دار النهضة العربية

بيروت - لبنان

مشورات : دار النهضة العربية
بيروت - شارع الجامعة العربية - مقابل كلية طب الاسنان
بناية اسكندراني رقم 3 - الطابق الأرضي والاول

إهــــــداء

إلى معلم البشرية ومنبر العلم نبينا محمد ﷺ.

إلى من غاب جسده ولم تغب روحه،

فقد بقيت روحه تظلِّلنا وتسير معنا في دروب الحياة.

إلى من اقتلع الأشواك عن دربي،

ليمهد لي طريق العلم، المرحوم والدي.

إلى رمز الحبّ والتضحية والدتي.

إلى زوجي وأولادي الذين كانوا عوناً، لي في مسيرتي العلمية.



المقدمــة

انطلق العربي من صحرائه إلى سائر أنحاء العالم حاملاً رسالته السماوية الحضارية، وحط رحاله في الأندلس، في مطلع القرن الثامن الميلادي، نهاية القرن الأول الهجري، حيث شاد صرحاً، ظل منبعاً يوزع العلوم على أوروبا بكاملها. في وقت كانت تلك القارة، ملوكاً وحكاماً وشعوباً يغطون في ظلمات الجهل والتخلف، إذ كانت المعرفة مقتصرة عندهم فقط على بعض رجال الدين الذين قصدوا طليطلة وقرطبة واشبيلية وغيرها من مدن الأندلس، لينهلوا من معين معاهدها، بينما كان سكان قرطبة جميعهم يعرفون القراءة والكتابة، حتى أن مكتبة الحكم المستنصر (366-350هـ/976-961م) كانت تضم أكثر من أربعمائة ألف مجلد من مختلف العلوم. ولكن لكل شيء إذا ما تم نقصان، فإن تلك المملكة انهارت بعد تشييد العرب لها بثمانية قرون[1]، ولم يبق فيها من يقول: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وعادت الأمور إلى نقطة الصفر، وكأنك يا طارق بن زياد ما فتحت!! وكأنك يا موسى بن نصير ما توليت!! وكأنك يا منصور بن أبي عامر ما حجبت!!

من يتتبع تاريخ الأندلس يدرك أن نهاية وجودهم فيها إلى زوال، إذ أن تلك الدولة محكوم عليها بالتلاشي بسبب خلاف العناصر الحاكمة، إلاّ أن العرب كانوا أرحم الفاتحين، إذ ابقوا أهل الذمة آمنين في مدنهم وقراهم، وقلما تعرضوا لهم. على خلاف الإسبان الذين كانوا يقضون على المسلمين بالقتل والتهجير في

---

1 ـ سعدون، نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ط4، ص 7.

أية مدينة كانوا يستولون عليها[1]. وربما لو فعل العرب ذلك لما فقدوا الأندلس. وكانت العناصر التي تشكل منها المجتمع الأندلسي، العرب والبربر، والمسلمون المولدون، واليهود ... مفككة منحلة، وكل عنصر يحقد على الآخر ويتحين المناسبات للإنقضاض عليه حتى فقد العرب وغيرهم من المسلمين فردوسهم الذي دخلوه بالإيمان وخرجوا منه بالكفر[2].

لتبدأ صفحة مأساوية من تاريخنا في الغرب الإسلامي، وهي قصة الأندلس في خاتمتها، أو صفحة الموريسكيين، والموريسكي اسم يطلق على المسلمين الذين فضلوا البقاء في البلاد الإسبانية بعد أن استولى الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا على غرناطة في 897هـ / 2 كانون الثاني 1492م، بعد زوال حكم آخر أمراء «بني نصر»[3].

تعريف بعض مصطلحات سترد بالرسالة:

1 - «المدجن» وتعني المسلم الذي يقع تحت حكم المسيحيين ونفوذهم بعد سقوط الأندلس في قشتالة وأراغون وبلنسية وانحسار الحكم الإسلامي في مملكة صغيرة هي غرناطة، والذي كان يتمتع نظرياً، بحرية التدين إلى حد ما.

2 - «المستعرب» وتعني الجماعة المسيحية التي سكنت مملكة يحكمها مسلمون أي تلك الأقلية التي خضعت للحكم الإسلامي في الأندلس وانخرطت بكل ثقلها في الحياة الأندلسية، وقد أطلق عليهم في بعض المصادر العربية لقب المعاهدون.[4]

3 - «المولد» وتعني السكان الأصليين لشبه الجزيرة الإيبيرية والذين اعتنقوا

---

1 - حتاملة، محمد عبده، التنصير القسري، الجامعة الاردنية، 1980م، ط1، ص 85.

2 - CH.E.Dufourcq, la vie quotidienne dans L'europe Medievale sous la domination Arabe, p 187-192

3 - عنان، محمد عبد الله، اندلسيات، ص 98.

4 - الجيوسي، سلمى الخضراء، الحضارة العربية في الأندلس، دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998م، ط1، ج1، ص 285.

الإسلام عن طواعية في الأندلس.

وقد فرض على من بقي اعتناق دين آخر، ويمكن القول إن التهجير القسري الذي تعرض له الموريسكيون الأندلسيون، على يد السلطة الإسبانية، يعتبر أول تطهير عرقي في التاريخ الحديث لا يوازيه فظاعة إلاّ تطهير الهنود الحمر في أميركا، واقتلاع اليهود للفلسطينيين من أرضهم.

طرد الموريسكيين من الأندلس، تطرق إليه الكثير من المؤرخين، إلاّ أن الكلمة تبقى غريبة على المسامع، فالكثير من العرب يجهل من هم وما حلّ بهم من مصير أسود طال من بقي في هذا البلد الذي رفض التنوع العرقي والديني. هذا الترحيل أمر به الملك فيليب الثاني، وبموجبه يجب على الموريسكيين أحفاد السكان المسلمين الذين تحولوا إلى المسيحية بموجب مرسوم الملوك الكاثوليك (14 شباط 1502م) مغادرة الأراضي الاسبانية. وقد أثر هذا القرار بالأساس على مملكة بالنسيا التي فقدت بموجبه قسماً كبيراً من سكانها، واستمرت أعمال الطرد في جميع ممالك اسبانيا حتى عام 1614م.[1]

أ - أهمية الدراسة وسبب اختيارها:

أولاً: إن هذا الموضوع حافل بسيطرة الاسبان على هذا المبحث التاريخي، يكتبون ما يشاؤون، والعرب تقريباً غائبون، فهناك مائتان وخمسون مؤرخاً اسبانياً، وفرنسياً، واميركياً، مهتمون اليوم بالدراسات الموريسكية، أما عند العرب فأقل من عشرة مؤرخين يهتمون بمثل هذه الدراسات.

ثانياً: ظهور تيار جديد في اسبانيا الآن وهو تيار قومي، يفخر ابناؤه بأنهم من أصول موريسكية أندلسية، وهناك مسيحيون اسبان أسلموا وهم يدافعون عن هذا الإرث الموريسكي.

ثالثاً: الهجرة وطردهم من بلادهم وتركهم في قرى خالية، مات نصفهم، والبعض الآخر لجأ إلى المغرب، والجزائر، وتونس واستامبول.

---

1 - رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص 129.

رابعاً: الموريسكيون كانوا عنصر تمدن وحضارة، حيث نقلوا تراثهم الفكري والصناعي والزراعي إلى شمال أفريقيا.

ب ـ هدف الدراسة:

أما هدفي من هذه الدراسة فهو تسليط الضوء على الجرائم، التي ارتكبت بحق هذا الشعب المسلم، الذي بقي ثمانية قرون على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية حتى تمكن التعصب وعدم التسامح من القضاء على الإرث الحضاري، والزج بإسبانيا في بوتقة الكثلكة العالمية، والقضاء على كل ما هو غير كاثوليكي، وهذا يعتبر من أكثر مظاهر عدم التسامح في التاريخ. ولم تشفع لها موافقة أبي عبد الله آخر ملك في غرناطة على تسليمها شرط احترام دين ولغة العرب. (1)

وكانت النتيجة التنصل من الوعود، وفرضوا على الموريسكيين إما التعمد قسراً أو المغادرة. وهنا تأتي مأساة الموريسكيين، فمنعوا من التكلم بالعربية، ومنعوا من التردد إلى الجوامع، وارتداء اللباس الأبيض يوم الجمعة، واستولوا على كل أملاكهم، فعمدوا إلى إشعال الثورات ومواجهة الإسبان خلال سنتين، حتى جاء أحد كبار العسكريين الإسبان وقضى عليهم، وفرض على الغرناطيين أن يهاجروا نهائياً من غرناطة، وهذه مأساة أخرى، الهجرة من المدن الأندلسية إلى مواقع أخرى. (2)

وقضوا على المميزات الحضارية لهؤلاء الموريسكيين والصنائع، وأكثر من مائتي مدينة موريسكية مزدهرة قضاءً تاماً إلى درجة أن أحد الخبراء الاقتصاديين الاسبان قال: «إن الاقتصاد الأسباني أصيب بنكسة بعد ترحيلهم قسراً إلى الخارج لقد كانوا خبراء في أمور كثيرة في الذهب والفضة والصناعة

---

1 ـ عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي القاهرة، 1997 ط 4، ص 230.

2 ـ مجهول المؤلف، نبذة العصر، في أخبار وملوك بني نصر، ضبطه وعلق عليه الفريد البستاني، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ط1، 2002م، ص 44، المقري، نفح الطيب، في غضن الأندلس الرطيب، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ 1995، ط1، ج4، ص 527.

والفلاحة وري الأراضي والتجارة».
- والإضاءة على إحراق الآف الكتب والمخطوطات وما اقترفته محاكم التفتيش والمحارق.
- ودور المرأة الموريسكية فكانت قائدة وزعيمة في هذه المسيرة الموريسكية، لم تكن وظيفتها تقتصر على تربية أطفالها ورعاية أسرتها. بل تعدتها إلى الحفاظ على الهوية والدين واللغة، ومقاومة النصارى.

ويبدو أن المسيرة الوعرة لهؤلاء الموريسكيين لا يعرف عنها العرب المسلمون سوى الشيء اليسير.

ج- فصول الدراسة:

كي أتمكن من انجاز هذه الدراسة ارتأيت تقسيمها إلى مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة، إضافة إلى تمهيد الدخول إلى الدراسة من المرابطين في الأندلس حتى نهاية دولة المسلمين.

الفصل الأول: المسلمون قبيل سقوط غرناطة، نبدأ بحصار غرناطة وما ألم بها عندما قرر فرناندو أنه لا بد من الاستيلاء عليها، فخرج في مطلع عام 896هـ/1491م على رأس جيش كبير مؤلف من خمسين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة مزودين بالمدافع، وأرسل أيضاً قوة إلى حقول البشرات التي تزود غرناطة بالمؤن، فعاثت فساداً في المنطقة وأحرقت المزروعات والقرى وقتلت السكان وحوّلت المنطقة إلى قفار، فانقطع عن غرناطة أهم مورد من مواردها.[1]

كانت نتيجة الصراع محسومة لصالح النصارى، فإنّ حلول الشتاء وانقطاع المؤن عن المدينة عجل في سقوطها[2]، رغم الطاقة البشرية الموجودة فيها والتي

1 ـ المقري، نفح الطيب، ج6، ص 275، مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص 44.
2 ـ الناصري، الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، دار الكتب، 1954م، ص 103.

وصلت إلى حوالي أربعمائة ألف نسمة بينهم حوالي عشرون ألف فارس، وكانت تعيش شبح الحرب والحصار، فاختزنت المؤن والأقوات، وكانت مستعدة لحصار طويل[1]، فقد ظلت تقاوم حتى استسلمت. وتم الاتفاق على صيغة التسليم التي وافق عليها الملكان، فقد تضمنت الوثيقة التي قررت مصير الأندلس 56 مادة. تحدد تسليم المدينة خلال ستين يوماً من توقيع المعاهدة وكيفية التسليم[2]، ولكنها سلمت بعد 39 يوماً من توقيع المعاهدة.

أما الأوضاع الاقتصادية فقد شهدت تدهوراً كبيراً بعد أن كانت الأندلس تنعم بالأزدهار وتصدر الانتاج الزراعي، والتجار يصدرون الفائض من المحاصيل إلى الشام والعراق والهند والخليج العربي، تدهورت أوضاع الزراعة خاصة في بلنسية، بعد ترك السكان لقراهم والهرب وإجبارهم على التنصر.

انعكس هذا التحول على العلاقات التجارية وحركة الاستيراد والتصدير. فبعد أن شهدت الأندلس تاريخاً فكرياً زاخراً بالمؤلفات تجلى في حجم المكتبات وما تضمنت من تراث فكري عربي وتراجم من لغات أخرى إلى العربية. أمر «سيسنيروس»[3] بإحراق عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية.

حاول العلماء الصمود في وجه النصارى، ورد العدوان، ودرء الفتنة، ونصرة المظلومين، وبرز دورهم في تحريض الحكام والناس على القتال لصد الغزو الافرنجي من خلال مشاركتهم في القتال ضد أعداء الإسلام والنضال بأرواحهم لحماية حضارة بكاملها، فكل عالم كان عبارة عن موسوعة من المعلومات، فهو شاعر، وأديب، وطبيب ونحوي، وفيلسوف، إضافة إلى إلمامه بالقرآن والحديث والفقه والعقيدة، فكتبهم ومؤلفاتهم عبارة عن موسوعات شملت جميع أنواع المعرفة في عصرهم.

---

1 ـ المقري، نفخ الطيب، ج6، ص 276.

2 ـ مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص 50.

3 ـ الكاردينال سيسنيروس: هو الذي أمر عام907هـ/1501م بحرق مكتبة مدينة الزهراء التي كان بها حوالي 600,000 مخطوط في مكان يسمى باب الرملة في غرناطة، وهي ساحة كبرى معروفة ما زالت موجودة بنفس هذا الاسم العربي القديم حتى اليوم.

أما الأوضاع الاجتماعية فأصبحت أشبه بكابوس، بعد سقوط غرناطة، وترتب على الأسرة أعباء جديدة، فبعد أن كان الطابع العربي الإسلامي مسيطراً على المجتمع، دخلت عادات وتقاليد وجب على الأندلسيين التقيد والإلتزام بها، حتى لا يتعرضوا للتعذيب والإذلال.

الفصل الثاني: أوضاع الموريسكيين في ظل الكثلكة: شهدت الأندلس أعمالاً بربرية وحشية ارتكبتها محاكم التفتيش بحجة تطهير اسبانيا من آثار الاسلام والمسلمين. وقد لبث فرناندو عشرين عاماً بعد سقوط الأندلس ينزل العذاب والاضطهاد بمن بقي من المسلمين في محاكم التفتيش التي انشئت بمرسوم بابوي صدر عام 888هـ/1483م، وعينت ألقس «دي تركيمادا» محققاً عاماً لها، وقد مورست في هذه المحاكم معظم أنواع التعذيب الوحشي المعروفة في العصور الوسطى، وضحاياها كان ينفذ فيهم حكم الحرق في احتفال يشهده الملك ورجال الدين، وكانت احتفالات الحرق جماعية، وكان فرناندو من عشاق هذه الحفلات، فالهدف كان إشاعة جوٍّ من الرهبة والخوف في قلوب الناس، كي يلجأوا إلى الفرار[1].

وعانى الموريسكيون من التعذيب والأدوات المستعملة، التي تقشعر لها الأبدان من تمزيق للأجسام البشرية، وآلات تكسير العظام، والغرف الصغيرة بحجم جسم الإنسان، بعضها عامودي وبعضها افقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفاً حتى الموت، وكذلك سجين الغرف الأفقية والجثث تترك في السجن حتى تبلى ويتفكك اللحم عن العظام، وتأكله الديدان، وصنوف أخرى من التعذيب التي لا نهاية لها[2].

---

1 - قطب، محمد علي، محاكم التفتيش في الأندلس، دار القلم، بيروت، 1987م، ص 90.

2 - المرجع نفسه، ص 118 - 119.

الفصل الثالث: طرد الموريسكيين من الأندلس وأماكن انتشارهم خارجها:

توزع المسلمون المهاجرون من الأندلس في أماكن كثيرة منها الجزائر والمغرب وتونس وتركيا وصولاً إلى أميركا، ومنها إلى مصر وبلاد الشام.

حملت الجزائر على عاتقها مهمة إنقاذ مسلمي الأندلس، الفارين من محاكم التفتيش، لامتلاكها اسطولاً بحرياً قوياً، قهرت به أعداء الإسلام، فكانت سيدة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وكانت الجزائر تحمي تجارتها وتجارة الدول الإسلامية في عرض المتوسط.

الفصل الرابع: الحضارة العربية وأثرها في الأندلس وأوروبا: جعل عصر الخلافة الأموية من الأندلس مركز اشعاع فكري تجلى في العلوم الصحية والنقلية، كالطب، والكيمياء، والصيدلة، إضافة إلى علم الفلك والرياضيات والفلسفة، والجغرافيا والرحلات الاستكشافية، وأيضاً عمراني ظهر في بناء المساجد، والقصور والمدن والحدائق.

ويتطرق هذا الفصل أيضاً إلى تعامل العرب الإسبان مع الأندلسيين عند الفتح 92هـ/711م، والتسامح الديني الذي جذب المسيحيين واليهود. وتتميز الحضارة الإسلامية بعدم رفض الآخر وتخيير الشعوب المهزومة بين الإسلام والجزية أو الحرب، والجزية مقابل الاحتفاظ بالدين والبقاء في بلادهم، كما وفروا لهم نتاج حضارة، بكل جوانبها الثقافية، والاقتصادية، والعلمية...

فعندما سقطت غرناطة، وجاء الحكم الإسباني، كان أول قرار تم اتخاذه هو إنشاء ديوان التحقيق أو التفتيش الإسباني. وكان الهدف منه بزعمهم مطاردة الكفار وحماية المذهب الكاثوليكي، وكان القرار الذي أصدره الملكان فرديناند وإيزابيلا في 1 جمادي الآخرة 897هـ/ 30 اذار 1492م، والقاضي بأن يغادر كلّ اليهود الذين لم يتنصروا اسبانيا في غضون أربعة أشهر من تاريخ القرار، ولا يعودوا إليها أبداً، ويعاقب المخالفون بالموت ومصادرة أموالهم، فتنصر الكثير منهم،

وهام الباقون على وجوههم في الأرض بين الحرمان والتشريد. وهو مصير مشابه لمسلمي الأندلس، ولكنه لا يرقى إلى الشقاء الذي نزل بالموريسكيين.

د- دراسات سابقة:

1 - تمكنت من الاطلاع على كتب تاريخية لفترة البحث، المعتمدة بين عامي897هـ/1492م و1023هـ/1614م. ومن أبرز الأعلام المهتمين بالدراسات الموريسكية في الوطن العربي د. عبد الجليل التميمي الذي عقد برعايته عدة مؤتمرات في تونس.

2 - ومؤلفات كثيرة لكتاب عرب منهم: د. محمد عبده حتاملة، د. محمد علي قطب، د. أسعد حومد، عبد الحكيم الذنون، محمد قشتيليو، أحمد رائف، عبد الواحد ذنون طه، علي مظهر.....الخ.

3 - إضافة إلى مؤلفات مترجمة من الإسبانية إلى العربية لمؤلفين اسبان عايش بعضهم هذه الفترة الزمنية وكتب عنها.



التمهيد

1 - موقع الأندلس وأسباب تسميتها

أطلق أهل أفريقيا والمغرب هذه التسمية على إسبانيا التي استقر فيها الوندال أو الفندالس، وهو إسم لفندالسيا (vendalicia)[1]، والوندال هم شعوب جرمانية تحركت في هجرة كبيرة لتستقر في السهول الجنوبية من شمال إسبانيا سنة 409م[2]. ولما جاء العرب وافتتحوا هذه البلاد أطلقوا عليها اسم "**أندلس**"، وقد اعتبروا أن الأندلس هي جميع شبه الجزيرة الأيبيرية الواقعة في جنوب غرب أوروبا[3]. وذكر المقري عن ابن سعيد أن إسم الأندلس جاء نسبة إلى الأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح الذي نزل فيها، وقد نزل أخوه سبت بن يافث في العدوة المقابلة، فسميت بسبتة نسبة إليه[4]. وكذلك قال المقري في كتابه نفح الطيب "إن أول من سكن الأندلس في قديم الأيام، فيما نقله الإخباريون من بعد عهد الطوفان، وعلى ما يذكره علماء عجمها، قوم يعرفون بالأندلش – معجمة الشين – بهم سمي المكان، فعرّب فيما بعد بالسين غير المعجمة"[5].

---

1 - سالم، السيد عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية – بيروت، 1971م، ص 20.

2 - شبارو، عصام، الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، دار النهضة العربية – بيروت، 2002، ط1، ص 56.

3 - حلاق، حسّان، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، دار النهضة العربية – بيروت، 1999م، ط2، ص 269.

4 - المقري، ج1، ص127.

5 - المقري، المصدر نفسه، ج1، ص 135.

كان المؤرخون المسيحيون يطلقون إسم إسبانيا على شبه جزيرة أيبيريا، وذلك نسبة إلى ملك عجم رومة (إشبان بن طيطش)، وهو أحد ملوكهم الذين ملكوا أقطار الدنيا كما زعموا. وهو الذي غزا الأفارقة في هذه البلاد، وفرق جموعهم وبنى على قاعدتهم مدينة إشبيلية التي نسبت إليه، وكانت تسمى إشبانيا لأن إشبان كان ينزل فيها، ثم غلب هذا الاسم على الأندلس كله[1]. ولكن المؤرخين والجغرافيين المسلمين في إسبانيا سموها **"الأندلس"**، وكان هذا الأسم طوال حكم المسلمين في إسبانيا يعني الرقعة التي كانت تخضع منها لسلطانهم مهما طرأ على حدودها من تغير[2]. وأما المناطق المسيحية في الشمال فكان يعرفها المسلمون في القليل النادر باسم "إسبانيا" وكانت تعرف في الغالب بأسماء الدول التي تقوم فيها مثل: ليون وقشتالة ونبرة وأراغون الخ....

وإسم الأندلس قديم العهد، يرقى استعماله إلى سني الفتح، يدل على ذلك دينار ضرب في عام 98هـ/716م ونقش على أحد وجهيه بالعربية عبارة **"ضرب في الأندلس"**، وعلى الوجه الآخر باللاتينية، **"ضرب في إسبانيا"** (frappe en Spain). ولا يزال البحث في أصل هذا الأسم ضرباً من الظن والتراجم. إلا أن الافتراض الوحيد المقبول حتى الآن هو أن مصدرها كلمة **"فندالسيا"** أي مواطن القناديل التي قد يكون الفندال أطلقوها على أقليم بيطي **"بيتس"** الذي أقاموا فيه قبل نزوحهم إلى شمال إسبانيا وهذه التسمية باقية الأثر إلى يومنا هذا في لفظة Andalusia، وهي المنطقة التي تطل في الوقت الحاضر على المنطقة الجنوبية من إسبانيا، وتضم مقاطعات المرية وغرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وأشبيلبة وقادس (وادي آش) ولبلة[3].

---

1 ـ المقري، نفخ الطيب، ج1، ص 136.

2 - Manuel Marin, Encyclopedie de la Mediterrane, Octobre 2000. P.9

3 ـ المصري، محمد، (محاضرات مطبوعة حول حضارة العرب في الأندلس) الجامعة اللبنانية – بيروت، 1973م، ص 14.

2 ـ جغرافية الأندلس

بلاد الأندلس هي على شكل مثلث يرتكز على ثلاثة أركان. الأول يقع بين الجنوب والمغرب حيث نقطة اجتماع البحرين عند صنم قادس. وركنها الثاني في بلد جيليقية مقابل جزيرة برطانية وركنها الثالث بين مدينة نربونة ومدينة برذل. وهناك يكاد يجتمع المحيط بالبحر المتوسط لولا برزخ من الصحراء يفصل بينهما[1]. وهي تتألف من ثلاثة أقسام هي: موسطة، وقسم شرقي وقسم غربي[2]. يحدها من الشرق البحر المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ويفصلها عن فرنسا شمالاً سلسلة جبال ألبرت أو ألبرتات Pirineos التي تتخللها ممرات ومضايق تصل بين البلدين[3].

وإسم الأندلس أي معظم شبه جزيرة أيبيرية. كانت بلاداً واسعة تتميز بخصوبة التربة واتساعها وكثرة الأنهار والوديان وغزارة المياه وعذوبتها ووفرة المحاصيل الزراعية وتنوعها. وهي إلى جانب هذا تحتل موقعاً استراتجياً بين قارتي إفريقية وأوروبا وتطل سواحلها على البحر المتوسط وعلى المحيط الأطلسي[4].

مراحل الحكم العربي الإسلامي في الأندلس (91-897هـ/711-1492م)

للخوض في البحث لا بد من الاطلاع على مراحل الحكم الإسلامي في الأندلس بشكل مختصر. لقد اصطلح المؤرخون على تقسيم الحكم الإسلامي في الأندلس الى العصور التالية:

أولاً: عصر الولاة: ويمتد من الفتح العربي حتى قيام الدولة الأموية في الأندلس اي من سنة 91-138هـ (711-756م). وفي هذا العصر كانت الأندلس

1 ـ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 134 - 135.

2 ـ المقري، المصدر نفسه، ج1، ص 134.

3 ـ العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، دون تاريخ، بيروت، ط1، ص 18.

Manuel. Marin, Encyclopedie de la Mediterrane, op-cit, P. 11-12 - 4

ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية بدمشق.

ثانياً: عصر الدولة الأموية: وهو أزهى العصور الأندلسية وينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: (من 138-316هـ /756-929م) وفيه كانت الأندلس إمارة أموية مستقلة سياسياً عن الخلافة العباسية في المشرق[1].

وتداول حكم هذه الإمارة، الأمراء الأمويون الآتية أسماؤهم:

1) عبد الرحمن الأول بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الداخل) (138 - 172 هـ/ 756 - 788م)[2].

2) هشام بن عبد الرحمن (172 - 180هـ/788 - 796م).

3) الحكم بن هشام (الربضي) (180 - 206هـ/796 - 822م).

4) عبد الرحمن الثاني أو الأوسط بن الحكم (206 - 238هـ/822 - 852م)

5) محمد بن عبد الرحمن (238 - 273هـ/852 - 886م).

6) المنذر بن محمد (273 - 275هـ / 886 - 888م).

7) عبد الله بن محمد (275 - 300هـ / 888 - 912م).

القسم الثاني: (من 300-422هـ / 912-1031م) وفيه صارت الأندلس خلافة مستقلة سياسياً وروحياً عن الخلافة العباسية بالمشرق، وتداول الحكم فيها عدد كبير من الخلفاء الأمويين نكتفي بذكر أوائلهم:

1- عبد الرحمن الثالث وهو أول من أعلن نفسه خليفة وتلقب بالناصر لدين الله.

2 - الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر (350 - 366هـ / 961 - 976م)[3].

3 - هشام الثاني المؤيد بن الحكم المستنصر (366 - 399هـ / 976 - 1009م).

وفي عهد الخليفة هشام المؤيد صارت السلطة في يد صاحب الدولة

1 - طه، عبد الواحد ذنون، دراسات أندلسية، المدار الاسلامي، بيروت، 2004م، ط1، ص 71.

2 - كولان، وليفي بروفنسال، البيان المغرب، ليدن، ط1، ص 113.

3 - كولان، ج.س، الأندلس، ترجمة ابراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980، ط1، ص 113-118.

المنصور بن أبي عامر، واستمرت في يد ولديه المظفر ثم عبد الرحمن الملقب بشنجول.

وانتهت الدولة الأموية سنة 422هـ (1031م).

ثالثاً: عصر ملوك الطوائف: (من 422-479هـ / 1031-1086م). ويبدأ بسقوط الدولة الأموية في الأندلس وتفكك الدولة إلى دويلات طائفية ضعيفة متنازعة وينتهي بدخول المرابطين من المغرب إلى الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وانتصارهم على الاسبان في موقعة الزلاقة سنة 1086م.

رابعاً: عصر السيطرة المغربية: (من 479-612هـ / 1086-1214م تقريباً). وفيه تحولت الأندلس إلى ولاية تابعة للمغرب في عصري المرابطين والموحدين وكانت العاصمة مدينة مراكش في جنوب المغرب.[1]

دولة المرابطين (448-541هـ / 1056-1147م)

يبدأ تاريخ المرابطين في جناح المغرب الأيمن، في الصحراء الغربية صحراء شنجيط[2] أو ما يسمى اليوم بموريتانيا. أطلق اسم المرابطين في بادىء الأمر على رجال قبيلة جدالة في الجنوب ثم أطلق بعد ذلك على رجال قبيلة لمتونة التي تقع في شمالها[3]. لهذا نقل عبد الله بن ياسين القيادة من جدالة إلى لمتونة[4]. وفي الوقت الذي أوجد فيه داعية المرابطين الديني عبد الله بن ياسين قوة سياسية من الملثمين (المرابطين)، قامت هذه القوة خلال الفترة (444-476هـ/-1052

1 ـ المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار العرب، المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963م، ص 177.

2 ـ مقلد، محمد يوسف، شعراء موريتانيا الدار البيضاء 1962، ص 11.

3 ـ البكري، المغرب في وصف افريقية والمغرب، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1968م، ص 165-166.

4 ـ البكري، المرجع نفسه، ص 167.

1083م) بالقضاء على إمارات المغرب الأقصى المتنازعة ووحدتها سياسياً[1].

تميز عصر دويلات الطوائف في الأندلس بالحروب المستمرة بين ملوك هذه الدويلات، كما تميز أيضاً بتبعية أغلبية أمراء الطوائف لملوك الإمارات الاسبانية في الشمال. وعلى الرغم من سياسة الولاء هذه، إلاّ أنها لم تجد نفعاً، فقد كان هدف الفونسو السادس إسقاط هذه الدويلات، الواحدة بعد الأخرى، وكان هدفه الأول مدينة طليطلة، قلب الأندلس، فسيطر عليها عام 478هـ/1085م بالتعاون مع جيوش اسبانية وأوروبية، واتخذها عاصمة لدولته، ومركزاً يشن الغارات المتكررة منها على مدن الأندلس المجاورة[2].

بعد سقوط مدينة طليطلة بيد الاسبان عام 478هـ/1085م، ازداد عبث الاسبان في سائر أنحاء الأندلس، فقرر أمراء الطوائف – وعلى رأسهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية – دعوة المرابطين من أجل رد خطر الاسبان[3]، وقال جملته المشهورة التي عبرت عن شعور المسلمين في ذلك العصر: «رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير!!»[4]. فجاءت هذه الدعوة بعد ثلاثة أشهر من سقوط مدينة طليطلة[5].

- **الجهاد المشترك بين المرابطين وملوك الطوائف ضد الممالك الاسبانية (479-483هـ/1086-1090م)**

كانت الخطوة الأولى التي اتخذها أمير المرابطين يوسف بن تاشفين في هذا المجال هي العبور بقواته إلى الأندلس في ربيع الأول عام (479هـ/ حزيران

---

1 - حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 327.

2 - السامرائي، خليل، علاقات المرابطين مع امارات المغرب الأقصى، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، 1979م، ص 126 وما بعدها.

3 - لين بول، العرب في إسبانيا، ص 165.

4 - الناصري، الاستقصا، ص 35.

5 - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 245.

1086م) من أجل نصرة أهل الأندلس، والإعداد لإرجاع مدينة طليطلة إلى دولة الإسلام[1]. وبعد استعدادات عسكرية من الطرفين، وقعت معركة الزلاقة في يوم الجمعة، 12 رجب من عام 479هـ/ تشرين الأول 1086م، انهزم فيها الاسبان والأوروبين، وطعن الفونسو السادس ملك قشتالة وهرب مع شلة من جنوده صوب مدينة طليطلة. وكانت معركة الزلاقة من المعارك المهمة في بلد الأندلس، استبشاراً للمسلمين في العدوتين، على الرغم من عدم استرجاع طليطلة من سيطرة الاسبان[2].

انتصرت قوات المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين، ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس، وهُنىء بالفتح، وقرأت القراء، وقامت على رأسه الشعراء، فأنشدوه، قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم واعددت قصيدة أنشدها بين يديه، فقرأ القارىء [**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ**][3] فقلت: بعداً لي ولشعري! والله ما ابقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به[4]. إن انتصار المرابطين في الزلاقة قد أنقذ الحكم الإسلامي في الأندلس من سقوط محقق، كما أنه في الوقت نفسه ثبت أقدام المرابطين فيها، وبذلك أصبح هذان القطران (المغرب والأندلس) يكونان دولة واحدة قوية عاصمتها مدينة مراكش.

واستمر الحكم الإسلامي بعدها من 1086م إلى 1492م تاريخ سقوط دولة الأندلس، أي زهاء أكثر من أربعة قرون.

عبور الموحدين إلى الأندلس (541هـ/1146م)

قرر عبد المؤمن بن علي ارسال ثلاثة جيوش إلى الأندلس، عبرت في عام 541هـ/1146م، وسيطرت على مدن الجنوب مثال طريف والجزيرة الخضراء،

---

1 - ابن الكردبوس، تاريخ الاندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الثالث عشر، مدريد، 1966م، ص 90.

2 - ابن عذارى، البيان، ج 4، ص130.

3 - سورة التوبة 9، الآية 40.

4 - مذكرات الأمير عبد الله ص 106.

كما أعلن أهل شريش ولاءهم للموحدين[1]. واستطاعت الجيوش الموحدية من السيطرة على مدينة قرطبة[2]. فدخلت القوات الموحدية قرطبة في 543هـ/1148م. وبقيت مدينة غرناطة آخر معاقل المرابطين في الأندلس، واستمر ميمون حاكم غرناطة في عناده إلى عام 551هـ/1156م، فتنازل عن مدينة غرناطة للموحدين بعد أن حصل على الأمان من زعيم الموحدين الخليفة عبد المؤمن بن علي[3]. كان محمد بن هود أول من ثار على الموحدين في الأندلس، فهو سليل أسرة بني هود أصحاب مملكة سرقسطة. بعد وفاة محمد بن هود عام 635هـ/1237م، خلفه في الحكم ابنه الواثق بالله محمد بن هود [4].

انتهز الفرصة خاييمي ملك أراجون فهاجم بلنسية التي كان يحكمها السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن الذي كان انهزم امام ابن هود، مرسية. ثار عليه البلنسيون والتفوا حول ابي جميل زيان بن مردنيش وخلعوا طاعة الموحدين فغادر أبو زيد بلنسية والتجأ إلى ملك أراجون ودخل في طاعته وأعلن اعتناقه للنصرانية[5] وسار مع سيده الجديد لمحاربة المسلمين، استغل خايمي هذه الظاهرة وأخذ يستولي على حصون المسلمين المحاذية له. استمات البلنسيون بالدفاع عن مدينتهم واستنجدوا بالأمير أبي زكريا بن حفص عاهل افريقية. فبادر بإرسال قوات نقلتها عدة سفن، ولكنها لم تستطع خرق الحصار وسقطت بلنسية في 17 صفر 636هـ/ 28 أيلول 1238م[6].

في هذه الظروف القاسية التي أخذت فيها الأندلس تواجه مصيرها المحتوم

---

1 - الفقي، عصام الدين، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1990م، ط1، ص 264.

2 - ابن أبي زرع، روض القرطاس في أخبار ملوك العرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط 1980م، ص 191، ابن خلدون، المقدمة، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج6، ص 233.

3 - ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص 126.

4 - أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص 206.

5 - ابن خلدون، المصدر السابق، ص 168.

6 - المقري، نفح الطيب، ج6، ص 237.

بالفناء بعد سقوط قواعدها المهمة قامت دولة عربية في جنوب الأندلس قادت الصراع مع الأعداء مدة قرنين ونصف من الزمن. تلك هي مملكة غرناطة..

خامساً: مملكة غرناطة أو عصر بني الأحمر أو بني نصر.

وهو آخر عصر إسلامي في الأندلس ويمتد من سنة628-897هـ /1231 إلى سنة 1492م. وهي السنة التي سقطت فيها في أيدي الاسبان. ويلاحظ أنها السنة نفسها التي اكتشف فيها كريستوفر كولمبس أميركا[1].

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر الخزرجي (مؤسس مملكة غرناطة)

أسس هذه المملكة محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي الذي يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة الانصاري الصحابي الكبير[2]. ولما كثرت غزوات النصارى لأراضي الأندلس رأى الفرصة سانحة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فالتف حوله الأنصار في أرجونة – والمناطق المجاورة، رغم معارضة ابن هود له رأى أن يستظل بدعوة الخلفاء المسلمين فدعا لأبي زكريا الحفصي حاكم افريقية وللخليفة العباسي المستنصر[3]. وانضم إلى جيشه كثير من المسلمين الذين غادروا المناطق التي احتلها الاسبان، فاستطاع تجهيز جيش كبير ساعده على تنفيذ مشاريعه[4].

وبعد وفاة ابن هود عمل على ضم المناطق التي كانت تحت سيطرته، كان ابن هود قد ولى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلي، كان جائراً وخصماً لأبن الأحمر يأمر بسبه على المنابر، وثار عليه جماعة من اشرافها بزعامة ابن خالد[5]

---

1 - العبادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي والأندلس، ص 287-286-285.

2 - ابن خلدون، المقدمة، ج4، ص 17، المقري، نفح الطيب، ج1، ص 280.

3 - المقري، المصدر نفسه، ج4، ص 422.

4 - ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص 169.

5 - ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محمد جبران، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2004م، ص 35.

وقتلوه واعلنوا ولاءهم لمحمد بن يوسف بن الأحمر واستدعوه، فسار محمد إلى غرناطة ودخلها غروب الشمس آخر شهر رمضان 635هـ/ نيسان 1238م. ومنذ تلك اللحظة غدت غرناطة قاعدة ملكه[1].

أيضاً كانت بحاجة إلى الاستقرار بعد أن مزقت الفتنة الأندلس وجعلتها فريسة سهلة بين الأعداء. فكان على ابن الأحمر وقد أضحى أمل الأندلسيين أن يعمل على إنقاذ الأندلس من الحالة التي آلت إليها على يد حكامها المتخاذلين الذين كانوا يؤثرون الإنضواء تحت راية الملك الاسباني على مناصرة محمد بن يوسف بن الأحمر، فكان هؤلاء الحكام الصغار يضحون بمقدساتهم ويخضعون للاسبان ويؤدون لهم الضرائب للبقاء في حكم مدنهم ومقاطعاتهم[2]!

- ومملكة غرناطة تشمل ثلاث ولايات كبيرة:

ولاية غرناطة في الوسط، وولاية المرية في الشرق، وولاية مالقة في الجنوب[3]. وهذه هي المنطقة التي استطاع بنو الأحمر الاحتفاظ بها ما يقارب قرنين ونصفاً من الزمن. كان فرناندو ملك قشتالة يرى في ابن الأحمر عدواً يجب القضاء عليه. ولكن تم الاتفاق بين الاثنين على ان يحكم ابن الأحمر مملكته باسم مملكة قشتالة، ومساعدة الملك القشتالي في حربه ضد أعدائه من المسلمين، فيقدم الملك عدداً من الجنود لمساعدته وأن يحضر ابن الأحمر اجتماع قشتالة النيابي (الكورتيس) باعتباره تابعاً للعرش القشتالي[4].

وتنفيذاً للاتفاق، سلم ابن الأحمر إلى فرناندو جيان وأرجونة وقلعة جابر كرهائن دليلاً على حسن النية. وتنازل له كذلك عن الفرنتيرة[5]. لقاء هذا الخضوع

---

1 - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 422.

2 - المصدر نفسه، ج1، ص 422.

3 - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973م، ط2، ص 115 - 119.

4 - عنان، نهاية الأندلس، ص 43، ابن خلدون، المقدمة، ج 4، ص 190.

5 - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 36.

عقد السلم بين الفريقين لمدة عشرين سنة عام 643هـ/1245م. وكان الاسبان قد استولوا على شرق الأندلس، وبقي الغرب فريسة سهلة انتزعوه بسهولة[1]. وأخذ فرناندو يتأهب للإستيلاء على اشبيلية، وبعد سنة ونصف من الحصار الشديد وبعد مقاومة باسلة اضطرت اشبيلية إلى الاستسلام. ودخلها فرناندو في مستهل شهر رمضان 646هـ/ 23 كانون الأول 1248م[2].

محا فرناندو المعالم الإسلامية للمدينة، فحول مباشرة مسجدها إلى كنيسة، وليس من مبرر لأفعال ابن الأحمر الخيانية الشاذة في مساعدة القشتاليين في حربهم ضد المسلمين. فإنها خيانة قل مثيلها في التاريخ العربي، ولكنها كانت شائعة في الأندلس، وخاصة بعد سقوط الخلافة[3]. وهكذا فقدت الأندلس قوتها وقواعدها خلال ثلاثين عاماً، وانحسرت في رقعة ضيقة حول غرناطة بعد أن كانت تشغل نصف مساحة شبه الجزيرة قبل قرن تقريباً. وأثار الانهيار السريع قرائح الشعراء فنظموا القصائد الوجدانية والقومية التي ترثي الأندلس منهم أبو الطيب الرندي الذي يبكي الأندلس فيها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش انسان[4]

وقضى محمد بن يوسف أيامه الأخيرة يوطد دعائم ملكه، اختار لولاية عهده ابنه أبا سعيد[5] فرج. ولكنه توفي فعين مكانه ابنه محمداً آخذاً بالنظام الوراثي.

تلقب ابن الأحمر بأمير المسلمين، وقد بنى قصر الحمراء الشهير في غرناطة واتخذه مركز حكمه[6]. بعد وفاة ابن الأحمر (محمد بن يوسف) 635هـ/ نيسان 1238م خلفه ابنه أبو عبد الله (محمد ابن محمد بن يوسف) 671- 701هـ الملقب

---

1 - عنان، نهاية الأندلس، المرجع السابق، ص 43.

2 - السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب الجديدة ـ المتحدة، ليبيا، 2000م، ط1، ص 292.

3 - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 423.

4 - عنان، نهاية الأندلس، ص 49.

5 - نصر الله، سعدون، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 357.

6 - ابن خلدون، المقدمة، ج7، ص 191.

بالفقيه لعلمه[1]. أعقبه نصر بن محمد الفقيه، تنازل محمد (الذي لقب بالمخلوع) عن الحكم بعد هزيمته سنة 712هـ/1313م. وتربع على عرش غرناطة السلطان أبو الوليد اسماعيل 713 - 725هـ/1314 - 1325م.

- خلفه السلطان محمد بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف (أبو عبد الله) 725 - 733هـ/ 1325 - 1333م. اغتاله أحد مماليك أبيه يدعى زيان[2].
- استلم السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد اسماعيل 733هـ/ 1333م.
- استمر السلطان يوسف على عرش غرناطة حتى اغتاله مخبول بالمسجد نهار عيد الفطر 1354م.
- تولى بعده السلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل 755هـ/ 1354م.
- نشبت ثورة ضد محمد الغني بالله قام بها أنصار أخيه المعتقل اسماعيل[3].
- توفي الغني بالله (793 - 797هـ/ 1391 - 1394م). بعد عهد عامر بالجهاد والعمران.
- ونادوا باسماعيل سلطاناً[4]. وهو السلطان اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل.
- وخلفه ابنه يوسف بن محمد الفقيه (793 - 797هـ/ 1391 - 1394م).
- توفي السلطان يوسف بعد حكم دام ثلاث سنوات وبضعة أشهر بتدبير من السلطان المغربي أبي العباس[5].
- تولى الحكم بعد وفاة والده، ابنه السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله (797 - 808هـ/ 1394 - 1405م).

---

1 ـ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 31 32-.

2 ـ المقري، نفخ الطيب، ج6، ص 120.

3 ـ نصر الله، سعدون، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 372.

4 ـ الناصري، الاستقصا، ج4، ص 81.

5 ـ المصدر نفسه، ج4، ص 81.

- خلف السلطان يوسف بن يوسف بن الغني بالله أخاه السلطان محمد (811 - 820هـ/ 1408 - 1417م).
- توفي السلطان يوسف 1417م بعد حكم دام 9 سنوات خلفه ابنه السلطان محمد بن يوسف (الأيسر) [1] (820 - 846هـ/ 1417 - 1442م).
- ومن ثم سعد بن محمد (863 - 868هـ/ 1458 - 1463م).
- وصولاً إلى عهد علي بن سعد (أبو الحسن) (-868 878هـ/ 1463 - 1482 م).
- تعرض خلال حكمه لثورة أخيه الزغل من مالطة.
- محمد بن علي بن سعد (أبو عبد الله) (887 - 897هـ/ 1482 - 1492م).

وتربع على عرش غرناطة الفتى محمد أبو عبد الله مكان أبيه. الذي خاض معركة حامية ضد جيوش قشتالة فهزمهم، ثم قاد جيشاً آخر فاتجه نحو قرطبة، وانتصر في عدة معارك، إلاّ أنه أسر في معركة عند قلعة اللسانة وأخذ أسيراً، وتولى أمر غرناطة والده أبو الحسن علي (888 - 890هـ/ 1483 - 1485م). ثم أطلق سراح أبي عبد الله الصغير عام 890هـ/ 1485م بعد توقيع اتفاق لصالح قشتالة. وتولى أمر غرناطة أبو عبد الله الزغل (890 - 892هـ/ 1485 - 1487م) ثم عاد أبو عبد الله الصغير مرة ثانية إلى عرشه (892 - 897هـ/ 1487 - 1491م). وخلال هذه الأحداث هاجمت القوات القشتالية مدينة لوشة مرة أخرى فدخلتها في عام 891هـ بشروط لصالح قشتالة، ثم قامت حروب أسرية بين العم (الزغل) وابن أخيه (أبي عبد الله الصغير) انتهت بتقسيم مملكة غرناطة[2].

بدأ ملك قشتالة يشدد ضرباته على المدن الأندلسية الباقية ويرهقها بالحصار. وكان يخرب ما حول مدينة غرناطة من أجل التهيؤ لدخولها. وأثناء ذلك عقد الزغل عام 895هـ/ 1489م معاهدة مع ملك قشتالة، فترك الأندلس إلى الجزائر.

وبعد سقوط الحصون الأندلسية بيد الاسبان لم يبق سوى غرناطة، فأرسل

---

1 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص 138.

2 - حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، نشر الجامعة الأردنية، 1977م، ط1، ص 27، ص 33.

الإسبان إلى السلطان أبي عبد الله يطلبون إليه تسليم غرناطة وفقاً لشروط معينة، فجمع السلطان أعوانه وأجمعوا على الرفض[1]. ويعتبر أبو عبد الله الصغير آخر سلطان عربي على الأندلس.

1 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص -522 529 523-529.

الفصل الأول

المسلمون قبيل سقوط غرناطة

1 ـ أسباب صمود غرناطة
2 ـ حصار غرناطة
3 ـ التسليم
4 ـ المعاهدة والبنود
5 ـ الأمير أبو عبد الله

أ ـ الأوضاع الاجتماعية

1 ـ الحياة الاجتماعية أيام بني الأحمر
2 ـ الحياة الاجتماعية للموريسكوس
3 ـ تبدل العادات والتقاليد

ب ـ الأوضاع الاقتصادية

1 ـ الحياة الاقتصادية في غرناطة
2 ـ الحياة الاقتصادية بعد السقوط

ج ـ الحياة الفكرية في الأندلس

1 ـ الأدب
2 ـ اللغة

3 ـ مصير الكتب والمخطوطات

4 ـ العلماء ودورهم في الجهاد والاستشهاد

د- الأوضـــاع السياسيـــة

1 ـ العوامل الداخلية المؤثرة في سقوط غرناطة

2 ـ دور الكنيسة البابوية في سقوط غرناطة

1 ـ أسباب صمود غرناطة

عاشت مملكة غرناطة مائتين وخمسين عاماً بين قوات معادية تحيط بها من كل جانب، وكان أعداؤها يترددون في العمل ضدها بعد أن أصبحت ملجأ للشجعان القادرين على العمل ببسالة في حرب الحياة أو الموت الأخيرة، وبعد أن ارتبطت بنوع من التحالف مع بني مرين[1] حكام إفريقية[2].

ولكن ملكي قشتالة (Castilla) وأراجون (Aragon)، فرديناند وإيزابيلا تحينا الفرصة ووجدا أن الوقت قد حان لتسديد الضربة القاضية لغرناطة.[3]

وترجع أسباب صمود غرناطة في وجه الأعداء إلى الأسباب التالية:

1 ـ كانت مملكة غرناطة بعيدة عن متناول العدو، مع مناعة في الموقع بجانب قربها من عدوة المغرب، وقدرة مسلمي غرناطة على الاستعانة بإخوانهم في المغرب وبقية الشمال الإفريقي[4].

2 ـ كذلك موقع مملكة غرناطة في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية، لم يدعها تعيش طوال سنينها وحيدة. بل كان الأخوة في المغرب لا يتأخرون عن عون إخوانهم الأندلسيين، وكان على رأس هؤلاء بنو مرين. ولو استمرت الدولة المرينية على قوتها، أو خلفتها مباشرة دولة

---

1 ـ بنو مرين: فرع من قبيلة زناتة الامازيغية (البربرية) الشهيرة، وقعت معارك بينهم وبين الموحدين انتهت بانتصار بني مرين واستحواذهم على أموال الموحدين وسلاحهم. وفي عام 667هـ/1269م، كانت الموقعة الحاسمة انتهت بقتل الخليفة الموحدي، وقيام دولة بني مرين.

2 ـ حبيبة، علي، مع المسلمين في الأندلس، ص 262-263.

3 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 215-216.

4 ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 519.

قوية، لتغيرت مُجريات الأمور في الأندلس[1].

3 - فإن ملوك المسيحية قد تركوا غرناطة وشأنها في أول الأمر لانصرافهم لتوطيد دعائم ملكهم فيما فتحوه من البلاد.[2]

4 - أدى سقوط الكثير من المدن الأندلسية في أيدي النصارى إلى هجر مدنهم واللجوء إلى مملكة غرناطة ليحتموا بها، فتجمعت فيها كثرة من هؤلاء الذين برعوا في كل ميدان، حربياً كان أم مدنياً.[3]

5 - عامل الجهاد الذي التزم به سكان هذه المملكة، إذ أن الالتزام بالإسلام والمعاني الإسلامية التي بقيت في نفوس الناس، وهبت الحياة لهذه المعاني، وهي التي جمعت هذه الطاقات ودفعتها للوقوف مجتمعة، والاستعداد للتضحية، كما كانت العامل وراء وقوف بني مرين مع إخوانهم[4].

2 - حصار غرناطة (897هـ/1491م)

حاصر الملكان الاسبانيان مدينة غرناطة، وأنشأ المحاصرون مخيماً تحول إلى مدينة أسموها (سانتافي/الايمان المقدس). وقد خرج مقاتلو غرناطة عدة مرات لشل مخططات الاسبان وإفشالها، وكان على رأسهم موسى بن الغسان الذي نسجت حوله الأساطير[5]. ودام الحصار سبعة أشهر صمد خلالها الغرناطيون. ونتيجة اليأس وانتشار الجوع والمرض، اجتمع أعيان المدينة واتفقوا على تسليمها.[6]

---

1 - الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 520.

2 - العبادي، عبد الحميد، المجمل في تاريخ الأندلس، دار القلم، القاهرة 1964، ص 173.

3 - الحجي، المرجع السابق، ص 521.

4 - طقوش، محمد سهيل، تاريخ المسلمين في الأندلس، دار النفائس، بيروت، 2010، ص 579.

5 - فرحات، يوسف، غرناطة في ظل بني الأحمر، دار الجيل، بيروت، 2000م، ط1، ص 146.

6 - السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 301.

ولكن سبق المفاوضات خروج الملك «فرناندو» من «بازا» بقسم من جيشه، لتتبعه الملكة بمن بقي، مارين مرور المنتصرين بالمدن، وحين اقترب «فرناندو» من «المرية»[1] خرج الملك العربي للقائه مع رؤوس البلد على ظهور الخيل، وقد غم وجه «الزغل»[2] القاسي شيء من المهانة، وشفتاه تتحركان بين الفينة والأخرى، دون أن يقول شيئاً، فكان كمن تند شفتاه عن عبارة «لا غالب إلا الله»، حين نزل عن حصانه لما اقترب ملك النصارى وقبّل يده والملك راكب دلالة على الخضوع، ولكن «فرناندو» طلب منه أن يعود ليركب مهره، قبل أن يأمر «فرناندو» ببدء الاحتفال[3]. وهكذا تم تسليم «المرية» وكل المناطق التي كانت بيد «الزغل»، وعندما تم هذا كله انسحب، نحو منطقته الصغيرة التي سميت «مملكة أندراكس»، بعيداً عن العالم، راضياً بظل ملك فارغ.

سر أبو عبد الله الصغير، فقد شفي حقده، فهو سيحكم بعد سقوط عمه وحده دون منافس على عرش «غرناطة»، وكان على ثقة أن النصارى سوف يحمونه حتى من رعاياه[4]. وقد أظهر «فرناندو» قيمة هذه الصداقة بأن أرسل إلى «ببدول»[5] يذكره بالمعاهدة التي كتبها على نفسه، والتي يذكر فيها: «إذا استولى النصارى على «غواديكس» و «المرية» و «بازا» سيسلم لهم غرناطة بوقت محدد. وها هو «فرناندو» يطالبه بتحقيق ما وعد به. وأرسل رسالة ثانية إلى قادة المدينة ومجلس الشورى فيها، طالباً منهم الاستسلام، فإذا خضعوا لهذا

1 - المرية: مدينة أندلسية، أمر ببنائها الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله (344هـ/955م)، وجاء اسمها من وظيفتها، إذ كانت تتخذ مرأى ومرصداً لمدينة بجانة.

2 - الزغل (ت 878-868هـ/1482-1463م): قبل سقوط غرناطة بست وعشرين سنة (871هـ/1467م) كان يحكم غرناطة محمد بن سعد بن اسماعيل الأحمر، الملقب بالغالب بالله، وكان له أحد الأخوة واسمه محمد ويُعرف بأبي عبد الله محمد الملقب بالزغل (يعني الشجاع)، اختلف هذان الأخوان على حكم مملكة غرناطة، ما دفع أبو عبد الله الزغل على الاستعانة بملك قشتالة ضد أخيه الغالب بالله.

3 - مؤلف مجهول، أخبار العصر ص 31، المقري، نفح الطيب، ج2، ص 613، عنان، نهاية الأندلس، ص 240.

4 - ايرفنع، واشنطن، أخبار سقوط غرناطة، ص 354.

5 - ببدول الشيكو: هو أبو عبد الله آخر سلطان من بني الأحمر.

يعدهم بشروط جيدة كالتي أعطاها إلى «باز وغواديكس والمرية» وإلا فعليهم أن يواجهوا مصيراً كمصير «مالقة - Malaga»[1].[2]

وهكذا سببت رسائل الملك الكاثوليكي المزيد من الاضطرابات بين سكان المدينة، وخاصة التجار الذين ذاقوا حلاوة الربح التجاري أثناء الهدنة السابقة، أما من له عائلة فقد نظر إليها نظرة المشفق. لكن غرناطة لم تكن لهؤلاء فقط، إذ صار فيها أناس من كل المملكة من الذين دمرتهم الحرب، ويعانون الآمها والرغبة بالثأر من النصارى، بالإضافة إلى الفرسان الذين ليسوا أقل جرأة وبطشاً من كل هؤلاء، لكنهم من سلالة نبيلة ورثت الكره المقيت للنصارى من أجدادها على مدى تاريخ «الأندلس»، والذين يعتبرون الموت أسهل من تسليم «غرناطة»، وكان من أهم هؤلاء الفرسان وأشدهم وأنبلهم «موسى بن أبي الغسان»، وهو من سلالة ملكية، لا أحد يفوقه بالخيل والفروسية[3]. وحين سمع «موسى» بمطلب «فرناندو» بضرورة تسليم السلاح في غرناطة، لمعت عيناه الناريتان بالإباء قائلاً: «هل يظن ملك النصارى أننا شيب أو أرامل يمكن أن نخضع للتهديد، دعوه يعرف أن العربي يلد بين سيف ورمح يؤنسانه في المهد، فإذا حرم منهما حرم الحياة، وإذا كان ملك هؤلاء النصارى يرغب بسلاحنا فليأتِ ويأخذه بحد سيفه، لكي نهيىء له قبراً أمام أسوار «غرناطة»، فساحة الموت أشرف من أغنى القصور ومن الذل والعبودية لهؤلاء المشركين»[4]. هلل محاربو غرناطة وكبروا لأقواله. وشارك مجلس الشورى هذا الحماس، فدبجوا رداً إلى الملك المسيحي معلنين فيه أن الموت أشرف من تسليم مدينتهم له. حين تلقى «فرناندو» ردّ مجلس الشورى جهز فوراً كل قواته للدخول بصراع مرير، لكن فصل الشتاء لم

---

1 - مالقة: تقع في جنوب اسبانيا، وهي عاصمة مقاطعة مالقة في منطقة أندلوسيا وهي تطل على البحر المتوسط. عنان، نهاية الأندلس، ص 244.

2 - عنان، نهاية الأندلس، ص 244.

3 - سيركور، تحت السيطرة المسيحية، باريس، 1846، ص 325، حومد، أسعد، محنة مسلمي الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1988م، ط2، ص 143.

4 - ايرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص 356.

يكن يسمح بتشكيل المعسكرات.[1]

استلم «موسى بن أبي الغسان» قيادة الفرسان محاطاً بكل نبلاء وشباب «غرناطة»، متهيئين للقتال. ورغم ذهاب الشتاء، وبداية الربيع إلاّ أن «فرناندو» كان يؤخر هجومه، لأنه كان يعرف صعوبة أخذ مدينة «غرناطة» عنوة، لأنها كانت محمية بالحصون، ومليئة بالمعدات والمواد التموينية التي لا يؤثر عليها الحصار، لذلك قال لمجلسه: «علينا أن نتحلى بالصبر، فإذا هاجمنا القرى والحقول المحيطة بالمدينة هذه السنة فسوف نسبب نقص الغذاء فيها بالسنة القادمة، عندها يمكن أن تضرب المدينة المجاعة»[2]. وأرسل فرناندو مجموعاته العسكرية بكل اتجاهات «الفيغا»[3] لإنزال الخراب بهذه البلاد. وحدثت مواجهات كثيرة بين «موسى» والنصارى، ويبدو أن «فرناندو» لاحظ أن المسلمين يفضلون على الغالب المعارك التي لهم فيها التفوق بموقع الأرض، ورغم ما يبدو من أن النصر بالنهاية من نصيب النصارى، كانت خسائرهم فادحة، لأن الفرّ كالكرّ جزء أساسي من تكتيك الحرب العربية، لكي تضطرب صفوف عدوهم حين يهم بملاحقتهم، فيعودوا ليكروا عليه وليمزقوه وهو في فوضاه، لذلك أمر «فرناندو» مقدميه إلى عدم الاستجابة إلى اي نوع من المبارزات مع العرب، وأن ينصرفوا إلى هدفهم تدمير الفيغا فقط[4].

وقد وصل الأمر إلى قمته مع «الزغل»، فحقده على ابن أخيه «ببدول» أعماه، وبمجرد أن علم أن «فرناندو» يدمر «الفيغا» جمع كل قواته في هذه المملكة الوضيعة التي بقيت له، ولحق بمعسكر النصارى كتابع لهم يخدمهم ضد دينه وإيمانه، وكل هذا كي يروي غلّه برؤيه ابن أخيه وهو يسقط عن عرش غرناطة[5]. خرج «فرناندو» على رأس سبعة الآف فارس وعشرين ألف راجل

---

1 ـ ايرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص 385.

2 ـ ايرفنغ، المرجع نفسه، ص 359.

3 ـ الفيغا: السهول المحيطة بغرناطة.

4 ـ الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، دار المعرفة، دمشق، 1988م، ط1، ص 54.

5 ـ شاكر مصطفى، الأندلس في التاريخ، دار الإشبيلية، سوريا، 2002م، ص 151.

من «الفيغا»، منطلقاً بهم بكل سرعة من «قرطبة[1]» لكي ينجد «سالوبرينا Salobrena[2]»، وحين علم برفع الحصار عنها، وجه جيشه نحو تدمير ثانٍ «للفيغا» وحوّل أسوار «غرناطة» وظلّ على هذا الحال خمسة عشر يوماً، إلى درجة أنه لم ينج عرق أخضر من أفعاله ولم يبق على حيوانٍ في السهل أو على وجه الأرض، وكان العرب يخرجون له أحياناً، ويقاتلونه بشكل يائس، حتى غدت «غرناطة» مدينة الحدائق والبساتين، محاطة بصحراء قاحلة. وانطلق لسحق ما اعتبره مؤامرة مدن «غواديكس وباز والمرية»، فأرسل «فرناندو» المركيز «أوف فيلينا» لصد هذه المؤامرة، فدخل إلى «غواديكس»[3] فجأة وبقوات كبيرة، وشرد سكان المدينة في البراري، وعلى نفس المنوال ساق أهل «بازا والمرية» خارج ديارهم، ففضل هؤلاء الناس ترك ديارهم عن الوقوع بأيدي المفتشين[4].

أما «الزغل»[5] حين عاد من حملته، قام عليه شعبه، وشهروا عليه السلاح، وأعلنوا ولاءهم لغرناطة وطردوه، مع السماح له وحريمه وأتباعه بالمرور إلى افريقيا، ولاقت هذه الصفقة استحسان «فرناندو». فعندما وصل إلى افريقيا ألقاه ملك «فاس» بالسجن، واتهمه بأنه سبب خراب وانهيار مملكة «غرناطة»، فصادر أمواله، وكحله بمكحلة من نحاس تحمَّى فأعماه. فجر «الزغل» حطام وجوده وبقايا ذاته في مدينة «فاس» لسنين عديدة، يتجول أعمى إلى درجة أن البعض من أطفال المدينة كانوا يعلقون على ظهره ورقة كتب عليها

---

1 ـ قرطبة: تقع على نهر الوادي الكبير، في الجزء الجنوبي من اسبانيا، أسسها القرطاجيون فيما يعتقد، وخضعت لحكم الرومان والقوط الغربيين. وقد قام بفتحها القائد الإسلامي طارق بن زياد (93هـ/711م) وفي عهد عبد الرحمن الناصر أول خليفة أموي في الأندلس بلغت أوج ازدهارها، وكانت تحوي سبعين مكتبة، وتسمائة حمام عمومي.

2 ـ سالوبرينا: منطقة تقع على البحر المتوسط تابعة لمدينة غرناطة.

3 ـ غواديكس: تقع شمال غرناطة.

4 ـ ايرفنع، أخبار سقوط غرناطة، ص 375.

5 ـ الزغل: هو عم أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة.

«ملك الأندلس؟!»..[1] وخلال الشتاء راح «فرناندو» يهيء كل استعداد ممكن لآخر الغزوات التي يجب أن تقرر مصير «غرناطة»، خرج فرناندو وايزابيلا نحو الحدود العربية وقد قررا إنزال الحصار الشديد بغرناطة، وعدم رفعه إلا إذا تمكنا من غرز علمهما في قلب أبراج «الحمراء»، وشارك معظم النبلاء الذين لبوهما من أقاصي البلاد لتحقيق هذا الانجاز. وهذا يعني اشتراك كل المدن بهذا الجيش الملكي، فقد نزل الملك إلى ساحة الحرب هذه بعشرة الآف فارس وأربعين ألف رجل[2]. فقد نصبت الخيمة الملكية على بعد أربعة أميال ونصف من «غرناطة» ونظراً لكثرة عدد الجيش دبّ الذعر في سكان المدينة لأنهم شعروا أن هذه هي آخر معاركهم اليائسة مع العدو.

في غرفة من قصر الحمراء مطلة على القطعات العسكرية المنتشرة في كل «الفيغا» فسيطر على جوّ الاجتماع الحيرة والاضطراب، وبسبب الذعر الذي أصاب البعض منهم خوفاً على عائلاتهم، راحوا ينصحون «أبا عبد الله الصغير» بالإستسلام ولكن بشروط مشرّفة. وعندما سمع موسى هذا التخاذل رفض العرض، و حصل على تفويض من أبي عبد الله يخوّله حماية «غرناطة» وقال: «إفعل ما تراه ملائماً يا موسى، فأنا أضع بين يديك أمن هذه البلد وأعلنك حامياً للمملكة[3].

ولا شك مع اقتراب العدوّ اغلقت أبواب المدينة بالمزالج الخشبية الآمنة، ورفعت سلاسل الأبواب الثقيلة لتغلق أبوابها الضخمة، لكن بعد تهيّوء موسى وفرسانه، عاد وأمر بفتحها قائلاً: «لقد ائتمنونا على الدفاع عن أبواب المدينة، فأجسادنا أنا وفرساني هي مزالجها»، واضعاً كوكبة من الفرسان على كل باب بخيولهم المتحفزة للوثوب، وبلحظة واحدة فتحت كل الأبواب، لينطلق كل هؤلاء

---

1 - ايرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص 377-376.

2 - الذنون، أفاق غرناطة، ص 55، مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص 37.

3 - ايرفنغ، المرجع السابق، ص 379.

الفرسان دفعة واحدة، فاندفعوا كالرعد القاصف، ولم يكن قول «موسى» بأقل من أفعاله، وهو يخرق صفوفهم وهي تنهار تحت سنابل خيله، فكان بطلاً عربياً بكل معنى الكلمة، ولو كان مثله في السلطة في بدايات هذه الحرب، لتغير مصير «غرناطة»، ولبقي التاج العربي على «الحمراء» إلى الأبد[1].

أحرق «فرناندو» البساتين المحيطة بغرناطة، بعد التهام النيران معسكره، فأغلق العرب على أنفسهم الآن حصون قلعتهم بكل حزن وأسى، ولم يعد بمقدورهم أن يقوموا بأي خروج جريء من أبوابها، وعاش الناس على أمل أن احتراق معسكر العدوّ سوف يضعف من معنوياتهم، وبذلك ينتهي هذا الحصار بإنتهاء العاصفة كما جرت العادة في الحروب السابقة، فينسحب العدو قبل حلول موسم الأمطار السنوية في الخريف، لكن الاجراءات التي اتخذها «فرناندو وايزابيلا» ما برحت أن حطمت مثل هذه الآمال، فقد أصدرا أمريهما ببناء مدينة بدل المخيم وفي موقعه، لإقناع العرب بأن الحصار لن يرفع قبل استسلام «غرناطة»، وسميت بالمدينة المقدسة أو «سانتا في» وامتلأت بالمتاجر المليئة بكل البضائع الثمينة والرخيصة، وبدأ الازدهار يدبّ في هذه المدينة، بينما «غرناطة» التعيسة مقفلة أبوابها في عزلتها الخائفة[2].

ونتيجة الحصار بدأت المدينة تشعر بالمجاعة، بعد نفاد المواد التموينية منها[3]. وهكذا أجمع وجوه البلد على أن السكان لم يعد بمقدورهم الصمود، بينما العدوّ مصر على إبقاء الحصار إلى ما لا نهاية، فلا هدف للصمود إلاّ الموت أو الإستسلام[4]. أحسّ «ببدول» بالحزن، لأنه كان يأمل بالمساعدة من سلطان مصر الذي خذله، أو من بربر افريقيا الذين أداروا ظهرهم له أيضاً. وبينما كان

1 ـ ايرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص 380.

2 ـ مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص 38، الفقي، عصام الدين، تاريخ المغرب والأندلس، ص 303.

3 ـ بشتاوي، الأندلسيون المداركة، مطابع انترناشيونال برسن القاهرة 1983م، ط1، ص 105.

4 ـ ايرفنغ، المرجع السابق، ص 396، نصر الله، سعدون، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 400.

يتردد في قراره أجمع الحضور على حثه على الاستسلام.

لم يكن يعارضهم في هذا سوى البطل موسى الذي وقف في قصر الحمراء وقال: «لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال»، ثم غادر المجلس وذهب إلى بيته ولبس سلاحه وامتطى جواده وانطلق يقابل بمفرده خمس عشرة رجلاً من النصارى، فيقتل معظمهم ثم يُقتل هو في سبيل الله[1]. رغم ذلك أرسل أبو القاسم عبد الملك إلى معسكر النصارى مخولاً بأن يفاوض على التسليم، وتوقيع معاهدة مع الملكين الكاثوليكيين «فرناندو وايزابيلا»، تتألف من شقين الأول علني، والثاني سري[2].

3 - تسليم غرناطة (897هـ/1492م)

قاومت غرناطة السقوط وحدها طيلة قرنين ونصف القرن، حتى سقطت بدورها في يوم الاثنين أول ربيع الأول 897هـ/ 2 كانون الثاني 1492م، لتسقط معها الأندلس وتضيع نهائياً، فتحولت إلى «الفردوس المفقود»[3]. وعند الساعة الخامسة والنصف من صباح ذلك اليوم الحزين، أصدر الوزير ابن كماشة أوامره للجند في أعلى القلعة بإطلاق قذيفة في الهواء من المدفع الوحيد الذي بقي مما صنعه المسلمون إيذاناً ببدء إجراءات التسليم حسب الاتفاق. ومع صوت هذا المدفع الذي انطلق كالرعد أُعلن رسمياً انتهاء دولة الإسلام في الأندلس والتي استمرت ثمانية قرون[4]. وارتفع بعده صوت النحيب والبكاء وهو يأتي مروعاً

1 - عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 255-254.

2 - مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص 46.

3 - شاكر، عصام، الأندلس في التاريخ، ص 152.

4 - البستاني، الفريد، تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، ص 43-42، بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 119.

الشطشاط، علي، نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص 62.

في أرجاء غرناطة.[1]

وكانت مراسم التسليم تقضي أن يقوم السلطان أبو عبد الله الصغير بتسليم القلعة والقصر بعد أن يتفقد الحرس الإسلامي مع الكاهن، وقال الملك في صوت متهدج للكاهن: هيا يا سيدي تقدم في هذه الساعة الجميلة الطيبة بتسلم قصوري باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله أن يستوليا عليها لفضائلهما وخبث المسلمين[2]. وأشار له الكاهن أن يرافقه، وارتفع صوت أبي عبد الله الصغير: ها هو أمامك كل شيء، تفضل وخذ كل شيء، ماذا يمكن أن أقدمه؟ أمامك كل شيء، كل شيء. وأسرع ابن كماشة يقول للكاهن: تفضل يا سيدي، أنا معك سأتولى تسليمك القصر والقلعة، وأشهد معك تغيير الحرس. وهز الكاهن رأسه موافقاً، ووجه حديثه للملك في ود مصطنع: يستطيع صاحب الجلالة – لو أراد – أن يستريح في خيمتي من المعسكر، وهو على مقربة من هنا كما تعلمون[3]. ورد أبو عبد الله الصغير: شكراً لك. ولم يستطع الكاهن أن يمنع نظرة الازدراء التي شمله بها قبل أن يتحول عنه ليجد الملكة عائشة على جوادها تنتظر شاردة ذاهلة بفم نصف مفتوح، وحياها الكاهن باحترام شديد فلم ترد تحيته وظلت على حالها هذه[4]. كان السلطان أبو عبد الله الصغير يجتاز طرقات غرناطة في موكبه الحزين الذليل، وكان الضباب يتخلل الطرقات، وكأن ما يحدث مشهد اسطوري لا ينتمي إلى هذا العالم. دولة تخرج من التاريخ مع وقع حوافر جواد الملك الصغير وهو يخرج من غرناطة إلى الأبد. وأخرى تصعد إليه مع خطوات الكاهن إلى أعلى البرج ليثبت الصليب، حيث تتربع «الكثلكة» فوق منابر الإسلام. ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[5].

---

1 - عنان، محمد عبد الله، أندلسيات، ص 98.

2 - حومد، اسعد، محنة مسلمي الأندلس، ص 146.

3 - رائف، أحمد، وتذكروا من الأندلس الابادة، ص 268.

4 - مؤلف مجهول، العصر، ص 49-48.

5 - سورة آل عمران، أية 140.

وهكذا رفع الصليب الكبير على أعلى برج في قصر الحمراء، فقد كان يحمله فرناندو دائماً معه في حروبه ضد المسلمين، ولا يزال باقياً. وبجواره رفع علم قشتالة، وعلم القديس الذي قامت باسمه جمعية »شانت ياقب«[6] الدينية[7]. ثم أطلقت المدافع ابتهاجاً. وصدحت الموسيقى أثناء خروج الجند المسلمين من القلعة حيث كان آخر عهدهم بها وحل محلهم الحرس النصراني. وعندما اقترب أبو عبد الله الصغير من مقام الملك الذي كان على جواده ينتظره ترجل الملك الصغير عن جواده وسار إليه ماشياً على قدميه. وتظاهر الملك فرناندو بأنه يحاول منعه من الترجل، ثم تركه بعد ذلك يتقدم إليه ويتجرع ثمالة الكأس كما قالت له الملكة عائشة منذ قليل، وقدم أبو عبد الله الصغير للمللك «فرناندو» خاتمه الذهبي الذي يبصم به المراسيم والقرارات، وقدم له مفاتيح القلعة والقصر، ثم قدم له مفتاحي البابين الرئيسين للحمراء وقال: «أيها الملك العظيم: هذان مفتاحا الجنة التي تراها الآن، يقدمهما لك خديمك أبو عبد الله محمد، وهما آخر ما تبقى للمسلمين من دولة في هذه البلاد، وقد أصبحت يا مولاي سيدنا وصاحب أرضنا وأشخاصنا، وهكذا قضى الله ولا راد لقضائه، فكن يا مولاي عادلاً رحيماً كما نأمل فيك»[8]. ثم سار أبو عبد الله الصغير إلى ضاحية «أرميليا Armilia» حيث محلة الملكة «إيزابيلا» حيث قدم لها فروض التحية والولاء والطاعة، حيث رأى ولده المريض يسير بين الحرس حيث كان رهينة في معسكرها[9].

وغادر الملك أبو عبد الله الصغير محلة الملكة «إيزابيلا» ومعه غلامه الذي ارتهنوه قبل أيام إلى حيث كانت تنتظر أمه الملكة عائشة وزوجته وأخواته،

---

6 ـ جمعية شانت ياقب: تنسب إلى يعقوب الحواري، أحد حواريي عيسى عليه السلام، وأنه خرج من القدس يُبشر بدين المسيح حتى وصل إلى جيليقية، ولما مات بعد عودته إلى بلاد الشام، حمل أصحابه رفاته ليدفنوه أقصى المكان الذي بلغه في دعوته، فدفنوها في الكنيسة التي لقبت باسمه «سانت يعقوب».

7 ـ رائف، أحمد، وتذكروا من الأندلس الابادة، ص 271، سالم، عبد العزيز، في تاريخ وحضارة الاسلام، ص 404.

8 ـ حتاملة، محمد، محنة مسلمي الأندلس، ص 57.

9 ـ طقوش، محمد سهيل، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 612.

ثم أخذ طريقه إلى «جبال البشرات»[1] حيث قرية «أندرش» منفاه الأخير. بدأ انتهاك المعاهدة في ذات اليوم الذي سُلمت فيه غرناطة. فقد أقيم قداس كبير في مسجد غرناطة الجامع حضره الكاردينال بيدرو دي مندوسا، رغم أن المعاهدة تنهى عن ذلك[2]. فقد كانت المعاهدة تحرم على أي مسيحي أن يدخل مسجداً، ومن يفعل ذلك يعاقب، فكيف إذا كان رئيس الكنيسة هو الذي يفعل هذا، ونذكر هنا موقف عمر بن الخطاب عندما أذن له البطريرك صفرنيوس الصلاة في كنيسة القيامة حين جاء وقت الصلاة ولكنه رفض وصلى خارجها وقال لا يأتي من بعدي فيقول عمر فعل هذا ويفعل هو الآخر.

وأقيم في الليل حفل كبير حضره الأمراء والنبلاء والعظماء القشتاليون وشرفه الملك فرناندو، وحضرت الحفل الملكة السابقة ثريا أو ايزابيلا زوجة السلطان أبي الحسن والد أبي عبد الله الصغير وحضر معها ولداها، سعد ونصر، وأعلن الجميع تنصرهم، وأنهم كانوا يخفون النصرانية تحت ثياب الإسلام[3].

والحقيقة لم يكن الغالبون كرماء أو متسامحين مع المغلوبين، فقد عاملوهم بفظاظة واحتقار منذ اللحظة الأولى، وبدأ رجال الدين يخططون لنقض المعاهدة والعمل على تنصير المسلمين.

وأعرب الملك فرناندو عن نيته بصراحة عندما سأله الكاردينال «بيدرو دي مندوسا» عن نوايا الدولة تجاه المسلمين، فرد قائلاً: «نوايا الدولة هي إبادة المسلمين في الأندلس. والذي يتنصر سوف يفلت من القتل. أريد جيشاً قوياً كبيراً أغزو به بلاد المسلمين. أريد أن أصل بفرسان الصليب إلى مكة فأهدم الكعبة وإلى المدينة فأسوي قبر نبيهم بالتراب، وتنتهي هذه الاسطورة التي استمرت مئات السنين، هذه هي نوايا الدولة»[4].

---

1 - جبال البشرات Las Alpujarras: لا تبعد أكثر من 60 كلم عن غرناطة.

2 - عبد الفتاح عوض، فصول في تاريخ الأندلس، ص 154.

3 - الدحداح، نعمة الله، تشنيف الآذان، ص 119، حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 62-61.

4 - رائف، وتذكروا من الاندلس الابادة، ص 209.



خريطة الأندلس، جيمس رستن، محاكم التفتيش، ص: 12



تشير الرسمة إلى انحناء الملك الصغير أمام فردنياند الخامس ليقبل يديه على أن يطلقوا سراحه (فما أقرب اليوم بالأمس)

تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين ايزابيلا وفرديناند بواسطة أبي عبد الله الصغير

طارق سويدان، الأندلس التاريخ المصور، ج1، ص: 094

بين أبي عبد الله الصغير، والملكين الكاثوليكيين فرديناند وايزابيلا

تاريخ 21 محرم 897هـ/ 25 تشرين الثاني 1491م.

في حقيقة الأمر عقدت اتفاقيتان، سرية وعلنية، الأولى وقعها أبو عبد الله الصغير وقواده مع «فرديناند وإيزابيلا»، ووافق بموجبها أبو عبد الله على تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين مقابل امتيازات مادية لأبي عبد الله الصغير وحاشيته.

أما الاتفاقية الثانية فهي العلنية وهي محاولة للتغطية عما اتفق عليه أبو عبد الله مع الملكين الكاثوليكيين سراً، ولإضفاء صفة الشرعية على الاتفاق السري[1].

وقد تضمنت هذه الوثيقة، التي قررت مصير آخر القواعد الأندلسية ومصير الأمة الأندلسية، شروطاً عديدة بلغت ستاً وخمسين مادة.[2]

أ - الاتفاقيـة السريـة:

وتتلخص هذه الحقوق والامتيازات والمنح فيما يلي:

1 - يتعهد ملك غرناطة والقادة والقضاة والحجاب والعلماء والمفتون والشيوخ، ووجهاء غرناطة والبيازين وأهاليهما وأرباضهما كافة صغاراً وكباراً، بأن يسلموا إلى صاحبي السمو، أو من ينتدبانه الأماكن التالية: «قلاع الحمراء وحصونها وأبوابها وأبراجها، وأية أبواب أخرى في

---

1 - الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، ص 69-52.

2- سعدون، نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 405-400، حومد، أسعد، محنة مسلمي الأندلس، ص 150، الناصري، الاستقصا، ج4، ص 104.

مدينة غرناطة وكورها، ولضمان تنفيذ سلامة هذه البنود، يقدم ملك غرناطة وقادته خمسمائة شخص من أبناء علية القوم واخوانهم في المدن والبيازين، لصاحبي السمو في المعسكر الملكي بمرج غرناطة وذلك قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماشة، ليكونوا جميعهم رهائن لدى صاحبي السمو لمدة عشرة أيام، يتم خلالها ترميم القلاع وتزويدها بالمؤن، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء الفترة معاملة حسنة، وعند انتهاء الأجل، يرد الرهائن إلى ذويهم.

2 ـ وفي اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء والحصون والقلاع والأبواب التي حددتها الاتفاقية، يقوم صاحب السمو بإعادة ابن عبد الله الصغير المحجوز لديهما مع سائر الخدم والحشم.

3 ـ منح أبي عبد الله الصغير وأحفاده وورثته حق الملكية المطلقة على الأماكن التالية: دلاية، مرشانة، اندرش.....الخ.

ويحق لأبي عبد الله الصغير وأولاده وأحفاده وورثته بحكم الملكية المطلقة لهذه المناطق تحصيل خراجها وموروثاتها وريعها وعشورها وحقوقها، ويستطيع صاحبا السمو الاحتفاظ بقلعة عذرة وأراضيها مع سائر القلاع والأبراج الممتدة على الساحل إذا رغبا بذلك.

4 ـ يقدم صاحبا السمو إلى الملك أبي عبد الله الصغير هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب يبعثان بها إليه عقب تسليم الحمراء وبقية القلاع في الوقت المحدد لها.

5 ـ يمنح صاحبا السمو للملك أبي عبد الله الصغير كل ما ورثه عن والده السلطان أبي الحسن، سواء في غرناطة أو البشرات.

6 ـ تعفى جميع التركات التي ورثها أبو عبد الله الصغير، والملكات من الضرائب.

7 ـ يعطى للملك المذكور (أبو عبد الله الصغير) وللملكات المذكورات كل ما كان ملكاً لهم في مطريل.

8 - عندما يرغب الملك أبو عبد الله الصغير والملكات وأولادهم وأحفادهم، وقادتهم وأتباعهم في العبور إلى المغرب، فسوف يجهز صاحبا السمو سفينتين كبيرتين، للجواز بهم في الوقت الذي يشاؤون، وبحوزتهم أموالهم وثيابهم وذهبهم وفضتهم وجواهرهم ومواشيهم وأسلحتهم ما عدا ذخائر تلك الأسلحة.

9- إذا لم يتمكن الملك المذكور أو أي شخص من المذكورين من بيع عقاراته فله الحق في تفويض من يشاء لاستلام ريعها وإرساله له أينما كان.

10- يسمح للملك أبي عبد الله الصغير متى شاء، أن يرسل بعض أتباعه أو عماله إلى أرض المغرب للاتجار بالسلع، مصدرين ومستوردين.

11- يسمح للملك أبي عبد الله أن يبعث بست دواب محملة بالسلع إلى أية ناحية من النواحي التابعة لصاحبي السمو، من أجل مقايضتها بالزاد والمؤونة اللازمة.

12- عندما يخرج الملك أبو عبد الله الصغير من مدينة غرناطة تمنح له حرية الإقامة والمسكن في الوقت الذي يشاء وفي الأراضي التي اقتطعت له حسب الاتفاقية، ولن يفرض على أي من ذريتهم في أي وقت وضع علامة مميزة لهم في ثيابهم، ولهم أن يتمتعوا بسائر الامتيازات المتفق عليها في وثيقة تسليم مدينة غرناطة.

ب - الاتفاقية العلنية:

المادة الأولى: على ملك غرناطة والقادة والفقهاء والحجاب والعلماء والمفتين والوجهاء بمدينة غرناطة والبيازين وضواحيها أن يسلموا إلى صاحبي السمو، أو من ينتدبانه للنيابة عنهما في مدة أقصاها ستون يوماً، اعتباراً من 25 تشرين الثاني عام 1491م معاقل الحمراء، والبيازين، وأبواب تلك المعاقل، وأبراجها، وأبواب المدينة المذكورة، والبيازين، وضواحيهما.

المادة الثانية: في الوقت الذي يتسلم صاحبا السمو قصر الحمراء، يأمران أتباعهما بالدخول من بابي العشار ونجدة، ومن الحقل القائم خارج المدينة، وعلى من يعين لاستلام الحمراء أن لا يدخل من وسط المدينة.

المادة الثالثة: في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء والبيازين، وشوارعهما وقلاعهما وأبوابهما وغير ذلك، يقوم صاحبا السمو بتسليم ابن الملك أبي عبد الله الصغير، المحتجز في قلعة موكلين، مع سائر الرهائن الموجودين.

المادة الرابعة: يسمح صاحبا السمو وسلالتهما، للملك أبي عبد الله الصغير وشعبه أن يعيشوا دائماً ضمن قانونهم – أي بممارسة الشعائر الإسلامية، دون المساس بسكناهم وجوامعهم وأبراجهم.

المادة الخامسة: لن تصادر من المسلمين أسلحتهم أو خيولهم أو أي شيء آخر، حاضراً وإلى الأبد، بإستثناء الذخيرة الحربية التي يجب تسليمها لصاحبي السمو.

المادة السادسة: يسمح لمن يرغب في الجواز إلى العدوة أو أي مكان آخر، من أهالي غرناطة والبيازين والبشرات والمناطق الأخرى، التابعة لمملكة غرناطة ببيع ممتلكاتهم وأراضيهم لمن شاؤوا.

المادة السابعة: الأشخاص الذين يرغبون في العبور إلى العدوة تجهز عملية نقلهم في غضون ستين يوماً من تاريخه، على متن عشر سفن كبيرة تتوزع على الموانىء القريبة منهم.

المادة الثامنة: لا يرغم صاحبا السمو وسلالتهما حاضراً وإلى الأبد المسلمين وأعقابهم على وضع أية شارة مميزة لملابسهم.

المادة التاسعة: لا يحق لصاحبي السمو لمدة ثلاث سنوات من تاريخه تحصيل الأتاوات من الملك أبي عبد الله الصغير وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما.

المادة العاشرة: على الملك أبي عبد الله وسائر سكان المملكة الذين شملتهم الاتفاقية أن يطلقوا سراح جميع الأسرى النصارى.

المادة الحادية عشرة: على صاحبي السمو أن لا يستخدما أي رجل من أتباع أبي

عبد الله أو سكان المملكة، أو أن يسخرا دوابهم في أي غرض دون إرادتهم، ودون أن تدفع لهم أجورهم.

المادة الثانية عشرة: لا يسمح لأي نصراني بدخول المساجد، أو أي مكان لعبادة المسلمين دون إذن من الفقهاء، ومن يخالف ذلك يعاقبه صاحبا السمو.

المادة الثالثة عشرة: لا يجوز لأي يهودي أن يتولى الجباية من المسلمين.

المادة الرابعة عشرة: يعامل صاحبا السمو الملك أبا عبد الله الصغير وسائر رعاياه الذين شملتهم هذه المعاملة معاملة شريفة، وتحترم عاداتهم وتقاليدهم.

المادة الخامسة عشرة: يجب أن يقضي في أية دعوى، أو مشكلة تقع بين المسلمين القضاة وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية.

المادة السادسة عشرة: فيما يتعلق بقضايا التركات عند المسلمين يجب أن ينظر بها القضاة المسلمون.

المادة السابعة عشرة: يتولى الفقهاء إدارة إيراد الجوامع والحلقات الدراسية فيها.

المادة الثامنة عشرة: لا يجوز لمن يتولى القضاء إصدار قرارات ضد أي مسلم بذنب اقترفه آخر.

المادة التاسعة عشرة: يعتبر صاحبا السمو جميع أسرى المسلمين أو الفارين من الأسر إلى مدينة غرناطة أحراراً.

المادة العشرون: يسمح لجميع من عبروا العدوة من سكان غرناطة، بالعودة خلال ثلاثة أعوام من تاريخ إبرام الاتفاقية والتمتع بالامتيازات التي تمنحها لهم هذه الاتفاقية.

المادة الحادية والعشرون: يحق لتجار مدينة غرناطة والبيازين وارباضهما، أن يحملوا سلعهم إلى المغرب.

المادة الثانية والعشرون: لا يجوز إرغام أية نصرانية تزوجت من أحد المسلمين واعتنقت الدين الإسلامي على العودة إلى النصرانية إلاّ طائعة.

المادة الثالثة والعشرون: لا يجوز إرغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية.

المادة الرابعة والعشرون: بعد انتهاء السنوات الثلاث المنصوص عليها في

الاتفاقية تدفع ضريبة الأملاك والضياع الأميرية، وفقاً لقيمتها الحقيقية شأن سائر الأملاك والأراضي.

المادة الخامسة والعشرون: وتشمل هذه الاتفاقية أيضاً اليهود من مواليد مدينة غرناطة، ويسمح لهؤلاء اليهود بالعبور إلى العدوة خلال شهر من تاريخه.

المادة السادسة والعشرون: أن يعامل الحكام والقواد والقضاة الذين يعينهم صاحبا السمو على مدينة غرناطة والبيازين والكور التابعة لهما الناس بالحسنى.

المادة السابعة والعشرون: يتولى النظر في الخصومات التي قد تقع بين مسلم ونصراني، أو مسلمة ونصرانية، مجلس مؤلف من حكمين: أحدهما مسلم والآخر مسيحي.

المادة الثامنة والعشرون: اعتباراً من يوم تسليم الحمراء والبيازين وأبوابهما وأبراجهما، وتعتبر جميع محتويات هذه الاتفاقية نافذة وسارية المفعول في الحاضر وفيما بعد.

المادة التاسعة والعشرون: يفرج عن جميع أسرى مدينة غرناطة والبيازين وأرباضهما وضياعهما الموجودين في الأندلس، خلال الأشهر الخمسة التي تعقب إبرام المعاهدة.

المادة الثلاثون: يتعهد صاحبا السمو لجميع السفن التي تأتي من المغرب، وترسو في موانيء مملكة غرناطة، بحرية التنقل ذهاباً وإياباً، وهي آمنة شريطة أن لا تقوم بنقل الأسرى من النصارى.

وتوجد هناك معاهدة عار ثالثة وكما يتضح أنها الأخيرة، وقد صيغت بنود هذه الاتفاقية لترتيب عملية عبور أبي عبد الله الصغير إلى المغرب، بعد تنازله عن جميع ممتلكاته مقابل مبالغ مالية في نيسان 1493م، ويضم المتحف الحربي في مدريد صورة عن هذه الاتفاقية

وقد ذيل هذا التوكيد، بتوقيع نجلهما الأمير، وحشد كبير من الأمراء،

ورجالات الدولة، وأشرافها، وأحبارها.

وأدى الملك فرديناند، والملكة إيزابيلا، وسائر من حرروا الشروط، القسم بدينهم، وأعراضهم، أن يصونوا المعاهدة إلى الأبد، وعلى الصورة التي (انتهت) إليها، وحررها فرناندو دي زافرا.

خلاصة القول أن ما ورد في نص معاهدة تسليم غرناطة الآنفة الذكر، وما جاء بها من امتيازات، كفيلة أن تضمن للمسلمين في الأندلس، ممارسة حريتهم ولغتهم وشعائرهم الدينية وانظمتهم وعاداتهم، بإستثناء حمل الذخائر الحربية. ثم تبين لنا فيما بعد، كيف نكث الملكان الكاثولكيان بالعهد، ونقضا الشروط التي أقسما على تنفيذها حرفياً إلى أجل غير مسمى. ثم تتلاحق الفصول لتبين تفصيلات الأحداث السياسية، حينما انتدب الكردينال خمنيس ليلاحق الموريسكيين، والعائلات المسلمة ذات الأصول الاسبانية المعروفة ب «Elches». وكيف أساء معاملتهم، وانتهك حرماتهم، وشرد الكثيرين منهم، وحملهم على التنصير القسري، وحظر عليهم كل ما لهم من حقوق بموجب معاهدة التسليم، إلى أن أدت أعمال هذا الكردينال في نتيجتها إلى استفزازات الموريسكيين، وهبوا بانتفاضات عدة أهمها: انتفاضة البيازين عام1499م وثورة البشرات عام 1501م.

إن هذه المعاهدة كانت مجرد حبر على ورق لم يتقيد بها البابا، ولا الملكان الكاثولكيان، ولا نسلهما[1][(1)].

1 - العبادي، عبد الحميد، المجمل في تاريخ الأندلس، دار القلم، القاهرة، 1964م، ص 181-180.

رجعنا في ترجمة وتلخيص نصوص معاهدة التسليم إلى الوثيقتين الرسميتين اللتين تضمنتا نصوص هذه المعاهدة، وهما أولاً، الوثيقة المحفوظة بدار المحفوظات العامة في سيمانقا Archivo general de Simancas، وتحمل رقم P.R 11-207 ضمن مجموعة (Capitulaciones con Moros Y. Caballeros de Castilla). وهي تملأ إحدى عشرة لوحة كبيرة ومحررة بالقشتالية القديمة ولدينا منها صورة فتوغرافية. وثانياً، الوثيقة المعروفة بوثيقة فرناندو دي ثافرا، أمين الملكين الكاثوليكيين وتحفظ بمجموعة دي ثافرا ببلدية غرناطة، وقد نشرت ضمن مجموعة وثائق تسليم غرناطة:

Las Capitulaciones para la Entrega de Granada, por Miguel Garrido Atienz (Granada 1910) p. 269-295.

معاهدة الصلح مع فردیناد وإیزابیلا



طارق سويدان، الأندلس التاريخ المصور، الجزء الأول، ص، 490.

محمد بن علي بن سعد «أبو عبد الله»

887-897هـ / 1482-1492م

1 - مرحلة الصراع على العرش:

تربع على عرش غرناطة الفتى محمد أبو عبد الله مكان أبيه علي أبو الحسن 887هـ/1482م. وسيطر على غرناطة ووادي آش وبقيت مالقة والغرب موالية لأبيه. كان فرناندو بعد هزيمته أمام «لوشة» أرسل جيشاً إلى «مالقة» لاحتلالها ليتم حصار «غرناطة» من الجنوب، وكان الزغل متأهباً للقاء النصارى. ودارت معركة دموية بين مالقة وبلش انتصر فيها الزغل وكبدهم خسائر فادحة فقتل وأسر الآلاف منهم في صفر 888هـ/1483م وتعرف هذه المعركة بالشرقية[1].

اغتنم الملك الشاب محمد أبو عبد الله فرصة هزيمة النصارى. وأراد أن يحرز نصراً يرفع من مكانته في صفوف الأندلسيين مقلداً عمه. فسار على رأس جيش نحو قرطبة ربيع الأول 888هـ/ نيسان 1483م واجتاح عدداً من الحصون وهزم النصارى ثم عاد مثقلاً بالغنائم. هذا وقد طارده النصارى ودارت معركة بينهم في قلعة اللسانة انهزم فيها الغرناطيون ووقع السلطان نفسه في بالأسر ونقله آسروه إلى قائدهم الكونت دي كابرا الذي استقبله بحفاوة. عاد المسلمون إلى غرناطة بعد أن فقدوا ملكهم الأسير وهم في حالة الإعياء الشديد فعم الأسى العاصمة، عندها قرر قادتها بالإتفاق مع الأميرة عائشة استدعاء الملك علي بن أبي الحسن من مالقة لإنقاذ الوضع المتردي، فاعتذر لمرضه[2].

---

1 - المقري، نفح الطيب، ج6، ص 262، مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص 28-27.

2 - الناصري، الاستقصا، ص 102.

حاول السلطان علي أبو الحسن افتداء ابنه الملك الأسير عارضاً شروطاً لدى ملكي قشتالة فرفضا الطلب، لأنهما كانا يريدان استغلال وجوده عندهم للحصول على مآربهما التي تخدم الإسبان. وأخيراً تكللت جهود أمه عائشة بالنجاح، إذ أرسلت وفداً برئاسة الوزير بن كماشة مزوداً بالموافقة على شروط قشتالة. وانتهت المفاوضات بعقد اتفاقية سرية تضمنت اعتراف أبي عبد الله بطاعة الملكين القشتاليين فرناندو وزوجته إيزابيلا، وان يدفع لهما جزية سنوية، وإطلاق سراح 400 أسير نصراني في غرناطة فوراً ....الخ. بعد أن كبل ملك قشتالة أسيره بهذه الشروط أطلق سراحه ورافقته فرقة من الفرسان النصارى إلى بعض الحصون الموالية له في غرناطة[1].

وفي الواقع كانت مملكة غرناطة تشهد حرباً أهلية بين «الزغل» الذي يريد ان يبسط سيادته على سائر أنحاء المملكة، وابن اخيه يوسف أبي الحجاج بن علي في المرية، سار إليها الزغل ودخلها وقتل يوسف[2]. ثم اندلعت الفتنة داخل مدينة غرناطة في حي البيازين بتحريض من محمد أبي عبد الله وكان سكان الحي من عناصر الفتنة والاضطرابات[3]. ودامت الحرب الأهلية عدة أشهر بين الزغل وابن أخيه محمد. حيث انقسمت المملكة الصغيرة إلى قسمين غرناطة وأعمالها يحكمها أبو عبد الله محمد «ووادي آش» حيث عمه الزغل وبذلك تحقق هدف ملكي قشتالة ألا وهو تمزيق ما تبقى من الأندلس تمهيداً للقضاء عليها.

عاش أبو عبد الله الصغير في ظل الهدنة الخادعة، (895هـ/1490م) يشهد سقوط القواعد الأندلسية تباعاً في يدهما، ولم يبق إلاّ مدينة غرناطة وما حولها، بعث فرناندو وإيزابيلا إلى أبي عبد الله يطلبان إليه تسليم مدينة الحمراء وان يحكم غرناطة بأسمهما وتحت طاعتهما، فثار وأدرك فداحة خطأه في الانصياع إلى فرناندو[4]، وانقلب الأمير الضعيف الخانع إلى خصم عنيد، يعتزم الكفاح للزود

---

1 - مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص 18.

2 - الناصري، الاستقصا، ج4، ص 103.

3 - نصرالله، سعدون، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص 388.

4 - كتاب العربي، العدد العشرون، 1988م، ص 97.

عن ملكه ودينه ووطنه، واجمع القادة على رفض التسليم والدفاع حتى الموت، واعتزم فرناندو أن يحصل على غرناطة بأي ثمن، فطوقها بقواته الكثيفة، وبدأ حصارها، ثم اشتدت وطأة الحصار وأخذت موارد المدينة في النفاد، وأدرك أبو عبد الله والقادة أنه لا بد من المفاوضة مع العدو، والحصول منه على الأمان قبل أن يفوت الوقت، ويقتحم الجيش المدينة، فتقع في داخلها المذابح المروعة.

وهكذا يتبين أن المفاوضات حصلت بين فرناندو وممثل أبو عبد الله، وبعد مفاوضات طويلة عاصفة، تمت الموافقة على معاهدة التسليم. فأذعنت غرناطة وسلمت، وانتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس.

أما الملك التعس أبو عبد الله آخر ملوك الإسلام بالإندلس، فقد قضت معاهدة التسليم، أن يغادر غرناطة مع أهله وأمواله إلى منطقة البشرات الشرقية، وأن يحكم هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يكون مقره في قرية أندرش القريبة من ثغر المرية[1].

وبذلك تحققت نبوءة الفلكيين عند ولادته بسوء طالعه، فاطلقوا صرخة «الله أكبر» فعلى يد هذا الطفل مصير هذه الأمة، فقد كتب في الطالع أن هذا الطفل سيجلس على عرش «غرناطة»[2]، لكن سقوط المملكة سيكون أثناء حكمه، وربما بسبب هذه النبوءة – كان والده يتشاءم منه، فتعرض إلى الكثير من الاضطهادات المتتابعة، وكدلالة على ملاحقة هذا الطالع له، منذ طفولته نعت أيضاً «بالزغيب» أي قليل الشعر اللامحظوظ – الأجرد، لكنه عرف أيضاً بالشيكو أو الصغير بحقارة التصغير لا الصغر – وهي تضمن كلا المعنيين تمييزاً له عن عمه الأكبر بنفس الاسم. ولأن العمر تقدم بالملك زاد تولعه بالحسناء الاسبانية «ثريا» فجعلها سلطانة، تاركاً تدبير أموره الخاصة من شأنها وحدها، فاتجهت رغبتها بالسلطة صوب العمل على رؤية أحد ولديها على عرش غرناطة.

---

1 - عنان، أندلسيات، ص 99-98، الفقي، تاريخ المغرب الأندلسي، ص 315.

2 - عوض، عبد الفتاح، فصول في تاريخ الأندلس، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2005، ط1، ص 251.

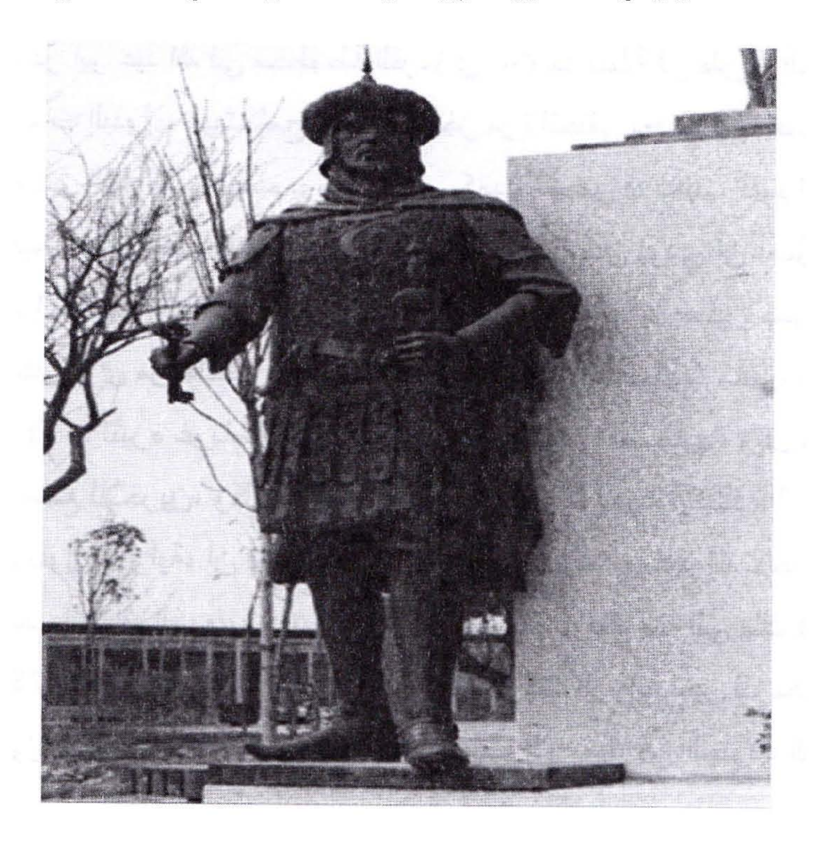
هذا وقد سخرت كل مواهبها، وكل ما لديها من سلطة لتقلب زوجها على باقي أولاده، وتجعله يغار منهم، وكان انسياق «مولاي أبو الحسن» وراءها إلى حد لا يصدق، حين وضع عدداً من أولاده تحت السيف ليموتوا صبراً، وهو يحتفل ببناء بركة السباع في قاعات «الحمراء» فصارت هذه البركة في تاريخ عرب الأندلس رمزاً لطغيان سفك الدماء. حجز أبو الحسن زوجته «الطاهرة» وابنها داخل قصر الحمراء، ومع تقدم «ببدول» بالعمر، زاد شعور «الزوراء» بكونه العقبة الرئيسية في اعتلاء أحد ولديها العرش، لأنه كان المرشح الطبيعي للتاج بعد أبيه، لذلك لا بد من إثارة الغيرة والحقد والشك والغدر في صدر والده، بتذكيره دوماً بالنبوءة التي أظهرها حساب الطالع، فرأى مولاي أبو الحسن أن سيف الجلاد سيسكت طموح «ببدول» ووقاحة أمه.

وعندما علمت السلطانة بنية زوجها الخرف، رتبت خطة لتهريب ابنها من سجنه العاجي في البرج، فوقف خادم مخلص تحت أسوار الحمراء في عتمة الليل على شاطئ نهر «الدار - دارو» مع عدد من الجياد السريعة، وعلى جنح الظلام ربطت السلطانة الستائر والأقمشة والشالات التي لديها ببعض ودلت بها الأمير الصغير، حتى وصل إلى شاطئ البحر[1] ليقفز على سرج حصان عربي من الأحصنة المعدة له باتجاه مدينة «القاضي». هذا وقد كان لمولاي ابي الحسن قصر ملكي اسمه «الأقصار» في جوار غرناطة، وبينما كان عائداً منه في أحد الأيام فوجئ بأبواب المدينة تغلق في وجهه، ويعلن ابنه أبو عبد الله مولاً وملكاً، وعلى هذا علق أبو الحسن بعبارة: الله أكبر لا يمكن رد ما كتبه القدر، لقد قيل لي أن ولدي سيجلس على العرش، والله وحده يعلم ماذا سيحصل، ولأن هذا الملك كان الأدرى بالطبع الناري لرعيته، لم يحاول أي شيء ضد إرادة شعبه المتوقدة هذه، لذلك قال: ستطفئ هذه الشعلة نفسها بوقت قريب، مديراً رسن جواده عن المدينة، متجهاً نحو مدينة «بازا»، ولكنه عاد في ليلة غير مقمرة إلى أسوار «غرناطة»، مع خمسمئة من أخلص رجاله ليتسلق أسوار «الحمراء»

1 - واشنطن، ايرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص 97-96.

ويقفز بنفسه إلى داخلها بكل حقده وغضبه، فكل ما كان يهمه هو الفتك بأعدائه لتأمين المدينة ومن ثم الثأر من كل متمرد فيها، وبعد اطلاق الانذار استيقظت كل المدينة، فتراكض الناس إلى أسلحتهم، وهنا ظهر خطأ تقدير أبي الحسن لأن أغلبية الناس كانت تؤيد ابنه بعد أن عافت طغيانه، لذلك ظهرت المقاومة عنيفة، فقتل الكثير من أتباع أبي الحسن بينما تم طرد الباقين منهم خارج أسوار المدينة، مما اضطر هذا الملك إلى التراجع إلى المدينة الموالية له «ملقا»[1].

فقد انقسم العرب فيها إلى قسمين متنازعين بين الأب وابنه، وراحت اللقاءات الحربية الدموية تأخذ مجالها بينهما، دون أن يعني هذا، أن كلاً منهما على حدة لم يكن يقاتل النصارى وحده حين تحين الفرصة، لأن العدوّ ظل مشتركاً[2].



تمثال لأبي عبد الله الصغير وبيده مفاتيح قصر الحمراء بغرناطة

---

1 ـ ايرفنع، أخبار سقوط غرناطة، ص 98-97.

2 ـ مجلة الدراسات التاريخية لغرناطة، ج1، ص 73.

2 - الرحيل وزفرة العربي الأخيرة:

تقول الرواية أن أبا عبد الله أثناء مسيره إلى قصره الجديد في «شعب البذول» بعد تسليم غرناطة، وقف يسرح البصر لآخر مرة في هاتيك الربوع العزيزة التي ترعرع فيها، وشهدت مواطن عزه، وسلطان أبائه وأجداده، فانهمر في الحال دمعه، وأجهش بالبكاء فصاحت به أمه الأميرة عائشة: «أجل فلتبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال»[1]. وتعرف الرواية الاسبانية تلك الأكمة التي كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن باسم شاعري مؤثر هو «زفرة العربي الأخير». وما تزال قائمة حتى اليوم يعينها سكان المنطقة للسائح المتجول[2].

وذكر أبو عبد الله في مخطوطة القرمزي: «توجد نقطة في طريق البشرات في مرتفعات البذول، حيث تلمح غرناطة لآخر مرة لتختفي بعدها. فيها تقسيم مياه شنيل ووادي الفيل، فيها ينقسم يومي وغدي. كانت الشمس قد ذهبت القمم العالية، والضباب المبشر بصباح جميل يغمر المرج بالكسل. كان بودي أن أصل أبكر إلى تلك النقطة أو أن أعبرها دون انتباه. كنت أعرف تماماً بعينين ضريرتين ماالذي كان يُرى من هناك: هضاب، أكفار، جنان، قرى، مساجد، مآذن، أدغال، أسوار: كل ما تثيره غرناطة من طمع بالنسبة لمن ليسوا أصحابها، وكل ما فيها مما هو ممتع للآخرين، وكل ما فيها من ثقل على من لم يعودوا كذلك»[3].

ثم تقول الرواية، أن باب الحمراء الذي خرج منه أبو عبد الله لآخر مرة، وهو «باب الطباق السبع»، قد سد عقب خروجه منه برجاء منه إلى ملك قشتالة، وبُني مكانه، حتى لا يجوزه انسان من بعده. وما زالت الرواية تعين لنا مكان هذا الباب بين الأطلال الدارسة، وهو يقع في طرف الهضبة، في الجنوب الشرقي

1 - حومد، أسعد، محنة مسلمي الأندلس، ص 146.

2 - عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس، ص 276.

3 - غالا، انطونيو، المخطوط القرمزي، ترجمة رفعت عطفة، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1998م، ط2، ص 427.

منها على مقربة من «برج الماء» وقد سد فراغه حقيقة بالبناء[1].

يذكر «أبو عبد الله» في مذكراته وصوله إلى أندرش مع جماعته منهكين، يقول: «نظرت حولي كما ينظر السجين إلى زنزانته عندما يدفعونه إليها ويسمع صرير قضبانها. جبال غير لطيفة أو مرحبة شهدت حضورنا تحت المطر الناعم. بدت الأرض غير مشغولة وكئيبة بسبب تكرار الحروب. نظرت إلى مريمة، ونظرت إليّ حَام سرب من الحمام المطوق في الهواء....هل سنقضي ما تبقى من حياتنا هنا؟ قلت لنفسي: حالياً هذا هو بيتي»[2].



زفرة العربي الأخيرة وآخر نظرة لغرناطة

3 ـ العبور إلى المغرب:

مكث أبو عبد الله بمقره في أندراش، حوالي عام وبضعة أشهر، ولكنه أدرك أنه يستحيل عليه البقاء في هذا الوضع المهين، كعامل لملك قشتالة. وكان

1 ـ عنان، أندلسيات، ص 100.

2 ـ غالا، المخطوط القرمزي، ص 43.

ملك قشتالة من جانبه ينظر إلى وجوده بعين التوجس، ويخشى أن يكون مثار الفتنة والقلائل. وعوّل أبو عبد الله أن يحذو حذو عمه «الزغل» مبلغ كبير بمقتضى معاهدة خاصة، أبرمت بينه وبين الملكين في نيسان 1493م، وفيها تعهد ببيع أملاكه، ومغادرة اسبانيا نهائياً. وما تزال هذه المعاهدة محفوظة في دار المحفوظات الاسبانية العامة في سيمانقا، وقد ذيل عليها أبو عبد الله بخطه وتوقيعه بالقبول، وبصمها بخاتمه، وذلك بتاريخ 23 رمضان 898هـ/ 7 تشرين الأول 1493م، ويجري نص القبول كما يأتي: «أنا الأمير محمد بن علي بو نصر خديمكم، وصلتني من مقامكم العتيد، وفيها جميع الفصول الذي عقدها عني وبكم، التقديم من خديمي القائد أبو القاسم المليخ، ووصلت بخط يدكم الكريمة عليها، وبطابعكم العزيز كيف هبت مذكورة بهذا الذي هي تصلكم. وأني نوفي ونحلف أني رضيب بها بكلام الوفا مثل خديم جيد.....»

وتعرض صورة مكبرة من هذه الوثيقة بمتحف مدريد الحربي، إلى جانب رداء وصف بأنه عباءة «أبي عبد الله»، وسيف فاخر وصف بأنه سيفه[1]. وكان أبو عبد الله وقت سقوط غرناطة، فتى في الثلاثين من عمره، وذلك حسبما يستفاد من أقوال الرواية القشتالية المعاصرة، وقد تركت لنا الرواية القشتالية المعاصرة ايضاً وصفاً لشخصه، خلاصته أنه كان ممشوق القد، حسن الطلعة، شاحب اللون، له عينان سوداوان نجلاوان، ولحية قوية.

هكذا قرر أبو عبد الله أن يغادر إلى الأبد، تلك الأرض التي نشأ فيها أجداده منذ عصور، وأن يعبر إلى المغرب في أهله وأمواله، وذلك في سفن أعدها ملك قشتالة لجوازه. وكان ذلك في أواخر 898ه/ 1493م. ونزل أولاً بمليلة[2].

1 - مجلة مركز الدراسات التاريخية لغرناطة ومملكتها، مانويل جاسبارو رميرو، مدريد، 1912، عدد2، ج2، ص 251-250؛ عوض، عبد الفتاح ، فصول في تاريخ الأندلس، ص 255.

2 - مليلة: تقع بين الرباط والدار البيضاء (المغرب).

ثم انتقل إلى فاس[1] واستقر بها، وتقدم إلى ملكها السلطان محمد شيخ بني وطاس الذين غلبوا على بني مرين مستجيراً به، مستظلاً بلوائه ورعايته، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يده، متبرئاً مما نسب إليه من ضروب التفريط والخيانة، وقد بسط أبو عبد الله دفاعه في كتاب طويل ومؤثر كتبه عن لسانه، كاتبه ووزيره محمد بن عبد الله العربي العقيلي وسماه «بالروض العاطر الانفاس في التوسل إلى المولى الامام سلطان فاس». وهذا الدفاع الشهير الذي يقدمه إلينا أبو عبد الله عن موقفه وتصرفه، هو قطعة رائعة من الفصاحة السياسية، وهو يدل في روحه وقوته على فداحة التبعة التي شعر آخر ملوك الأندلس، أنه يحملها أمام الله والتاريخ، وعلى أن هذا الأمير المنكود، لم يرد أن يغادر الحياة دون أن يبسط للتاريخ قضيته[2].

استقر أبو عبد الله في فاس في ظل بني وطاس، وذكر أبو عبد الله: «كانت الرحلة في البر إلى فاس من القساوة بحيث أن أمي رجتني، أن نعود أدراجنا ونبقى في أيّ من مدن الشمال. عندما وصلنا إلى فاس، كان الوباء والجوع اللذان انتشرا بدءاً من تونس قد سبقانا إليها. كثير من سكانها، الذين كانوا يغادرونها، تقاطعوا معنا»[3]. فقد شيّد فيها قصورا على الطراز الأندلسي، رآها وتجول فيها المقري مؤرخ الأندلس بعد ذلك بنحو قرن 1037هـ/ 1628م.

ويذكر المقري، في كتابه نفح الطيب، أنه رآهم فقراء معدومين يعيشون من أموال الصدقات. هي قصة مأساوية، تثير كل الشجن، تلك هي قصة مصرع غرناطة، آخر حواضر الإسلام بالأندلس، وشخصية محزنة، هي شخصية أبي عبد الله محمد، آخر ملوك الأندلس. هي مأساة تتكرر عبر التاريخ، فسقوط الأسر والدول ظاهرة طبيعية، تتوالى منذ فجر التاريخ في الشرق والغرب. ولكن قصة

---

1 - فاس: تأسست مدينة فاس 182هـ/808م على يد ادريس الثاني الذي جعلها عاصمة الدولة الادريسية بالمغرب.

2 - غالا، انطونيو، المخطوط القرمزي، ص 450.

3 - المرجع نفسه، ص 488.

مصرع الأندلس، تكاد تنفرد بظروفها المأساوية، ذلك لأنها لم تكن فقط نهاية الأسرة، لكنها كانت بداية النهاية لدولة عظيمة وحضارة زاهرة[1].

ان السلطان كان أحد العوامل الرئيسية في تسليم غرناطة هو ومن معه من الوزراء. ولعل النقطة الوحيدة التي تحسب للملك أبي عبد الله الصغير أنه رفض التنصير وهو أمر مستغرب منه إذا قسناه بما فعل من تضييع دولة الإسلام في الأندلس على يديه بالتفريط والتقصير والتهاون، والانهزام من الداخل، وعدم سماعه لأصوات الذين نادوا بالمقاومة والاستبسال، بل بالشهادة وعدم الموافقة على التسليم. ولو كان السلطان أبو عبد الله الصغير قد أخذ هذا الموقف الشجاع المتشدد لوجد معه شعباً بطلاً شجاعاً يؤثر الشهادة على التسليم، شعباً انتحب نساؤه ورجاله يوم التسليم، ولم ينقطعوا عن إشعال الثورات العنيفة ضد حكامهم من الإسبان الطغاة المتعصبين.

سطر القشتاليون المعاهدة ودفعوا الرشا الضخمة لإمضائها، ولو كانوا يقدرون على إسقاط المدينة بقوة السلاح لفعلوا. اشترطوا تقديم رهائن من عِلية القوم لعدم اطمئنانهم لقوتهم الذاتية في الاقتحام، بل إن هذا الشرط الذي وضعوه لينطق بالحقيقة التي كانت مستقرة في نفوس القشتاليين عن مدى قوة غرناطة في الصمود، وأنه من الممكن أن يثور الشعب ضد حاكميه ويمنع تسليم المدينة ويقاوم من جديد. وكان الملك هو العامل الأول والأخير في السقوط، إضافة إلى عوامل أخرى كثيرة حققت هذا السقوط السريع[2]. وأبا عبد الله إنما كانت مأساته نتيجة تصرفات حمقاء قام بها أكثر من أمير مثله، وشارك هو في النهاية المحققة، فانفجرت في وجهه[3]. توفي أبو عبد الله الصغير بفاس سنة 940هـ/1533م بعد المأساة بنحو أربعين عاماً، وترك ولدين هما: يوسف وأحمد، ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة[4].

---

1 - عنان، اندلسيات، ص 103-102-95، كتاب العربي، عدد 21، 15 اكتوبر 1988.

2 - رائف، أحمد، وتذكروا في الأندلس الابادة، ص 116.

3 - شاكر، الأندلس في التاريخ، ص 152.

4 - الشطشاط، نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص 68.

ب- الحياة الاجتماعية والعائلية أيام بني الأحمر (المرحلة الأخيرة)

1- طبقات المجتمع:

تكوّن المجتمع أيام بني الأحمر من الأحرار والعبيد. وقد أوجدت الزراعة فئة الملاكين الغنية القابضة على زمام الاقتصاد، وفئة الفلاحين التابعين للأرض التي فيها يعملون، وهناك التجار الذين جمعوا الأموال وابتنوا المنازل الفخمة وارتفعوا عن العامة، وألفوا مع كبار الملاّكين طبقة أعيان المملكة المتقدمة نفوذاً ومكانة، ولكن أبناء هذه الطبقة ظلوا دون الخاصة وابناء الحكم مكانة. ويبدو أن نفقات الدولة استهدفت قبل كل شيء خدمة الفئات النافذة التي مالت إلى البذخ عن طريق القصور والرياش ومجالس اللهو والخمر والموسيقى والغناء واقتناء الجواري والغلمان. بينما شكل الأغنياء ما يمكن أن نسميه الفئة البورجوازية التي حصرت الاقتصاد في يدها وساعدت على ازدهاره، إضافة إلى صغار الملاكين وكبار الموظفين ورجال العلم والأدب[1].

شكلت طبقة العامة القسم الأكبر من السكان، وهي تتألف من الحرفيين الصغار ومن العمال والأجراء والعاطلين عن العمل والعبيد، فقد كانوا يتجمعون في أحياء خاصة (البيازين) [2]، وكانت السلطة تتعامل معهم بحذر لأنهم كانوا سريعي الهياج، ولذلك استعان بهم بعض المغامرين وحتى بعض السلاطين (أبو عبد الله) لتحقيق مآربهم[3].

1- فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص 100.

2- البيازين: أحد أحياء غرناطة.

3- حول المجتمع الأندلسي واقسامه، راجع: Ch. E. Dufoureq, La vie quotidienne dans l'Europe Medievale sous la domination Arabe, pp 35-53.

أمّا الفلاحون، فلم يكن لهم دور نافذ في السياسة، ودورهم الثقافي لم يكن أفضل إذ ظلوا بعيدين عن اهتمامات الأدباء الذين جعلوا همهم إرضاء أبناء القصور. وقد تسرب قسم من الفلاحين إلى المدن خاصة بعد تكاثر الغزوات وعقب مواسم الجفاف حيث اقتصرت مهنتهم على جمع الغلال وتوفير حياة منعمة للطبقة الارستقراطية والبرجوازية.

2 - الأسرة:

بعد هذا العرض السريع للمجتمع الغرناطي بمختلف فئاته، نحاول التعرف إلى بعض الوجوه الأخرى من الحياة الاجتماعية، فنبدأ بالأسرة. وكان المنزل يشكل عالماً مقفلاً يحكمه رب الأسرة الذي يسن القوانين التي توافق طبعه والمستمدة من العادات المتوارثة والمستوحاة من الدين. وفي غيابه يتحرر البيت وأحياناً تدب الفوضى، خصوصاً عندما تحاول النسوة وضع قوانين جديدة متناقضة ومتأثرة بالغيرة والحسد. وإذا عجزت ربة البيت عن فرض هيبتها لا تجد حلاً إلاّ في انتظار عودة الزوج ليستتب النظام. ونستنتج من هذا كله أن سلطة الأب كانت مطلقة على نسائه وأولاده وخدمه، وبيده مقدرات البيت ومصيره[1].

فالمقري يذكر في «نفح الطيب»: أم الحسن بنت أبي جعفر الطنجالي الطبيب المشهور (ت 750هـ/ 1349م) التي لمع اسمها في حقلي الطب والأدب[2]. بعد هذا العرض السريع لأحوال المرأة الغرناطية ندرك دور المرأة داخل الأسرة، وفي تربية الأولاد اقتصر على توفير الغذاء والراحة الجسدية، ذلك أن التوجيه الاخلاقي كان يستمد من الأب وآرائه، فشخصية المرأة كانت بصورة عامة تذوب في شخصية الرجل[3].

ومن خصائص الأسرة الأندلسية كثرة الإنجاب في البيوت الغنية. والاهتمام

1 - فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل دولة بني الأحمر، ص 101.

2 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص 318.

3 - المرجع نفسه، ج4، ص 171.

بتعليق التعاويذ والتمائم الوقائية بعد الفطام، وكان يعقب اختتان الاطفال وليمة يدعى إليها الأقرباء احتفاء بهذه المناسبة ذات الطابع الديني والصحي[1]. فالأسر العريقة حرصت على إبقاء الاصالة والحفاظ على طوابع موروثة من شأنها إعلاء قدر الأسرة. هذا ويلاحظ أن بني الأحمر أعطوا لابنائهم أسماء الآباء والأجداد ممن كانوا في أساس عظمة الأسرة، لهذا كثرت بينهم أسماء محمد واسماعيل ونصر ويوسف. كما تشابهت بينهم الكنى من مثل أبي الحجاج وأبي عبد الله، أما النساء فحملن أسماء عربية مشهورة في الإسلام كفاطمة وعائشة وخديجة، بينما النصرانيات اللواتي دخلن الإسلام فكن يحصلن على أسماء عربية أمثال «علوة» والدة محمد الرابع، و«بثينة» والدة محمد الخامس، و«شمس الدولة» والدة نصر بن محمد، و«ثريا» زوجة أبي الحسن علي بن الأحمر.

ويبدو أن الأسرة الإسلامية في المجتمع الأندلسي كانت على نوعين: الأسرة الغنية التي فيها تلتقي تحت سقف واحد زوجات عدة ومجموعة من الجواري، والأسرة الفقيرة التي يكتفي الرجل فيها بامرأة واحدة لعدم قدرته على إعالة امرأتين أو أكثر[2]. أمّا مراسم الخطبة وعقد المهر وحفلة الزفاف فأمور لم تختلف عما كانت عليه عند المغاربة والمشارقة. وما يمكن ملاحظته أن العرس كان يدوم بوجه الاجمال أسبوعاً كاملاً في بيت العروس تنقل بعده إلى بيتها الجديد، ثم تقام وليمة للرجال وأخرى للنساء[3].

لم تكن الزوجة الجديدة في الأسرة الميسورة تخرج من منزلها الزوجي إلا عند الضرورة، فكانت تقضي الساعات الطويلة في التبرج، ولا تتبدل رتابة العيش داخل المنزل إلا عند استقبال الزائرات. أما أوقات التسلية القليلة خارج البيت فكانت زيارة الأهل والأقرباء وارتياد الحمامات العامة مرة أو مرتين في

---

1 - فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل دولة بني الأحمر، ص 104.

2 - المرجع نفسه، ص 61.

3 - ابن الخطيب، الاحاطة، ص 100.

الشهر، وعند زيارتها المقابر نهار الجمعة[1]. بينما في الأسر الفقيرة ولدى طبقة العمال والحرفيين فكانت المرأة تساعد زوجها في أعماله فتمضي يومها في غزل الصوف والحياكة داخل البيت[2].

2- الحياة الاجتماعية للموريسكوس بعد سقوط غرناطة

1 - وضعيتهم الاجتماعية والدينية:

اتبع النصارى في البداية سياسة التبشير مع الموريسكيين لتنصيرهم، لكن بعض الحكام لم ينتظر نتيجة التبشير الذي كان يطبق بل استعملوا العنف والإرهاب للقضاء على الموريسكيين. ونذكر في هذا السياق ما قام به الكاردينال ثيسنيروس الذي ارتكب أفظع الجرائم. ففي ناحية جبال البرتات قام أحد معاوني هذا القس المجرم وهو الكونت دي ليريا بتحطيم مسجد على من بداخله، وقام بذبح الرجال وبيع النساء والأطفال كرقيق[3].

بعد إفراغ الأراضي من أصحابها الموريسكيين عملت الحكومة على استقدام نصارى قدماء من نواحي إسبانيا لتعمير هذه الأراضي، والتي ومنحت لهم بواسطة مراسيم ملكية صادرة عن الملوك الكاثوليك وأصبحوا كموظفين من قبل الإدارة القشتالية. وصار هؤلاء المهاجرون الجدد كجزء من سلالات آرية وكاثوليكية وسط بحر من أناس ينتمون إلى أصل عربي أو بربري. وقد أتى هؤلاء الوافدون بعادات جديدة جعلتهم يحسبون أنفسهم أعلى وأسمى من غيرهم، ويتباهون بعاداتهم وديانتهم. فقد كانوا يتعاطون الفن وركوب الخيل إلى غير ذلك. لكنهم لم يمتهنوا الأعمال المتعبة مثل الزراعة. مما أدى إلى تدنٍ ملحوظ في الإنتاج، فعم القحط والكساد وخاب بذلك ظن المسؤولين السياسيين باتخاذهم

---

1 - فرحات، غرناطة في ظل دولة بني الأحمر، ص 60.

2 - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 447.

3 - قشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ص 5.

قرار طرد اليد العاملة الموريسكية وتعويضها باليد العاجزة من نصارى قشتالة وليون وغيرها من المقاطعات الشمالية التي لم يكن أهلها يتعاطون مهنة الفلاحة ولا يقدرون على تحمل التعب الناتج عنها[4].

رغم تنصر بعض الموريسكيين، إلا أنهم كانوا يعاملون معاملة عنصرية، فكان النصراني القديم يحسب نفسه أسمى وأشرف من النصراني الجديد، حتى أن التمييز طُبق في مجال الوثائق الرسمية والمعاملات القضائية، وكذلك الأمور الدينية التي تديرها الكنيسة[5]. ووصلت الضغينة بين النصارى القدماء والجدد إلى درجة أن تاجر الحبوب البسيط مثلاً يحتج وبشدة إذا حصل وتشابه اسمه مع موريسكي. أما بالنسبة للطبقة الأرستقراطية، فالفرق أصبح شاسعاً بينها وبين الموريسكيين[6].

فنظراً لما سلف ذكره، أصبح الموريسكوس منبوذين في أرضهم رغم كونهم كانوا قد غدوا مندمجين في المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه حيث أن التفريق بين الموريسكي والنصراني كان من الصعوبة بمكان لغة وهنداما ودينا. فالنصراني القديم يحسب نفسه هو المسيطر والمحرر للأرض. كان النصارى القدماء يعملون كل ما في وسعهم لاكتشاف الموريسكي أو النصراني الجديد حتى لا يقع إلتباس ويعامل هذا الأخير معاملة عادية. فكانوا يظنون أن البعد عن الموريسكي واجب للمحافظة على نقاء دمهم. وكمثال على ذلك: في عام 971هـ/1564م أوصى أحد نصارى المرية وكان من أكبر ملاكي الأراضي بالمدينة أن لا يتزوج من سلالته أحد من نصرانية جديدة أو موريسكية أو يهودية. وذلك بغاية المحافظة على عراقة أصله.

لم تؤد هذه العقلية إلى النتيجة المتوخاة، بل عملت على التفرقة وابتعاد النصارى الجدد عن القدماء نتيجة المعاملة السيئة. فكان هذا عكس ما كان يريده

4 - المقري، نفح الطيب، ج6، ص 8.

5 - عنان، نهاية الأندلس، ص 314-224.

6 - بنشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 145.

الكاردينال طلبيرا الذي كان يعمل على توحيد المجتمع وفق ديانته بعكس ما فعله الكاردينال ثيسنيروس. والنتيجة كانت تثبث الموريسكيين بالعوائد الإسلامية مبتعدين بذلك كل البعد عن تقليد النصارى القدماء. كما أن ظاهرة جديدة طغت على السطح كما يروي ذلك المؤرخ «مارمول». فقد أخذت مجموعة من الموريسكيين المحظوظين والذين كانوا يمتلكون أراضي زراعية في توحيد واجتذاب من كان يعمل معهم من مزارعين أو رقيق وهم أحرار من الموريسكيين فيكوّنون بذلك اتحاداً يواجهون به أعداءهم، وهو عبارة عن عشيرة لها رئيسها كما كان عند العرب في الجزيرة العربية[1].

وقد ورد عند بعض المؤرخين الإسبان أن هذه المجموعات تنحدر من العهد الإسلامي وتبدأ أغلب ألقابهم بكلمة «ابن» كابن «طابلا» مثلاً أو ابن «كوازيل» أو ابن «طورافي» إلخ... [2] وكذلك وجدت في مدينة المرية مجموعة تدعى واطا «wata». وهي عشيرة موريسكية من أصل غرناطي فضلت التنصر على أن تغامر بالذهاب إلى شمال إفريقيا كما فعل أبو عبد الله وبعض العشائر الأخرى. وكان رئيس المجموعة السالفة الذكر ويدعى «دون ألونسو أبيز»، والذي حظي بتقدير من الملك فعينه حاكماً على المرية. حتى فكر الموريسكيون في ترشيحه ملكاً عليهم أثناء ثورتهم الشهيرة بجبال البشرات بضواحي غرناطة عام 976هـ/ 1568م.

غير أن أثرياء الموريسكيين فضلوا الابتعاد عن كل ما له صلة بالسياسة محتفظين بقصورهم وعقاراتهم. مع المحافظة كذلك على عوائدهم الإسلامية. ومن ضمن ما يحكى عنهم امتلاكهم للعبيد. فكانوا يحررون البعض منهم ويعطونهم المال والعقار؛ بل منهم من كان يرتبط بهم بالزواج. ومن بين هؤلاء بعض المرتزقة رحلوا من إفريقيا إلى إسبانيا لمساعدة الموريسكيين في حربهم ضد الملوك الكاثوليك. فاستقروا هناك واندمجوا مع الموريسكيين وقد أطلق

1 - بنتشاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 302.

2 - عنان، محمد عبد الله، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام، القاهرة، 1967م، ط2، ص 35.

النصارى عليهم لقب «الغازي». كانت تصرفات الموريسكيات فيما يتعلق بالأمور الدينية في غاية السرية، ورغم ذلك يفتضح أمرهن في بعض الأحيان، إما اضطراراً أو بمحض الصدفة[1].

كان الموريسكيون يتعبدون خفية داخل بيوتهم أو في مغاور داخل الجبال ويعلمون أبناءهم سراً الدين الإسلامي. ولو أن بعض الفرائض كان يصعب تطبيقها كإيتاء الزكاة مثلاً خوفاً من افتضاح أمرهم. إلاّ أن أفراد المجتمع القروي الموريسكي كانوا يزاولون شعائرهم بأقل خشية من إخوانهم في الحواضر، فيصومون رمضان ويمتنعون عن أكل لحم الخنزير. أما الموريسكيون الذين كانوا سجناء، فكانوا يؤدون واجباتهم الدينية بدون خوف، ويفضلون الموت استشهاداً إذا اضطروا لذلك[2].

ويتبين أن تعاليم الإسلام وممارسته أصبحت تقاليد يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلاً بعد جيل، في حلقات مغلقة، لها طابع المجالس السرية. يشير إلى ذلك «غارسيا ارينال»[3] ويذكر الدور الذي لعبته المرأة المسلمة بقيامها بدور الملقن للأطفال عندما كانوا يعودون لأسرهم من الكنائس، ويبتدىء تعليمهم أصول العقيدة الإسلامية من الثالثة عشرة حتى الخامسة عشرة، خشية من زلة اللسان، أو البوح بأمرهم لدى النصارى الذين لقنوهم النصرانية، ووضعوهم عيوناً على آبائهم. وعلى ذلك ترتبت مآسٍ مروعة، للأسر التي يبلغ عنها أبناؤها أنفسهم. وبعضهم ساعده الحظ على إقناع أولاده بتعاليم الإسلام، بعد أن ابتعدوا عنه فترة زمنية تدربوا وتعلموا خلالها في أحضان الكنيسة تعاليم النصرانية[4]. وكان رجال الكنيسة بالمرصاد لكل ما له صلة بالشعائر الإسلامية يتضح هذا من ممارسات الكنيسة.

---

1 - قشتيليو، محمد، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ص 8.

2 - عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص 258-248.

3 - CARCIA ARENAL, Mercedes, Los moriscos la Inquisicion, procesos del Tribunal de Cuenca. Madrid 1978, 25.

4 - حتاملة، التنصير القصري، ص 112.

لقد منعت الكنيسة استعمال «الحنة» لظنهم أن هذا الأمر هو من طقوس الموريسكيين الدينية، مع العلم أنها كانت عادة تستعمل في بعض الأقطار الإسلامية كالمغرب وتونس وغيرها سواء في الأعياد أو المناسبات العائلية أو حتى من الناحية الصحية. فالنصارى طبقوا المنع لكونها عادة تخص المسلمين. وكان هؤلاء كثيراً ما يستعملونها ويتباهون بها خاصة في الاحتفالات الخاصة بالأولياء في الأضرحة وهو ما يسمى في المغرب «بالعمارة». كما أن رجال الدين المسيحي كانوا يتضايقون من استعمال الموريسكيين للحمامات. رغم ذلك استمر استعمالها بالمرية مثلاً إلى غاية القرن السادس عشر[1].

استعمل الموريسكيون اسمين، إسلامي ومسيحي. فالأول خاص بهم يتداولونه فيما بينهم بينما الثاني يستعملونه في الوثائق الرسمية والمعاملات الإدارية. وكانوا عادة يدلون بالاسمين معاً لدى الدوائر الرسمية. وذلك ربما درءاً لكل التباس. وفي أغلب الأحيان استمر تداول الاسم الإسلامي فقط وخاصة لدى الطبقة الفقيرة والمتوسطة. كما أن كثيراً من الموريسكيين اتخذوا ألقاب أسيادهم أو الشخصيات التي كانوا في حماها. وغالباً ما كانت هذه الأسماء تنطق محرفة بعض الشيء وذلك حسب لهجتهم ولغتهم الأصيلة. وهذا ما وقع بالمغرب مثلاً حيث ينطق بعض المغاربة أسماء بعض المستعمرين الإسبان محرفة، فإسطيبان ينطق شطيبا وأنطونيو طونيو إلى غير ذلك.

وكل ما ذكر موجود في وثائق رسمية تدل على التعامل في البيع والشراء وغير ذلك بالإسمين الإسلامي والمسيحي[2].

---

1 - Dufourq, la vie Quotidienne dans l'europe, p 59.

2 - الحجي، عبد الرحمن، التاريخ الأندلسي، ص 568-573.

3- تبدل العادات والتقاليد

إن الظروف المستجدة فرضت تبدلاً في العادات والتقاليد تماشياً مع الواقع الجديد والقوانين التي فرضت قسراً ومنها:

1 - الزواج:

تعددت مواضيع الاحتفال بالأعياد والمواسم إلى حفلات الزواج والميلاد والختان وغيرها. ولم تمدنا المصادر إلا بإشارات بسيطة، وكل ما ورد مجرد جمل أو سطور معدودة. ففي حفلات الزواج مثلاً: لم تشر المصادر التي رجعنا إليها – بالرغم من كثرتها – إلاّ إلى زواج المنصور بن أبي عامر من أسماء بنت غالب الناصري صاحب مدينة سالم في عهد المستنصر حيث يقول المقري: «وكان أعظم عرس بالأندلس»[1]. ومن هذه العبارة يتضح لنا مبلغ الترف والبذخ الذي كان في هذا العرس بالرغم من عدم ورود تفاصيل عنه. أما الموريسكيون فكان من عادتهم أن يقيموا حفل الزفاف بعد جمع المحصول الزراعي. وكانت هذه عادة أهل البادية التي كان معظم الموريسكيون متأثرين بها. الشيء الذي كان يسمح لهم باتباع العادات الإسلامية لأنهم بعيدون عن كل رقيب.

كانت طريقتهم في عقد الزواج هي الذهاب إلى مكتب أحد الكتبة العامين، فيذهب كل من العروس والعريس مع أوليائهما والشهود المتفق عليهم. يقوم الكاتب العمومي بتدوين ما أعطي كصداق في وثيقة رسمية مخصصة لذلك بالتفصيل. حيث ينص على معدن الحلي مثلاً ذهب أو فضة وأصناف الثياب من حيث الشكل واللون والنوع (حرير، صوف، ....) [2]. ولكن عندما فرض عليهم الزواج المسيحي، فقد رضخوا للأمر الواقع، ولكن بعد عودتهم إلى بيوتهم،

1 - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 187.

2 - قشتيليو، محمد، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا، ص 11.

ينظمون زواجاً إسلامياً يتطابق مع أحوال الشرع[1]. واعتمد الموريسكيون بمملكة غرناطة الزواج على الشريعة الإسلامية كأداء الصداق، وجرت العادة بأن يجهز الأباء بناتهم بأثاث البيت. كما كانوا يقدمون إعانة لأزواج بناتهم لتخفيف العبء عنهم، وتقدم المساعدات التي يأتي بها أبو العروس أمام الحاضرين[2].

2 - المقابر:

كانت البساطة مظهراً تعتمده العائلات في الجنازات، ولم تكن المراسيم المتبعة مختلفة عما كانت عليه في سائر أنحاء العالم الإسلامي. ومن المعروف أن البياض كان لون الحداد عند الأمويين، والأزرق لباس الحداد عند الموحدين، أما بنو الأحمر، فقد اختاروا اللون الأسود في لباس الحداد[3].

وقد جعلت المقابر خارج الأسوار في المدن الأندلسية. ففي «رندة» اليوم حيّ يعرف بإسم باب المقابر. وكان المدفن عند العامة حفرة مستطيلة تغطى بالحجارة وتثبت فوقه لوحة تحمل إسم الفقيد وكنيته ولقبه وتاريخ وفاته. أما الأمراء والأغنياء فكانوا يشيدون فوق مدافنهم القباب ويحيطونها بسياج من حديد، ولم تكن تلك المدافن على أية حال غنية بالزخارف والرسوم كما كانت الحال في مقابر النصارى. ولكن بعد سقوط غرناطة منعوا من دفن موتاهم في مقابر المسلمين، وأجبروا على دفنهم حسب التقاليد المسيحية[4].

وقد أصدر مانريك أوامر منها:

إجبار المسلمين المتنصرين على عدم غسل الموتى وتكفينهم في ثياب جديدة، أو دفنهم في أرض بكر، أو وضعهم في قبور من الحجر مضطجعين على

1 - الفقي، عصام الدين، تاريخ المغرب والأندلس، ص 319.
2 - قشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا، ص 10.
3 - فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص 105.
4 - Revista Al Andalus, XXll, 1975, pp 130-189.

جنوبهم أو سند رؤوسهم إلى حجارة، ومنع تغطية قبورهم بالغصون الخضراء، وإلاّ كانوا هدفاً لمحاكم التفتيش.

3 - الطعام والشراب:

اعتاد العرب الأندلسيون تناول أطعمة تتناسب وأصول الشريعة لا يدخل فيها ما هو محرم، والابتعاد عن أكل لحم الخنزير، هذا وقد اعتبر رفض أكله جريمة ومحاكم التفتيش تعتبره غير متنصر. ويمكن أن يعاقبوا إذا هم زاولوا بعض العادات الإسلامية، مثل أكل اللحم يوم الجمعة. أو التوجه شطر الشرق قائلاً: «بسم الله»، أو ربط الحيوان قبل ذبحه. أو رفض أكل لحم ما لم يذبح، أو ما ذبحته امرأة، أو صيام شهر رمضان والتصدق خلاله، وعدم الأكل والشرب إلاّ عند الغروب، أو التسحر ليلاً[1].

كان الموريسكيون يمتنعون عن أكل لحم الخنزير حيث لم يشر ولو مرة واحدة في الوثائق الرسمية الخاصة بالفلاحة والماشية إلى الخنزير. ولا شك كانوا يقومون بالذبح على الطريقة الإسلامية، فكان هناك رجل خاص يقوم بعملية الذبح حيث يضع الذبيحة اتجاه القبلة ويتركها حرة بعد الذبح حتى يستنزف دمها. كما كان الموريسكيون حريصين على أن يكون لهم في المسلخ مكان خاص بهم ودكان خاص به جزار منهم[2].

أما فيما يختص الشراب فقد كان هناك من يشرب الخمر، حيث انتشرت زراعة الكروم في الأندلس قبل الفتح، وبعده أيضاً، وكان يزرعها كثير من الاسبان غير المسلمين لصناعة الخمور، لدرجة أن الخليفة المستنصر عزم على قطع أشجارها، حتى يقضي على صناعة الخمر، وشاور في ذلك فقيل له: إنهم يعملونها من التين وغيره من الفاكهة فتوقف عن ذلك، ولكنه أمر بإراقة الموجود

---

1 - مظهر، علي، محاكم التفتيش،في إسبانيا والبرتغال، المكتبة العلمية، القاهرة 1947م، ط2، ص 28.

2 - قشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة باسبانيا، ص 10.

من الخمور وتشدد في ذلك[1]. فالدين يحرم شرب الخمر، ويروي ابن عباس، عن رسول الله ﷺ يقول أتاني جبريل فقال: «يا محمد إن الله لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وساقيها، ومسقيها»[2]. فأضحى الامتناع عن شرب الخمر جريمة وشاهداً على انه مسلم وما زال على دينه.

ويذكر صاحب نبذة العصر: «ثم بعد ذلك دعاهم (أي ملك قشتالة) إلى التنصر، وأكرههم عليه وذلك في سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينهم كرهاً، وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول (لا إله إلا الله).....، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويأكلون الخنزير، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم......» [3].

4 ـ الملابس والازيـاء:

هذا وقد قد أشار ابن سعيد إلى زي أهل الأندلس في عصره، ويبدو أنه لا يختلف كثيراً عما كان عليه الحال في العصر الأموي وما يتبعه، فقال: «وأما زي أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لا سيما في شرق الأندلس، وأما أهل غربها فلا تكاد ترى فيهم قاضياً أو فقيهاً مشاراً إليه إلاّ وهو بعمامة، وأما الأجناد والعامة فقليل من تراه بعمامة في الشرق أو الغرب، وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً أو خضراً، وأما الصفر فمخصوصة باليهود....» [4].

وكذلك كانت ملابسهم تتميز بتفصيلات وهيئات وأشكال خاصة بهم لا تكاد تعرف في المشرق وربما كان من أهم مظاهر تلك المغايرة اتخاذهم البياض بدلاً

---

1 ـ الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966م، ص 13، دويدار، حسين يوسف، المجتمع الاندلسي في العصر الأموي، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، 1994م، ط1، ص 291.

2 ـ حديث ابن عباس، صحيح الاسناد، صححه ابن حيان.

3 ـ مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص 56-55.

4 ـ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 104-103.

من السواد في الحداد. ويشير إلى تلك العادة الشاعر أبو الحسن الحصري:

إذا كانَ البيـاضُ لبـاسَ حـزنـي   بأندلسٍ فذاكَ منَ الصـوابِ
ألم تـرني لبستُ بيـاضَ شيبـي   لأنـي قد حزنتُ علـى شبابي[5]

وقد كانت الملابس ذات الألوان الزاهية محبوبة في الأندلس، وأحبها الكثيرون حتى أولئك الذين كانت تقتضي مناصبهم شيئاً من الحشمة والوقار والاقتصاد في الزينة واللباس.

ويبدو عدم تقيد جميع أفراد كل طائفة أو طبقة بلباس أو زي معين، ومدى حرية كل شخص في اختيار ما يناسبه من الملابس. بيد أن اللباس العام الذي كان يلبسه الناس هو الطيلسان[6] الموصول به غطاء الرأس – مثل لباس المغاربة الآن – أو الطيلسان مع العمامة بالنسبة للقضاة والفقهاء في غرب الأندلس[7]. وكان كثير من العلماء يرخون ذؤبات عمائمهم إذا ما تعمموا، ولم يكونوا يجعلونها بين الأكتاف، وإنما يسدلونها تحت اذنهم اليسرى[8]. كما عرف البرنس[9] وخاصة بين البربر البرانس التي تعودوا عليها في بلادهم، ويبدو أنهم نقلوه إلى الأندلس وانتشر بها[10].

كذلك أطلق الأندلسيون على الثوب اسم الحلة والتي تتكون من قطعتين الرداء والإزار، وكانت تصنع من الكتان أو القطن أو الديباج[11] أو من الحرير الموشى بخيوط ذهبية. ووجدت أنواع من الملابس الفاخرة مثل الوشي اليوسفي والوشي الهشامي يلبسها الخلفاء والأمراء وبعض القادة والعلماء. وقد كان لتقدم صناعة النسيج أثر كبير في اهتمام الأندلسيين بالزي واللباس، حيث كانت هناك

---

5 - هيكل ،أحمد، الأدب الأندلسي، ص 45-46.
6 - الطيلسان: ثوب يغطى به الرأس والبدن ويلبس فوق الثياب.
7 - دويدار، محمد حسين، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، ص 295.
8 - أمين، أحمد، ظهر الإسلام، ج3، ص 8، الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 84.
9 - البرنس: رداء ذو كمين يتصل به غطاء الرأس.
10 - عبد العزيز، سالم، تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس، ص 19.
11 - الديباج: نسيج من الحرير الأصيل، ملوّن ألوناً مختلفة.

عدة مدن تشتهر بصناعة المنسوجات المتنوعة، وخاصة مدينة المرية التي كانت تعتبر مركز صناعة المنسوجات الفاخرة من الديباج والسقلاطون[1] والأصبهاني[2] والجرجاني[3] وغيرها. هذا ويلاحظ شغف كثير من أمراء وملوك أوروبا والمشرق بهذه المنسوجات، حتى أن بعضهم طلب أن يكفن بثياب أندلسية من صنع هذه المدينة مثل الأمير فيليب وزوجته، ودون رودريجو خيمنث دي دارا[4].

أما ملابس النساء فكان طابعها الأناقة والترف وخاصة نساء الطبقة الراقية. حيث كن يتفنن في لبس المصبغات والمذهبات والديباجيات من الثياب، ويبالغن في زينتهن من التحلي بالذهب والجوهر بالإضافة إلى التطيب[5].

وقد أجمع المؤرخون على أن النساء الموريسكيات حافظن على الهندام الإسلامي حتى سنة 974هـ/1567م[6]. لذلك أصدرت الملكة «خوانا» في سنة 1511م مرسوماً يمنع الخياطين من مزاولة الخياطة على الطريقة الموريسكية. ففي سنة 918هـ/ 1513م منعت المرأة الموريسكية من الخروج متحجبة. ورغم كل هذا حاول الموريسكيون بكل الوسائل إبقاء زيهم الإسلامي التقليدي مزخرفاً بألوان زاهية على عكس لباس النصارى الذي كان قاتم اللون.

هذا ويلاحظ حرص السلطات الحاكمة على إزالة كل أثر للإسلام مرغمين المسلمين على ارتداء ملابس النصارى وقبعاتهم وسراويلهم ووضع شارة زرقاء على قبعاتهم لتبدأ طريقة القشتاليين في اللباس تغزوهم تدريجياً وخاصة الرجال[7].

---

1 - السقلاطون: حرير موشح بالذهب.

2 - الأصبهاني: نسبة إلى مدينة أصبهان (إيران).

3 - الجرجاني: نسبة إلى مدينة جرجان (إيران)، اشتهرت بصناعة الأقمشة الحريرية والصوفية والقطنية.

4 - عبد العزيز، سالم، تاريخ مدينة المرية، ص 160.

5 - ابن عذارى، البيان المغرب، ج2، ص 81 و 92، ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية، القاهرة، 1963، ط1، ج1، ص 45-46.

6 - الفقي، عصام الدين، تاريخ المغرب والأندلس، ص 319.

7 - قشتيليو، حياة المورسكوس الأخيرة بإسبانيا، ص 12.

ويقال أن عادة ارتداء العقال ظهرت بعد سقوط الأندلس، وضياعها من أيدي المسلمين حيث وضعوا عصبات سوداء على رؤوسهم حداداً على ضياع الأندلس وعاهدوا أنفسهم أن لا يخلعوا هذه العصابات حتى تتم إعادة الأندلس. وانتقلت هذه العادة من الآباء إلى الأبناء حيث تطورت العصابة إلى «العقال» بشكله الحالي[1].

وقد برز أحد النبلاء يدعى فرانشيسكو نونْيَث مولي (Fransisco Nunez Muley) أعلن أن الخصائص الثقافية للمجتمع الغرناطي التي صدرت ضدها التشريعات الجديدة ليست في حد ذاتها تخريبية..... وبخصوص الملابس أشار «مولي» إلى أن اسبانيا، تفتخر بوجود أنواع كثيرة من الأزياء الإقليمية، لكن الذي منعته التعليمات الجديدة هو الزي الإقليمي في غرناطة وحدها. وأضاف قائلاً: «في جميع الأحوال، الجبَّةُ لا تصنع الراهب»[2].

فالعادات والتقاليد تنتقل من حقبة تاريخية إلى حقبة أخرى، فمن مرحلة الفتح، إلى العصر الأموي وصولاً إلى دولة بني الأحمر خضعت لمتغيرات كثيرة ولكن الثوابت بقيت واحدة.

ولكن الانقلاب الجذري حصل في المراحل الأخيرة من حياة الموريسكيين، نتيجة التنصير والعنف ومحاكم التفتيش، وصولاً إلى الطرد خارج إسبانيا.

ج- الحياة الاقتصادية في مملكة غرناطة

(في المرحلة الأخيرة)

1- غلاء المعيشة:

إزدحمت مملكة غرناطة بالسكان نتيجة للهجرات المتوالية إليها من المدن الأندلسية التي كانت تسقط بيد الإسبان، وطبيعة أرضها الجبلية الوعرة التي أثرت

1 - مظهر، علي، محاكم التفتيش، ص 31.

2 - الجيوسي، سلمى الخضراء، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ص 344.

في غلاء المعيشة بها. فإبن الخطيب يحدثنا عن غلاء الأسعار في غرناطة بقوله: «وأسعارها يشعر معيارها بالترهات»[1].

2 - الزراعة في مملكة غرناطة

يمتدح المؤرخون العرب والاسبان خصوبة التربة في بعض أجزاء مملكة غرناطة بسبب اعتدال المناخ، ووفرة مياه الأنهار، مثل نهر شنيل[2] وحدرة والمنصورة. وكذلك غناها بالأمطار، مما أدى إلى إنتشار القرى والحدائق الغناء[3]. وأسهم نشاط المزارعين وذكاؤهم وخبرتهم في طرق الري والصرف، متبعين في ذلك نظماً من وحي روماني فيما يتعلق بالأسلوب الفني[4].

ويتبين توصّل الغرناطيين إلى معرفة أحوال الطقس، لذلك وضعت الكثير من المؤلفات والتقاويم عن الزراعة تناولت الحديث عن «الغراس والعلاج وحفظ النبات من حوائجه وعوائقه»[5]. نذكر منها كتاب ابن ليون التجيبي (ت: 750هـ/1349م) [6] "الملاحة وانهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة"[7].

هذا ويلاحظ ابن غالب اهتمام أهل الأندلس منذ وقت طويل بالزراعة فيقول أنهم «يونانيون في استنباطهم للمياه ومعايناتهم لضروب الغراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه، وتدبيرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر

---

1 - الطوخي، أحمد، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، تقديم أحمد مختار العبادي، الناشر مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1997م، ط1، ص 258.

2 - نهر شنيل: أو نهر غرناطة، يقع في جنوب شرق اسبانيا في منطقة الأندلس، يبلغ طوله 300 كلم.

3 - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 14-13-12.

Levi Della Vida, G: IL Regno Di granada net 1465-66 nel Micordi di un viaggiatore Egiziano (AL Andalus vol, I, 1933 p 314

4 - Lafuente Alcantara: Historia de Granada tomos 3 (Granada 1896), p: 102

5 - ابن خلدون، المقدمة، ص 494.

6 - ابن ليون التجيبي: ولد ابن ليون التجيبي في المرية ببلاد الأندلس عام 1282م وتوفي عام 1349م، ولم يكن مهندساً زراعياً فحسب، بل كان أيضاً فيلسوفاً وقاضياً وعالم رياضيات وشاعراً.....

7 - الزركلي، الاعلام، ج3، ص 132.

وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة»[1]. وكانت غرناطة تشرف من الجنوب الغربي على فحص[2] أو مرج عظيم الخصب، وافر النماء، يمتد غرباً حتى مدينة لوشة Loja، ويطلق على هذا الفحص في الاسبانية La Vega ولعلها مشتقة من كلمة البقاع أو Afloz وهي مشتقة من كلمة (فحص) وهي كلمة عربية الأصل. وشبهه المؤرخون (الفيغا Vega) بغوطة دمشق، حيث تخترقه الجداول، ويغص بالقرى والجنات[3]. وكان أهل غرناطة يهرعون إليه في ليالي الربيع والصيف[4]. وقد وصف ابن الخطيب هذا الفحص فقال: «إنه بسيط جليل"[5]. وكان من الشائع في غرناطة مشاركة صاحب الأرض للمزارع في العملية الزراعية. وتزخر فتاوى الفقهاء، ورجال الافتاء في العصر النصري بالعديد من تلك الفتاوى التي تختص بهذا الأمر. فنجد أن الفقيه الحفار أفتى بأن المالك يمد الأرض في حالة زراعتها بالخضار بنصف البذور، ويأتي الشريك بالنصف الآخر ثم يقسم الانتاج بين المتعاقدين[6].

المنتجات الزراعية في مملكة غرناطة

1 - الحبوب الغذائية:

كان القمح يزرع بكميات كبيرة في الفحص والأقاليم الواقعة إلى الشمال الشرقي من غرناطة، وإلى الشمال الغربي في قنب. حيث يعمد الغرناطيون إلى تخزين القمح في صوامع تحت الأرض[7]. أما الشعير فكان يزرع في سهل

1 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص 147.
2 - الفحص: أرض زراعية خصبة.
3 - مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مدريد، 1967، ص 286.
4 - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 13.
5 - ابن الخطيب، الاحاطة، ص 105.
6 - الطوخي، أحمد، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، ص 295.
7 - ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 103.

Fuengirola وبيرة. والفحص والبراجيلات وقنب وقوطمة[1]. أما الذرة الذي كان يمثل غذاء هاما للطبقات الشعبية فكان يزرع في مناطق متعددة من بينها الفحص[2]. وفي بزليانة[3] كانت تصنع شباك الصيد التي تصطاد بها الأسماك الكثيرة ويحمل منها إلى البلاد المجاورة. إضافة إلى زراعة الأشجار المثمرة، والنباتات العطرية، وتربية الحيوانات[4].

الصناعة في مملكة غرناطة

إستطاعت غرناطة أن تحتفظ بالكثير من الصناعات الأندلسية القديمة وساعدها على ذلك توافر المواد الأولية اللازمة للصناعات. فيحدثنا الجغرافيون عن وجود الرصاص في برجة، والحديد الخام في وادي آش[5]. والذهب واللازورد، والفضة في لوشة[6]. والياقوت الأحمر في مالقة، والمرجان بساحل البيرة من أعمال المرية، والتوتيا الطبية بساحل البيرة، وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس[7] والملح بلوشة[8]. كذلك كان يوجد الرخام قرب المرية[9]، وكذلك حصى يحمل إلى البلاد كالدر في رونقه، وله ألوان عجيبة، ومن عاداتهم أن يضعوه في (كيزان الماء[10]) [11]. كما وجدت الأعشاب الطبية التي تدخل في

---

1 - ابن الخطيب، معيار الاختبار، ص 95-84-75.

2 - ابن الخطيب، الاحاطة، ج1، ص 143، الطوخي، أحمد، مظاهر الحضارة، ص 295.

3 - بزليانة: قرية على ساحل البحر قريبة من مالقة.

4 - الإدريسي، صفة المغرب، تحقيق دوزي ودي خويه، ليون، 1894م، ص 50.

5 - ابن الخطيب، معيار الاختبار، ص 88.

6 - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 142.

7 - المقري، المصدر نفسه، ج1، ص 138...

8 - ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 94.

9 - المقري، المصدر السابق، ج1، ص 153.

10 - كيزان الماء: جمع كوز: إناء بعُروة من فخار أو غيره، له أذن يشرب فيه أو يُصب منه.

11 - المقري، المصدر السابق، ج1، ص 187.

صناعة الدواء والعقاقير الطبية[1]، مثل الكحل في بسطة[2]، والمواد الأفاوية[3] الهندية في جبل شلير[4]. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك أشجار التوت ودود القز – التي كانت تقوم عليهما صناعة الحرير[5] والقطن والكتان[6]. وساعدت كثرة غابات البلوط والصنوبر على صناعة الأدوات المنزلية والسفن. كما كما يعتبر توفر الزيتون عاملاً مهماً في تقدم صناعة إستخراج الزيت[7]. وقد امتدح ابن خلدون الصناعة في غرناطة وذكر أنها تجمعت فيها رواسب الحضارة السابقة وبقيت فيها آثار من هذه الحضارات فذكر: «إن رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها»[8].

أ ـ ومن أهم الصناعات التي إزدهرت في مملكة غرناطة:

1 ـ صناعة النسيج:

ورثت غرناطة عن الأندلس صناعة النسيج، والتي ظلت مزدهرة حتى القرن الخامس عشر الميلادي. وانتقلت هذه الصناعات منها إلى الممالك الأسبانية المسيحية وإلى الدولة البيزنطية، ومن الأمثلة على ذلك الأقمشة والوسائد التي عثر عليها في تابوت دونيا ليونور Dona Leonor بنت ألفونسو الثامن[9] في أراغون.

---

1 ـ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 13، العمري، مسالك الإبصار، ص 35.

2 ـ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، القاهرة، 1980م، ط2، ص 44.

3 ـ المواد الأفاوية: توابل، أو طيوب، أو مواد عطرية.

4 ـ جبل شلير Sierra-Nevada: أهم سلسلة جبلية بجنوب إسبانيا، يبلغ طولها حوالي 96 كلم، بها أعلى قمة في اسبانيا والتي يصل ارتفاعها إلى 3,478,6 م.

5 ـ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 13.

6 ـ الحميري، المصدر السابق، ص 192.

7 ـ الصالح، صبحي، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ص 406.

8 ـ ابن خلدون، المقدمة، ص 402.

9 ـ الفونسو الثامن (1155-1214م): ملك كاستيا من 1158م، عانى من هزيمة كبيرة مع الجيش في معركة الارك في مواجهة السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي. قاد التحالف المسيحيي من الأمراء الصليبيين والأجانب الذين هزموا الجيش الموحدي في معركة العقاب.

كذلك فإنه عندما قام ماركيز قاس بالإستيلاء على الحامة في 887هـ/1482م عثر القشتاليون بها على ثروات غير محدودة وملابس من حرير رقيق متقن الصنع[1].

كذلك ازدهرت:

2 ـ صناعة البسط والسجاد.

3 ـ الصناعات الجلدية.

4 ـ صناعة الأواني الفخارية، والخزف والزجاج.

5 ـ صناعة العاج والتطعيم. (حرفة فنية)

6 ـ الصناعات الغذائية.

7 ـ الصناعات المعدنية.

8 ـ صناعة الأسلحة[2].

التجارة في مملكة غرناطة

أ ـ التجارة الداخلية:

ازدهرت حركة التجارة الداخلية بين مدن مملكة غرناطة وقراها ازدهاراً كبيراً تبعاً لشهرة كل واحدة منها في سلعة من السلع أو صناعة من الصناعات تتفوق فيها عن غيرها. مثال ذلك مالقة التي كانت تبعث بالتين واللوز إلى غرب الأندلس[3]. وقرية شاطبة[4] التي كانت تصدر انتاجها من الزبيب إلى كل البلاد الأندلسية[5]. فإبن الربيب القيرواني يمتدح الحركة التجارية في الأندلس، بقوله: «إن بارت تجارة فإليها تجلب، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق»[6]. ويبدو في

1 ـ الطوخي، أحمد، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، ص 304.

2 ـ الطوخي، المرجع نفسه، ص 384.

3 ـ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 219.

4 ـ شاطبة: مدينة إسبانية تقع في مقاطعة بلنسية، وفي حوض نهر البيضاء شرقي اسبانيا.

5 ـ الادريسي، المغرب وارض السودان ومصر والاندلس، ص 199.

6 ـ المقري، نفح الطيب، ج4، ص 155.

غرناطة وفي غيرها من مدن المملكة إنتشار الشوارع التجارية المتخصصة في نوع ما من البضائع، كما يظهر لنا من طبوغرافية غرناطة.

- قيسارية غرناطة:

كانت القيسارية[1] في غرناطة هي المركز الرئيسي للتجارة وقد ظلت حتى عام 1259هـ/1843م محتفظة تقريباً بدورها، إلى أن دُمر البناء تماماً. ويذكر مارمول كارباخال Màrmol Carvajal: «أنها كانت غنية جداً مثل قيسارية فاس، على الرغم من أنها لم تكن كبيرة مثلها، حيث كانت تجري كل الأمور التجارية للمدينة».

ب - التجارة الخارجية

ازدهرت حركة التجارة بين مملكة غرناطة والدول المعاصرة لها سواء أكانت إسلامية أو مسيحية ازدهاراً كبيراً. وساعد على ذلك وفرة بعض السلع والمنتجات في المملكة، التي كان يسمح بتصديرها إلى الخارج، وحاجة المملكة إلى بعض السلع المستوردة، ووفرة الموانىء الطبيعية على طول الساحل الغرناطي[2]. فساحل مالقة كان «محط تجارة لمراكب المسلمين والنصارى»[3] وميناءً مهماً للحركة التجارية[4]. بينما كانت المنكب[5] «مرفأ السفن ومحطها، ومنزل عباد الصليب ومختطها»[6]. واشتهر أهل غرناطة بحسن معاملتهم حتى

1 - قيسارية: أو قيصارية، سوق مسقوف، يقع في مركز أساسي في المدينة ولا تكون على طرق القوافل، وتكون فيها الحوانيت ومساكن التجار دائمة.

2 - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 13.

S. P. Scott: History of the Moorish Empire in Europe, (Philadelphia – London 1904) Vol 2 p. 434.

3 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص 206.

4 - الادريسي، صفة المغرب، ص 179.

5 - المنكب Almunecar: مدينة بمقاطعة غرناطة في منطقة الأندلس.

6 - ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 79.

صارت تلك المدينة. على حد قول بعض المؤرخين: «أكثر المدن امتيازاً في العالم»[1].

ويذكر أن حرير غرناطة كان يصدر إلى البلاد الأجنبية[2] وينتشر في البلاد، ويعم الآفاق[3]. أما الكتان فكان « يكثر حتى يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين»[4]. وكانت المنكب تصدر السكر[5]. أما تين مالقة فكان يصدر إلى مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند والصين وبغداد[6]. حتى قيل: «ان ما يصدره المسلمون والنصارى في المراكب البحرية أكثر من أن يعبر عنه بما يحصره»[7].

وكانت غرناطة تستورد ما ينقصها من المنتجات المختلفة والمواد الغذائية والتوابل من المشرق، والعطور والأخشاب الثمينة من الهند، والمنتجات الطبية والحرير من الصين، والعبيد السود والذهب والعاج من أواسط القارة الافريقية، والجواري والكهرمان والجلود والقصدير من أوروبا. والملح من فاس، والأسلحة والخيل والأرز من بلنسية والقمح من وهران، حيث كانت تفرغ شحناته في المرية. كذلك كانت مملكة غرناطة تستورد الزيت لأن انتاج المملكة لم يكن كافياً[8].

إضافة إلى الورق والملابس الرقيقة والكتان والغزل من «جنوة»، والجوخ من انجلترا على يد «التجار الجنويين»، وكان لون جوخ بريستول Bristol الأزرق يجد سوقاً رائجة في غرناطة[9]. ومن الموانىء الغرناطية على البحر المتوسط كانت تخرج السلع الغرناطية إلى الشمال وإلى داخل إفريقيا والهند

1 - Prescott: Op. cit., p 170.
2 - ابن الخطيب، الاحاطة، ج1، ص 105.
3 - الحميري، الروض المعطار، ص 24.
4 - الحميري، المصدر نفسه، ص 24.
5 - القلقشندي، صبح الاعشي، ج5، ص 218.
6 - ابن بطوطة، الرحلة، نشر وترجمة ديفريمري، وسانجنتي، باريس، 1922م، ج4، ص 366.
7 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص 205.
8 - ابن سعيد، بسط الأرض، تحقيق خوان فرنيط جنيس، تطوان، 1958م، ص 76.
9 - الحميري، المصدر السابق، ص 44.

والصين وإيطاليا وفرنسا وبلاد الشمال الأوروبي. ونظراً لتقدم الحركة التجارية وتردد التجار الأجانب على المملكة فقد ازداد عدد الفنادق بشكل ملحوظ، وخاصة في وسط مدينة غرناطة. وكانت الفنادق إلى جانب وظيفتها في تخزين البضائع، مأوى للتجار الغرباء، ويسمى الفندق باسم الأشياء التي كانت تباع فيه أو تخزن به مثل فندق الفخم، أو باسم صاحبه مثل فندق زايدة. هذا ولم يبق في إسبانيا من هذه الفنادق غير الفندق الجديد أو ما يسمى باسم فندق الفحم Corral del carbon، ويرجع إلى القرن الثامن الهجري (14م) [1].

ونشطت حركة التبادل التجاري بين غرناطة وممالك ودول أخرى مثل أراغون وقشتالة والمدن الايطالية[2]

2- الحياة الاقتصادية بعد سقوط مملكة غرناطة

عرفت الحركة الاقتصادية عموماً انهياراً بسبب الصدمة التي منيت بها في ميادين الفلاحة والصناعة التقليدية والتجارة نتيجة الهيمنة المطلقة للنصارى. فقد عملوا على قطع العلاقات الاقتصادية التي كانت قائمة بين الموريسكيون وشمال إفريقيا. هذه العلاقات التي لم تكن تشمل تبادل المنتوجات فقط بل توطدت أيضاً بين الأشخاص المنتجين، وأسهمت القرابة العائلية في كثير من الأحيان في ذلك. فانتهى كل هذا باستيلاء القشتاليين على أرض الأندلس[3].

أ ـ الحيـاة الاقتصاديـة للموريسكيين:

أدى الموريسكيون دوراً هاماً قبل أن طردهم وتصفية أثرهم نهائياً من شبه الجزيرة الإيبيرية بعد قرن ونصف من الزمن. فقد كانت غرناطة العمود الفقري

1 - الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، ص 384.

2 - صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، 1954م، مجلد 2، عدد2، ص 45-38.

3 - قشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودروهم خارجها، ص 20.

في الحياة بشتى أنواعها وخاصة منها الاقتصادية. فبعد خروجهم من إسبانيا في أواخر القرن السابع عشر الميلادي. انهار الاقتصاد وتدهورت الصناعة وعمت الأزمات بجميع أشكالها. وحلّ الفقر والجوع والبطالة إلى غير ذلك. وهذا ما أكده الباحث الإسباني «خوليو كاروباروخا» في كتابه «موريسكوس مملكة غرناطة» فيذكر: «أنه من المؤكد أن مدينة المرية ونواحيها ظهر فيها فتور اقتصادي طوال القرن السابع عشر بسبب الصدمة التي منيت بها الصناعة التقليدية والفنية التي أصبح يلاحظ تقلصها من جراء الهيمنة الاقتصادية على البلاد من قبل القشتاليين الذين عملوا على قطع كل العلاقات المادية بجميع أنواعها بطرق وحشية مع الشمال الإفريقي. هذه العلاقات التي توطدت منذ قرون. فالحياة الاقتصادية كما هو معلوم لم تكن تخص تبادل الإنتاج الإقتصادي فقط بل كانت تخص أيضاً العلاقات بين الأشخاص الذين يعملون من أجله وينشئونه وينموه»[1]. ولكن الواقع تبدل وأصبح لزاماً عليهم أن يتعاملوا مع واقع جديد فرض عليهم.

ب ـ وضعية الموريسكيين الفلاحية:

كانت الدولة تعتمد على الموريسكيين في ميدان الفلاحة، ولكن قدوم النصارى القدماء من جميع أنحاء إسبانيا أدى إلى السيطرة على الأراضي الفلاحية وصارت الدولة توزع المزارع على النصارى القدماء رغم عدم خبرتهم بفن الزراعة. فنشأت حرب باردة بين الطرفين وخاصة بسبب الأراضي السقوية لأنها مورد العيش الأساسي. ولأن الصناعة في ذلك الوقت لم تكن تدر ربحاً كبيراً كما هو في زمننا هذا. ويعتبر هذا من الأسباب التي كانت تدفع بعض الموريسكيين إلى ترصد الفرصة الملائمة للثورة الشيء الذي كان يأخذه النصارى ذريعة للانتقام منهم وطردهم من أراضيهم. فأضحى النصارى القدماء هم الملاكين الكبار للأراضي الفلاحية ومزارع الزيتون. وكانت الكنيسة من أكبر المستفيدين من ذلك الوضع. ولم ينج من هذا حتى أملاك أحباس (الوقف) المساجد. كما استفاد من هذا

---

1 ـ قشتيليو، حياة الموريسكوس، ص2.

الواقع العسكريون وخاصة جنود المدفعية الذين كانت لهم ميزة خاصة لأن المدفع كان له قيمة خاصة في ذلك الوقت. وهكذا يتبين أن بعض الأراضي بقيت في ملك بعض الموريسكيين الذين كانوا حلفاء ومخلصين للتاج الملكي[1].

وبرزت ظاهرة شراء الأراضي من الموريسكيين بأبخس الأثمان (بإجبارهم على ذلك) ثم بيعها بأثمان باهظة. أو القيام بكرائها، فأصبح الموريسكيون من جراء هذا فقراء معوزين لا مجال لهم للاحتجاج لأن النصارى كانوا يهددونهم باللجوء إلى محاكم التفتيش التي كانت بمثابة سيف متسلط فوق رؤوسهم[2]. خسرت اسبانيا مورداً اقتصادياً هاماً، جراء المعاملة القاسية التي لقيها المزارعون الذين اشتهروا بخبرتهم حين ضرب بهم المثل، قيل: «من كان عنده مسلم كان عنده الذهب»[3]. ويقول لين بول: «أننا نلمس فضل العرب وعظم آثار جهدهم حينما نرى بأسبانيا الأراضي القاحلة التي كانت من أيام المسلمين جنات تجري من تحتها الأنهار، تزدهر بما فيها من الكروم والزيتون وسنابل القمح الذهبية»[4].

بعد اتخاذ قرار النفي 1018هـ/1609م، «حاول دوق Grandia، الذي كان يملك مزارع كبيرة للسكر والذي لم يستطع أن يحصل على عمال ماهرين لتشغيل مصانعه، أن يلبي ما يطلبه الموريسكيون. وكان الشرط الوحيد الذي يمكن أن يقبلوا به هو حرية ممارسة طقوس دياناتهم. وقد قدم الدوق التماساً بذلك إلى نائب الملك، ولكن Ribera، أوضح بأن هذا الأمر سيكون تنازلاً لا يمكن منحه حتى من قبل الملك أو البابا، لأنه أعلى من سلطتهما، وذلك لأن هؤلاء كانوا معمدين».

ومن أجل استمرار الزراعة، فقد سمح لنحو 6 % من الأسر الفلاحية

1 - قشتيليو، محمد، حياة الموريسكوس الأخيرة في الأندلس، ص 16.
2 - عنان، نهاية الأندلس، ص 250. الحجي، التاريخ الأندلس، ص 519.
3 - طه، عبد الواحد ذنون، دراسات أندلسية، ص 233.
4 - الفقي، عصام الدين، تاريخ المغرب والأندلس، ص 303.

الموريسكية بالبقاء[1](5). ولكنهم فضلوا مغادرة البلاد أسوة بالآخرين. وفي سنة 1019هـ/ 1610م أرسلت إحدى اللجان في بلنسية تقريراً إلى الملك بشأن سبعمائة من الموريسكيين، الذين ظلوا في البلاد. ويشير التقرير إلى أن هؤلاء كانوا خبراء في ري الحقول. ويعرفون فن تصنيع السكر، وإنتاج الرز، والحرير، وبعض المحاصيل الأخرى التي لا يعرفها المسيحيون القدماء. وعندما سُمح للموريسكيين بالبقاء كخدم حتى يعملوا مع المسيحيين في الحقول التي كانت قد هجرت بسبب النفي.

ج- قضية استغلال الماء عند الموريسكيين

أراد المسؤولون بألمرية (944هـ/1537م) أن يضعوا حداً للفوضى التي كانت تحيط بقضية توزيع الماء الخاص بالسقي، فحاولت الكنيسة أن تحسم الأمر وتتدخل لتحصل على حقوقها القديمة. فكونت ملفاً واستدعت لهذا الغرض ثلاثة موريسكيين حسب تقدمهم في السن لكونهم على اضطلاع بطريقة توزيع المياه ويتعلق الأمر بكل من: ألونصو دي فلفيس، شرطي سامي بألمرية وعمره 63 سنة، مارتين لاثو فلاح عمره 73، لويس أرووبس حداد عمره 80 سنة (وهؤلاء كانوا من النصارى الجدد) وكانت المعلومات التي أدلى بها هؤلاء الأشخاص في غاية الأهمية نظراً لكونهم كانوا يعرفون مدينة ألمرية حق المعرفة سواء في عهدها الإسلامي أو إبان الاحتلال النصراني. كما أنهم كانوا على دراية تامة بمشكل توزيع المياه، لأن مدينة ألمرية لم تعرف مشكل توزيع المياه أيام المسلمين لكونهم عرفوا كيف يستغلونه رغم وجود المدينة في منطقة شاسعة وجافة.

هذا ويلاحظ عدم وجود العيون والأنهار في مدينة أالمرية، وكان مصدر الماء الآبار حيث يستخرج بواسطة النواعير وكميته كانت ضئيلة كما أن العملية

1- سيد أمير، علي، مختصر تاريخ العرب، تحقيق عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م، ط5، ، ص 559.

كانت تتطلب مجهوداً كبيراً. وقد تمكن موريسكي وكان يدعى «أخرين» من اكتشاف منبع هائل تحت الأرض. وقد قاموا بحبس هذا الماء على الجامع الكبير بألمرية وأصبح مسيراً من وقف القاضي والفقيه. وهما اللذان يعينان حكام الماء. فتبدلت أحوال المدينة [1] فحفروا السواقي والمجاري بكيفية فنية عجيبة حتى صار الماء يصل إلى السواقي العامة وإلى المساجد قصد الوضوء للمصلين.

وقد كان الماء يقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم يسخر للسكن الحضري. وقسمين لسقي الأراضي الفلاحية. أما أيام الجفاف فكان الماء كله يذهب إلى صهاريج ألمرية. وإذا زاد منه كمية فتباع في المزاد العلني بعد صلاة الجمعة بحضور قاضي المدينة ورئيس شرطتها. ومدخول بيعه يسخر لبناء الحصون وتنظيف السواقي.

بعد احتلال المرية من طرف الملوك الكاثوليك أصبحت الكنيسة هي المتحكمة في مصلحة تسيير المياه لكونها (أي الكنيسة) هي وارثة المسجد الكبير. غير أنه في سنة 914هـ/1508م أصبح تسيير المياه في يد البلدية بعد أن رأى الرئيس الديني أنه من غير اللائق أن تستولي الكنيسة على أشياء تخص الأمور الدنيوية لأن ذلك حسب رأيه يحط من قيمة الهدف الروحي للكنيسة[2].

د- المعاملات في ميدان الفلاحة

كان الموريسكيون يتعاملون أحياناً في ما بينهم بالشراكة، ففي ميدان الماشية مثلاً، كان الموريسكي المالك للماشية يقوم بتسليمها لموريسكي آخر ليرعاها ويحرسها وبالتالي ليستفيد من منتوجها على أن يدفع للمالك بعد انقضاء المدة المتفق عليها نصف قيمة القطيع. ومن الوثائق المحفوظة بالسجلات الإسبانية

---

1 - قشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة في الأندلس ، ص 17.

2 - عنان، اندلسيات، ص 195-194، مجلة العربي العدد 151 – حزيران 1971م.

والتي يرجع عهدها إلى القرن السادس عشر. هناك ما يبين وجه المعاملات التي كانت سائدة بين الموريسكيين والنصارى. وهذه الوثائق محررة من طرف عدول، وبها تفاصيل تدل على تاريخ البدء بالعمل بها وصيغة التعامل في ما يخص الأراضي الفلاحية. كما تحتوي على أسماء الأشخاص المتعاملين بموجبها. وأيضاً تفاصيل مدققة عن مساحة الأرض ونوع الزراعة الموجودة بها وحدودها بل وحتى أصل الأرض في الماضي.

كان أداء الأجور يتم نقداً أو بواسطة منتوج الأرض من زراعة أو طيور أو تبن أو خشب إلى غير ذلك. أما نسبة إيجار الأرض فكان مبالغاً فيها بالنسبة للموريسكوس إذا استأجروها من نصراني قديم. وهذا بطبيعة الحال إجحاف في حقهم (أي الموريسكيين). ويتم دفع الإيجار بالمنتوج في ليلة عيد ميلاد المسيح. وسبب هذا على ما يبدو هو أن يتسنى للنصراني القديم التمتع بمواد المنتوج الفلاحي في مناسبة عيد الميلاد. كما فُرض على المستأجر إيصال المنتوج إلى بيت صاحب الضيعة. وهذا يكلف الموريسكيين صعوبات ومشقات جمة خاصة إذا كان مالك الأرض يسكن بعيداً لانعدام وسائل النقل ووعورة الطريق[1].

ومن الجدير بالذكر أن الموريسكيين في غالبيتهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة. لذلك اقتضى الاستعانة بترجمان أثناء تحرير عقود الإيجار. ولكن ورغم بنود العقود تبقى حرية التصرف دائماً لصالح النصراني القديم. فإذا أراد بيع الأرض يصبح عقد الإيجار لاغياً حتى ولو نص عقد الإيجار على عكس ذلك. فيضيع بذلك حق الموريسكي ويصبح بالتالي تحت رحمة وسيطرة النصراني القديم[2].

---

1 - الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 524-525.

2 - قشتيليو، محمد، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ص 20.

د- الحيـاة الفكريـة فـي الأندلس

1 - الأدب

ينفرد الأدب الأندلسي بأنه يجمع مزايا كثيرة عززت اللقاء بين الشرق والغرب، ففيه الرصانة التي طالما بهرت الناس في الأدب العربي القديم، وفيه الجدة التي تتحرك في الأزجال والموشحات و «الرومانسية» الطاغية التي تأتي عند ابن زيدون، والظرف وخفة الروح وفيه أروع ما يمكن أن يوجد في أدب أمة من الأمم[1]. فما من مكان استفاد، من سقوط خلافة الأندلس أكثر مما استفادت غرناطة التي كانت تلي قرطبة في العظمة رغم أنها تفوقها جمال موقع ورومانسية. فاستقطبت أكبر عدد من المفكرين والشعراء[2]. وبقي مستوى الثقافة رفيعاً في مملكة غرناطة حتى القرن الخامس عشر الميلادي، فبرز فيها شعراء من طراز ابن سعيد المغربي، وأثير الدين أبي حيان، ولسان الدين ابن الخطيب. وهم يتغنون بقصائدهم المعبرة عن أيام العرب المجيدة في الأندلس[3]. ولكن التدخل السياسي والعسكري الإسباني في شؤون الأندلس واحتلالهم غالبية أجزائه انعكس على الجانب الثقافي.

ويبدو تراجع النتاج الأدبي بعد سقوط غرناطة، رغم ذلك ترك الموريسكيون تراثاً أدبياً من النثر والنظم استعملوا في كتابته «الألخميادو»[4] وتوجد منه مجموعات كثيرة في مكتبة مدريد الوطنية، ومكتبة أكاديمية التاريخ، ومن شعرائهم «ابراهيم دي بلغاد»، و «خوان الفونسو» و «محمد الخرطوشي» من أهل «بيانه». كذلك برز من كتّاب الالخميادو، الكاتب الفقيه المسمى فتى «ابيرالو» وهو مؤلف لكتب في التفسير، وتلخيص السنة، وقد طاف بمعظم انحاء

---

1 - عناني، محمد زكريا، الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1999م، ط1، ص 5.

2 - ايرفنغ، واشنطن، الحمراء، مركز الانماء الحضاري، حلب، 1996م، ط1، ص 345.

3 - الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، ص 117.

4 - الألخميادو: لغة استعملها الموريسكيون للتعبير عن نتاجهم الفكري بعد منعهم من استعمال اللغة العربية.

إسبانيا، وشهد مصائب قومه، ووصفها بأسلوب قوي مؤثر[1]. فنرى أن العصر الغرناطي (566-898هـ) (1266-1492م) امكن تقسيمه من الناحية الثقافية إلى ثلاث فترات وهي[2]:

أ ـ فترة غرناطة العربية الأولى التي غلب عليها التأثير المسيحي، وكان ذلك أيام دولة بني نصر (بنو الأحمر).

ب ـ فترة ثانية متوسطة خلال القرن الرابع عشر الميلادي، اختلطت فيها المؤثرات العربية الإسلامية بالاسبانية..

ج- فترة القرن الخامس عشر الميلادي، فقد كانت السمات العربية واضحة ومتجلية على مملكة غرناطة.

فإبن خلدون عبّر عن ذلك بأجلى بيان في مقدمته: «وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها. وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث».

بعد سقوط غرناطة آخر معقل للإسلام والعرب في الأندلس، لم يبق الشعر يشير إلى الأخطار المحدقة بالأندلسيين فحسب، وإنما تطرّق إلى الأخطار التي تحدق بالأمة الإسلامية كلها: فالفقيه ابن الدقون يبكي غرناطة[3] بقوله:

هَذا النذيـرُ جَهاراً جَـاءَ يُنْذِرُنـا   والأذنُ في صَـمَمٍ عَنْ قِيلِ أوْ قـالِ

ونَحنُ في غَـفْلَـةٍ عَمّـا يُرادُ بِنا   نَمْشـي عَلى مُهْلَةٍ مِنْ طولِ إمْهالِ

إننا نجد النغم الحزين في شعر الأندلسيين، الذين بكوا الأندلس بعد سقوط غرناطة، إذ شعروا في أعماق نفوسهم بالهزيمة واليأس الشامل، وأدركوا في يقين أن آخر شمعة كانت لهم في تلك الديار قد انطفأت، وأنه لم يبق لهم إلا هذا

---

1 ـ كتاب العربي، العدد العشرون، 1988، ص 162.

2 ـ الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، ص 118.

3 ـ المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 104.

الظلام الكثيف، وهذا اليأس القاتل، ومن ثم عبروا بصدق عن تلك الإحساسات التي كانت تنتابهم بين الحين والآخر، ونظموا شعراً تتجلى فيه هذه الروح اليائسة، وهذه الألحان الحزينة، ويكفي هنا أن نشير إلى ما نظمه ابن عبد الله العربي العقيلي على لسان أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس معتذراً، طالباً العفو والغفران، ومتوسلاً إلى سلطان فاس الشيخ الوطاس، راجياً ألا يأخذه بأقوال الوشاة، ولا يعاتبه على أشياء قدرّت، وأن ينزله في جواره المنزلة اللائقة[1]:

مَوْلى المُلوكِ، مُلوكِ العَرَبِ والْعَجَمِ رَعْياً لِما مِثْلُهُ يَرْعى مِنَ الْذِّمِمِ
بِكَ اسْتَجَرْنا وِنْعَم الْجارِ أنْتَ لِمنْ جارَ الزَّمانُ عَلَيْهِ جَسورُ مُنْتَقِمِ

فهذا الانكسار، وهذا الضعف في الروح، وهذا البكاء الغزير والاستسلام للأيام والخطوب في قصيدة العقيلي كانت نتيجة من نتائج انهيار الأندلس الشامل.

ومن مراثي الأندلس هذه المرثية لأبي جعفر بن خاتمة التي نظمها أثناء سقوط غرناطة وكانت رندة قد سقطت من قبل.

أحقّاً خَبا مِنْ جوّ رُنْدةٍ نورُها وَقَدْ كُسِفَتْ بَعْدَ الْشُّموسِ بِدَوْرِها
وَقَدْ أظْلَمَتْ أرْجَاؤُها وَتَزَلْزَلَتْ مَنازِلُها ذَاتَ الْعُلا وَقُصُورُها[2]

وصف صاحب هذه القصيدة سقوط مملكة بني الأحمر مدينة بعد مدينة، فذكر مالقة ثم رندة وبلش ثم المنكب ثم وادي آش ثم بسطة ثم المرية، وختم مناحته بذكر غرناطة أم البلاد.

مَحَلُّ قَرارِ الْمُلْكِ غَرْناطَةَ الْتّي
هِيَ الحَضْرَةُ الْعُلْيا زَهَتْها زُهورُها
تَرى لِلأَسى أعْلامُها وَهِيَ خُشَّعٌ
وَمَنْبَرُها مُستَعْبَدٌ وَسَريرُها[3]

1 - المقري، نفح الطيب، ج6، ص 280.

2 - عوض، عبد الفتاح، فصول في تاريخ الأندلس، ص 9.

3 - عوض عبد الفتاح، المرجع نفسه، ص 11.

لقد كانت مأساة تسليم مفتاح غرناطة أكثر من أن توصف شعراً بما فيها من حرق وقتل وتعذيب وتهجير واضطهاد[1]، فقد صوّر مرمول كارباخال حالهم بقوله: «فأصبح هؤلاء مقهورين مثل النعاج الشاردة في حالة من القمع والجور والظلم لا يمكن تصورها مثل حالة طيور الترغلة وهي في مخالب طائر النسر الجارح....» [2]. إن الواقع المؤلم، انعكس على نوعية الأدب، الذي كنا قد ألفناه في الأندلس، فظهرت ثقافة الموت كما قال بيدرو ساليناس Pedro Salinas[3]. فهذه الأحداث الشعرية لا تعبر عن المأساة، وإن عبرت فهو تعبير ضعيف، إذا ما قيس بشعر الأندلسيين[4].

ويبدو التوجس والخوف قد تمكن من نفوس الأندلسيين، فتحولت تعابير الشعراء إلى مزيج من الحزن والكآبة[5]، وقد يكون فيها الصوت مصحوباً بلطم الخدود، وهذا الأمر عادة ما يكون أكثر التصاقاً بالأهازيج والمواويل الشعبية، قال أحدهم[6]:

فَالْحَياةُ لا تَهُمُّ .... طالَما أنَّها فانِيةٌ

وَبَعْدَ كُلِّ الْعَناءِ، فَما هِيَ الْحَياةُ؟

أَغاني

إن غِنَاءَ الأُسى يُنْسي الأَسى....

ولأن الغرناطي يعيش في موقف لا يحسد عليه فقد نظم «الزجل» لارتباطه باللغة اليومية والسهلة والساخنة، ولعلاقته بالحياة اليومية، فهو يعلق عليها أو ينتقدها، أو يسخر من المتسببين فيها والمسؤولين عنها، والأندلسي في مثل هذه

1 ـ عوض، عبد الفتاح، اشراقات اندلسية، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2007م، ط1، ص 122.

2 ـ أرينال، مرثيدس غارسيا، محاكم التفتيش والموريسكيون، ترجمة خالد عباس، المشروع القومي للترجمة عن المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م، ط1، ص 39.

3 ـ ثقفان، عبد الله، الأدب الموريسكي، دار الكتاب العربي، 2011م، ط1، ص 44.

4 ـ عنان، محمد عبد الله، أندلسيات، 1988م، ط1.

5 ـ شاكر، مصطفى، الأندلس في التاريخ، ص 145.

6 ـ ثقفان، المرجع السابق، ص 46.

الحالة لا يملك لحظة تفكير، بقدر ما هو يعيش مرحلة قلق على نفسه وعلى كل ما حوله....

ولهذا نجد أن الزجل هو الفن الشعبي الذي تم تبادله في قلعة حربية كغرناطة، ملأى بالجنود والفرسان والآلات الحربية[1]. لكنه اتجه ليصطبغ بمسحة حزن.

هذا وقد أنتج المثقفون[2] فناً شعرياً كالرثاء، والدعوة للجهاد، ودعوة الآخر لمساعدة البلاد، إلاّ أنه ينبغي أن ندرك أن هذا النتاج الشعري قد تعرض للحرق، أو الضياع مثل «مرثية شعرية كتبها موريسيكي مجهول في القرن السادس عشر، أرسلها إلى شمال افريقيا مع رجل يدعى داوود، يطلب فيها العون والمساعدة. لكن الاسبان اعتقلوا داوود في الطريق، وأخذوا الأوراق التي معه، ومنها المرثية والرسالة، وارسلها المركيز موندنمير Mon Aeiar إلى الملك مع ترجمتها...، ولا ندري أين استقر النص العربي، ولكن «مارمول» أورد ترجمة للنص في كتابه «ثورة الموريسكيين»[3]. والجدير بالذكر وجود بعض الإسبان الذين اعترفوا بأنه قد اختفى الأدب المعطر، والشاعرية الشعبية، والخيال الممتع بعد طرد الموريسكيين[4]...

إن الحركة الفكرية قد أخذت في الاضمحلال حيث تناقص عدد المبرزين والمبدعين، جراء الهجرة المستمرة التي أفقرت البلاد من العقول المبدعة[5]، التي اكتفت بمراقبة الوضع في بلادها عن بعد[6]، فابن الدقون يبكي غرناطة وأهلها ويحثهم على الهجرة بقوله[7]:

1 - الأهواني، عبد العزيز، الزجل في الأندلس، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2002م، ط2، ص 10.

2 - الأهواني، المرجع نفسه، ص 161.

3 - عنان، نهاية الأندلس، ص 362.

4 - عنان، المرجع نفسه، ص 500.

5 - شاكر، مصطفى، الأندلس في التاريخ، ص 144.

6 - افتتاحية المجلة الأكاديمية الخاصة بالموريسكيين بالمغرب، ص 24.

7 - ثقفان، الأدب الموريسكي، ص 83.

تَاللهِ لا زَالَ ما في الْقَلْبِ مِنْ أسَفٍ   وَلَوْ أكونُ دَفينِي الْمَنْزِلُ الْخالي
أَوْ يَفْتَـحُ اللهُ في نَصْـــرٍ يَمُنُّ بِــهِ   فَالله باقٍ يَقي مِنْ كُـلِّ مُحْتالِ

أما من بقي في البلاد، فقد أخذ يعيش نزاعاً ذاتياً، وقلقاً داخلياً كقلق بلاده، من مثل ذاك الذي حاول في شعره الاستغاثة بالمشارقة بعد أن يئس من نجدة أهل المغرب وهو مجهول الاسم، إذ نجده قد قال:

سَلامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ عِبيدٍ أصابَهُمْ   مُصابٌ عَظيمٌ يا لَها مِنْ مُصيبَةٍ
سَلامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ عَجَائِزِ أُكْرِهَتْ   عَلى أكْلِ خِنْزيرٍ وَلَحْمِ جِيفَـــةٍ[1]

تلك حال الشعر في هذه المرحلة، وهي حال أحسن من النثر الذي وصل إلى درجة كبيرة من الانحطاط اللغوي، إذ نجد أحدهم يقول: (الحمدو للهي وحدهو قبل الكلم. اسم عليكمو وعلى من اكرمهو الكريمو يا سيديا ويا حبيبي وعز الناس عنديا....)[2].

وقد علّق عليها أحدهم بقوله: هذا الخطاب ربما كان آخر وثيقة عربية عثر عليها...).

2 ـ اللغـة

حقق الإسلام نجاحاً باهراً منذ انطلاقته الأولى من مركز البعثة في شبه الجزيرة العربية. وخلال أقل من قرن، وصل امتداده إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، لتشكل الأندلس حدوده الغربية، وبذلك يمكن القول أن الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية وما تلاه من إبحار لأمواج بشرية مؤلفة من عرب وأمازيغ سنة 93هـ/711م، ووصول مدهم إلى حدود جبال «كنتبريا Kantabria» بأقصى الشمال وفي مدة لم تتجاوز الثلاث سنوات، فيما لم يتبق للمسيحيين سوى حيز ضيق، يجعلنا نتفهم استمرارية الاستعمال اليومي للغة تلك الحقبة والمتمثلة في

1 ـ المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 108-104.
2 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 372.

اللغة الرومانثية الحديثة أو النيو- رومانش.

عرفت الاندلس في مراحل الفتح الأولى حركة تعريب سريعة، ففي البداية كان الأندلسيون ألواناً وخلائط من عرب وأمازيغ، ولكن كثيرا منهم عاد إلى شمال افريقيا بعد 122ه/740م، وبعد مدة عرفت المنطقة توافد أعداد كبيرة من المشارقة الناطقين بالعربية، أما المستعربون والمولدون واليهود فقد كانوا منتشرين في كل المناطق، وعليه ما اقتضى إيجاد لغة مشتركة بين كل هذه المكونات، في ظل هذه الظروف، وهذا الواقع، شكلت الرومانثية، لغة التواصل والتفاهم.

واضحى هناك لغة اسبانية متأسلمة، تمظهرت من خلال لهجات القرن العاشر للميلاد، حتى الثالث عشر ميلادي، وتطورت في حقبة المورسكيين، أي القرن السادس عشر، هذه اللغة، تولدت من الإتحاد اللغوي للهجات اسلامية ... [1].

وعرفت الأندلس انخفاضاً في عدد سكانها المسيحيين ابتداءً من القرن العاشر، بينما انتشر استعمال الرومانثية[2] لأغراض التواصل بين الناس، وحوَت هذه كلمات عربية كثيرة، لا ننسى أن المتحدث بها نشأ في وسط أندلسي رومانثي اللسان اعتنق الإسلام وسعى في طلب لغة ولسان أهل الإسلام التي هي العربية[3].

والحقيقة أن المسيحيين كانوا يتحدثون الرومانثية، ويكتبون اللاتينية، والمسلمون، يتحدثون الرومانثية ويكتبون العربية الكلاسيكية، واليهود، يتحدثون الرومانثية ويكتبون العبرية والعربية الفصحى[4].

وبعد فترة انحسار المد الإسلامي وسقوط عدد من الممالك والحصون،

---

1 - بسون، جورج، Moriscosy sefardies, Variedades heterodoxas ، ورقة بحث في اللقاء الفرنسي الألماني الأول لمتخصصي الاسبانية، فرانكفورت، 1991، ص 368.

2 - الرومانثية: لغة قديمة استعملها المسيحيون للتخاطب فقط، أما الكتابة فكانت باللاتينية.

3 - الجيوسي، سلمى، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ص 285.

4 - المرجع نفسه، ص، 392.

عرفت شبه الجزيرة الإيبيرية هجرة واسعة للمسلمين نحو الجنوب، واختار بعض «المدجنين» البقاء بتشجيع من النبلاء وذلك لتميزهم وإتقانهم لتقنيات الفلاحة وأساليب الري، إضافة إلى حرف العمارة وصناعة الحرير، ما جعل خطر القحط والغلاء هاجس الممالك الشمالية وخاصة في منطقة سرقسطة[1] وسائر أراضي نهر الإيبرو[2]، وكانت في أراغون عشرين بالمائة. فأخذ استخدام اللغة العربية يتراجع في كل من قشتالة وأراغون، إذ اقتصر الاستخدام في البداية على الجوانب القانونية والدينية، ثم انحصر في نطاق محدود للغاية، حتى حلت لغة الألخميادو أو الأعجمية Aljamia فيما بعد محل اللغة العربية[3].

ولأن الحقوق الدينية والثقافية واللغوية ظلت على الدوام في حال مد وجزر، محكومة في الغالب بإرادة الملك أو حجم الضغط الكنسي، فسرعان ما سيتم التضييق على هذه الجماعة المسلمة خصوصاً في أراغون، «وهكذا صار تطبيق القانون الإسلامي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر مرتكزاً على نصوص وخلاصات شرعية كتبها فقهاء مدجنون لأن السواد الأعظم من بني جلدتهم فقد اللغة العربية...» وقد وصلت إلينا بعض هذه المؤلفات، وخاصة التي كتبت حوالي عام 869هـ/1464م وكتبها فقيه شهير يدعى عيسى بن جابر، وهو كتاب مختصر السنة، أو مجموعة في الأوامر والنواهي في الشرع والسنة. فيذكر الكاتب في مقدمته أنه كتبه حتى يمكن استيعاب ما به لأن المسلمين تحت ظروف القهر والإكراه، وثقل الأعباء الضرائبية والإجهاد، فقدوا ثرواتهم ومدارسهم، ويمكننا أن نقف في فترة عيسى بن جابر على أصول نوع من الأدب الإسلامي المحلي، كُتِبَ الجانب الأكبر منه بالألخميادية[4].

---

1 - سرقسطة: هي المدينة البيضاء، سميت بذلك لكثرة جصها وجيارها، وهي عاصمة منطقة أراغون في شمال شرق اسبانيا.

2 - نهر الايبرو: يقع في أوروبا الغربية، في شمال شرق اسبانيا، يبلغ طوله 773 كلم.

3 - غارثيا أرينال، مرسيدس، شتات أهل الأندلس، ترجمة محمد فكري عبد السميع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001م، ص 73-72.

4 - المرجع نفسه، ص 73.

كيف فقدت العربية حضورها؟

يقول أحد الكتاب المرموقين والمنغمسين في الثقافة الأندلسية: «الطبقات الوسطى والعامية من السكان كانت تستخدم العربية العامية، التي تتخللها بعض الكلمات الرومانثية، التي كانت في ازدياد مطرد، كما لو أنهم راحوا يتدربون على الكلام باللغة الجديدة، التي ستنتهي بالحلول محل لغتهم... الخصائص الأساسية لهذه اللغة العربية الإسبانية الأولى كانت قليلة، لكن تشويهات متواصلة راحت تقربها من القشتالية»[1].

ويبدو أن اللغة التي ظهرت، كانت حاضرة في طليطلة التي تتبع قشتالة منذ قرون، يذكر «ميغيل سرفانتس في دون كيشوت»، المولود في عام 954ه/1547م: «كنت ذات يوم في طليطلة، فجاء شاب يبيع أوراقاً وكتابات قديمة، وبما أني مولع بالقراءة، ومع أنها كانت أوراقا مقطعة...فقد أخذت بضعة أوراق من تلك التي كان يبيعها الشاب، فرأيت حروفاً أعرفها، عربية، ورغم أني عرفتها، إلا أنني لم أستطع القراءة، فمضيت أبحث حتى ظهر لي أحد الموريسكيين الخميادييين، وذلك حتى يقرأ لي، ولم يكن صعباً أن أجده...وجدته، أخيراً أوجد لي الحظ واحداً، والذي بعدما أخبرته عن رغبتي، وأعطيته الكتاب عند يديه، فتحه في المنتصف، وقرأ قليلاً منه ثم بدأ يضحك، سألته ما الذي أضحكه، فأجاب أنه يضحك على عبارة في هذا الكتاب، كتبت على الهامش كملاحظة، قلت له أن يقولها لي، وهو دون أن يتخلى عن الضحك قال:

إنها كما قلت، هنا على الهامش، كتب هذا: إنها دلثنيا دل طابوثو......»[2].

يبدو هنا أن سرفانتس عثر على شاب يبيع كتبا ومخطوطات وكان الروائي العالمي مقتنعاً أنه قادر على قراءتها، أنه يفهم العربية، يشير البعض إلى هذه الحقيقة باعتبار أن سرفانتس قضى أكثر من خمس سنوات في الأسر في الجزائر،

1 - غالا، انطونيو، غرناطة بني نصر، ترجمة رفعت عطفة، دار ورد، الاردن، 2009م، ط1، ص 205.

2 - سرفانتس، ميغيل، دون كيشوت، ص 207.

ولكنه مع ذلك عجز عن القراءة، والواقع أنه مع هذه الكتب، وحده الموريسكي والمدجن، الأقدر على فك الخط وفهم العبارات المكتوبة وليس غيرهم، وهو الذي طلب ذلك بالتحديد وبحث عن بغيته في أحد المدجنين، فلماذا هذا؟

إن الأمر يتعلق ببساطة، بلهجة محلية، رومانثية، وجدت منذ مئات السنين، وتلقفتها أقلية تميزت بروافد ثقافية متعددة، ويعبر اختيار الحرف العربي كوسيلة للكتابة على أن كاتبها مسلم، هنا الدليل في رواية سرفانتس: «قال: إنها: حكاية دون كيشوت ديلامانشا، كتبها سيدي حامد بن علي». ببساطة.

أما بالنسبة للجار الجنوبي، المغرب، فقد تجاورت لغتان، ، فالعربية كانت لغة الكتابة والتأليف، والأمازيغية لغة الكلام والتواصل اليومي، الأمازيغ أنفسهم ظلوا دائماً على هذا التقليد. وكذلك الأمر في الأندلس، العربية لشؤون الكتابة والتأليف، والرومانثية للتواصل الشفهي. والتي أطلق عليها اسم الخميادية، والتي نشأت من هذا الخليط، بعد سقوط الأندلس وسطوع نجم قشتالة، كتبها مدجنون وموريسكيون على امتداد الفترات الزمنية. وسمي هذا الإرث بالآداب الخميادية.

عرف القرن السادس عشر نهاية الوجود الإسلامي في الجزيرة الإيبيرية، بسقوط مملكة غرناطة، وكان من نتائج ذلك انسحاب أعداد هائلة من أفراد المجتمع الغرناطي تباعا، تتشكل بالأساس من طبقة الميسورين ونخبة المدينة المتعلمة والغنية، مفضلين الهجرة إلى الضفة الأخرى وبدء حياة جديدة. خصوصاً بعد المضايقات التي تعرضت لها هذه الأقلية من طرف أعوان الكاردينال ثسنيروس، ومع هجرة هؤلاء كان طبيعياً أن يبدأ مصير اللغة العربية في الانحدار لتفقد وجودها مع الوقت، خاصة وان المجتمع المسلم الذي اختار البقاء كان يتشكل من فئة الفلاحين والحرفيين والفقراء والمولدين، وهم المسيحيون الذي أسلموا في الأندلس وأحفادهم دون أن ينسلخوا تماما عن لغتهم الرومانثية، وأسهمت الظروف في جنوحهم إلى الخميادية، مثلما نزع إليها غيرهم من الذين عاشوا كمدجنين في المملكة القشتالية الأراغونية منذ سقوط الأندلس.

من خلال مقارنة هذه الكتابات الأولى للخميادية، لوحظ أن كلمات كثيرة

كتبت بطرق مختلفة، ما يعني أنها لم تكن من تأليف كتاب متعلمين ودارسين، أو لكأنها ظهرت كحل عاجل لحفظ وإنقاذ علم وتراث معرض للضياع والفقدان، كما أن بدائية الخط ونقصان جماليته في الغالب تقود إلى استنتاج أنهم اعتبروها مرحلة مؤقتة ربما لزم المرور بها بانتظار المنقذ العثماني الذي سيلتفت إليهم عن قريب.

ويؤكد هذا الشعور ما جاء في فتوى (الفقيه المغراوي) [1] إلى الموريسكيين وقوله سنوات معدودة فقط بعد سقوط غرناطة: «أسأل الله أن يدير الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وحلة بل بصدمة الترك الكرام» [2].

ومع انطفاء هذا الأمل، أصبحت الخميادية [3] ضرورة، فتطور أمرها وتكثف التأليف بها، ووصل الأمر إلى إبداع القصائد والأشعار وتأليف الكتب الكثيرة، وقد كانت غاية أغلبها بعث الحياة الدينية وحفظها من جديد وبكل همة ونشاط هذه المرة، والدفاع عن هذا التميز، وحق الاختلاف عن الآخر، ومثال على ذلك، الشاعر محمد ربدان الأراغوني، وقصيدته حول حياة النبي محمد، والتي ألفها من ستة عشر ألف بيت، ويضم نسخة منها المتحف القومي البريطاني.

كما تعتبر قصيدة يوسف، من أهم الأعمال الأدبية الخميادية لحقبة المدجنين، وتتحدث عن النبي يوسف وحياته الزاخرة بالأحداث، وقد كتبت باللغة الرومانثية الأراغونية وتضم 380 بيتاً [4].

برزت الخميادية كرد فعل على قرار منع العربية المتواصل أو التضييق عليها كلغة، وقرار الكاردينال ثيسنيروس الشهير في ساحة باب الرملة بغرناطة بحرق الكتب التي حوت تراثهم وآدابهم ودينهم ، والتخلص من نخب غرناطة

---

1 - رجل دين سمح للمسلمين بممارسة مبدأ التقية للحفاظ على حياتهم.

2 - قشتيليو، محمد، الموريسكيون في الأندلس وخارجها، ص 205.

3 - اللغة الخميادية: ابتكرها العرب بعد مرسوم 1566م الذي حرّم التخاطب باللغة العربية، فكانت تكتب بالعربية، وتقرأ بالرومانثية.

4 - باسكيت، ميغيل أنجيل، poesia morisca، المجلة الاسبانية الدورية، 2007، ص 222.

عبر دفعهم لترك البلاد، ليصبح فيما بعد امتلاك كتب أو أوراق باللغة العربية يمثل دليلاً قاطعاً على الجرم المشهود، وحتى لو قام الموريسكي بإنكار علمه بها أو صلته بالمخطوط فإن ذلك لم يكن ليمنع تعرضه للتعذيب والعقاب والجلد.

ونضيف على ذلك مثال «السيد نوفر بلاش Nofre Blach وزوجته أنخيلا كاروث Angela Carroz اللذين تم ضبطهما في سرقسطة أثناء دورية تفتيش حيث وجد الجنود كتاباً وعدة أوراق مخطوطة بالعربية ورغم إنكار الزوجين الشديد لأية صلة محتملة لهما بهذا الكتاب وادعائهما أنه يخص أحد أعمام الزوج كما أنهما ينكران محتواه، إلا أنهما تعرضا لتعذيب شديد من طرف أعضاء محاكم التفتيش وفي الأخير تم جلدهما مائة جلدة لكل واحد منهما مع قضاء سنة كاملة في السجن.

أيضاً قضية السيدة ايزابيل تاسيم Isabel Zacim فأثناء حملة تفتيشية بحثاً عن أسلحة محتملة مخبأة في المنزل، وجد الجنود قرآناً في أحد الصناديق، ورغم إنكار السيدة لمعرفتها بالأمر فقد تم اقتيادها إلى المحاكمة، ولأن عمرها كان قد تجاوز الثمانين، فقد نجت من التعذيب الجسدي والجلد، إلا أنها لم تفلت من العقاب المادي والمعنوي، حيث حكم عليها بالطواف في شوارع المدينة على ظهر حمار، تعلق على ظهرها لوحة تحمل اسمها والجريمة التي ارتكبت، وفوق ذلك، أداء غرامة مالية تمثلت في عشرة دوقية[1].

ويرجع بعض الباحثين إلى أن سر اختيار الحرف العربي لكتابة الرومانثية عائد إلى الوازع الديني والإتجاه الايديولوجي الذي غلب على هذه الأقلية، وباعتبار الحرف العربي أيضاً، حرفاً سامياً، وأكثر إسلامية وقدسية من غيره[2].

---

1 - ليا، شارل هنري، Los moriscos espanoles, su conversion su expalsion، أليانتي، نشر أغوا كلارا، 1990، ص 197.

2 - فروتس، البرتو، مونتانز، La oljamia, una voz islamica، نشر مؤسسة فرناندو الكاثوليكي، 2004، ص 101.

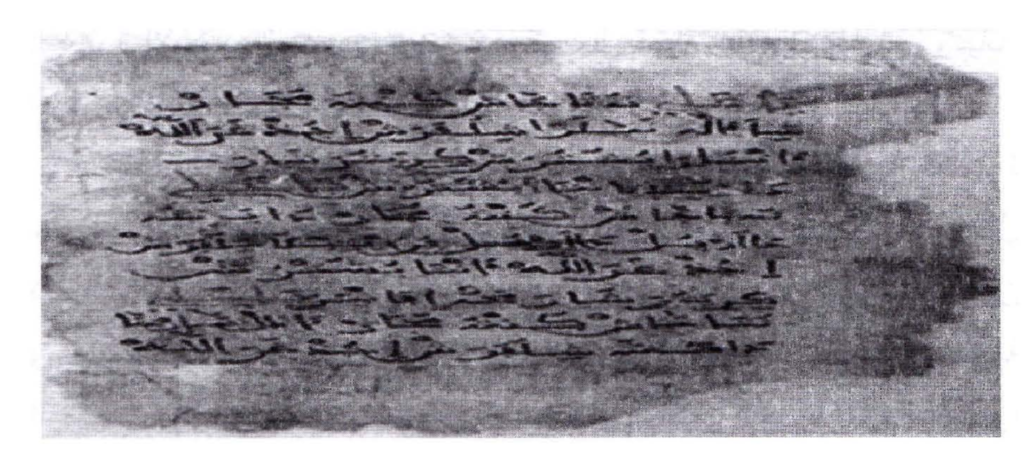
هذا التعايش المفروض، والانخراط الكلي، الاجباري، للموريسكي جعله يبدع آداباً خميادية، رومانثية بحروف عربية، تركزت فيه الألفاظ والمفاهيم الدينية العربية بشكل عام، وكذلك فقرات كاملة من القرآن، أخذت هذه اللغة من العربية أيضاً البناء التركيبي والنمطي والمعجمي وما يتعلق بالمدلولات. إنها لغة خاصة، البديل الإسلامي، ويستهدف نشر أسس الشريعة والعقيدة الإسلامية والمحافظة عليها بين الموريسكيين، كما يتناول سير أبطال من التاريخ الإسلامي، وحكايات حماسية ترجع إلى فجر الإسلام، إضافة إلى قصص الأنبياء. أي أنه أدب يمكن أن نطلق عليه إسم التاريخ المقدس، وتضمن إلى جانب هذه الموضوعات، موضوعات عن الطب والسحر والنبوءات وتوجيهات تحض على الهرب من الجزيرة الإيبيرية، وتضمن أيضاً حكايات مثل قصة غراميات باريس وديانا، المستوحاة من الأدب المعاصر في ذلك الحين[1].

ويتبين أن هذه اللغة الجديدة، الخميادية تم تداولها بطريقة سرية مقتصرة على المسلمين فقط والمقربين من ذوي الثقة، ولعل هذا سر ندرتها، لأنها وفي ظل تلك الظروف، ظلت الرافد الأمين للتعاليم الإسلامية، بعيداً عن أعين المسيحيين ومحاكم التفتيش، حتى أن كثيراً من الإسبان كانوا قد نسوا أمرها وطووا صفحة المتابعات والزجر وانتهت حصص تعذيب الموريسكيين الذين بدأ أنهم استسلموا لقدرهم المحتوم وتنازلوا عن ديانتهم إلى حد ما وانغمسوا في المسيحية، لكنها عادت للواجهة إثر مصادفة غريبة قادت رجلاً كان يقوم بإصلاح بيته إلى اكتشاف اعداد هائلة منها، «ففي سنة 1301ه/1884م صدمت المفاجأة رجلاً كان يقوم بأشغال الإصلاح في منزله، في منطقة آلمونْاسيد ديلا سييرا Alomonacid de la sieraa بمنطقة أراغون، وبينما كان هذا يحاول هدم جزء من المنزل اكتشف منطقة خاوية تفصل السقف الحقيقي عن السقف الخشبي الوهمي، هذا الذي يتبدى للناظر، ليجد المئات من الكتب والمخطوطات، بالعربية والخيميادية، والتي ظلت

1 - غارشيا، أرينال، مرثديس، شتات أهل الأندلس، ص 144-143.

محفوظة بأمان بين السقفين دون أن يعرف بوجودها أحد»[1].

هذه هي الخميادية، تعود من جديد، وتطل من حيث لا نرتقب، من أسطح الناس ومن بين جدران بيوتهم ومن المخطوطات المدفونة في المكتبات الخاصة والعامة لتقول لهم أننا هنا، كان المسلمون الأندلسيون، القشتاليون والأراغونيون، ذات يوم، هؤلاء كانوا أصحاب الأرض، أبناء الجزيرة الإيبيرية، عانوا من أجل الحفاظ على دينهم وتقاليدهم الأندلسية، وابتكروا مخرجاً الخميادياً لحفظ تراثهم وعقيدتهم، وها هنا أيضاً، حدثت أكبر جريمة عرفها التاريخ، طرد جماعي وتطهير ديني وتمييز عنصري ونزوح وتعذيب للأبرياء وطرد شعب كامل من وطنه.



نموذج عن الكتابة الخيميادية

عمل معظم الموريسكيين المنتمين إلى الطبقة الاستقراطية على أخذ الثقافة القشتالية. فتعلموا القراءة والكتابة باللغة المذكورة. وصاروا يوقعون بالحروف اللاتينية. أما الفقهاء منهم فكانوا متمسكين بثقافتهم الإسلامية، يحفظون القرآن الكريم ويوقعون الوثائق الرسمية بالحروف العربية. أما سكان القرى من

1 - ربيرا، خوليان، Manuscritos Arabes y aljamiados de la bibliotica de la junta، نشر بيبلو بازار، مدريد، 2009، ص 6.

الموريسكيين فكانوا يجهلون اللغة القشتالية من حيث القراءة والكتابة والمحادثة[1].

فإن محاربة اللغة العربية، ومنع التخاطب بها كان قد سار في مسارات عدة بعد أن فطنت الحكومة الاسبانية والكنيسة إلى دور اللغة العربية في تدعيم وحدة العرب الموريسكيين وجمع شملهم، فقد صدرت وبعد مرور خمس وثلاثين سنة من التسليم، أي في عام 932هـ/1526م، وفي عهد الامبراطور شارلكان[2] قراراً يحرم على الموريسكيين التخاطب باللغة العربية[3]، وهذا القرار قد طُبق في الأماكن التي يقل فيها الموريسكيون، بينما الأماكن التي يكثرون فيها لم تطبق خشية من انتفاضتهم.

ولكن في عام 974هـ/1566م في عهد فيليب الثاني عُمم هذا القانون على كل الأرض الإسبانية بما فيها مناطق غرناطة وبلنسية حيث يكثر المسلمون فيها. إذ صدر قرار يضاف إلى القرار السابق: «يمنح الموريسكيين ثلاثة أعوام لتعلم القشتالية ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد منهم أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ اللغة العربية أو يتخاطب بها، وكل معاملات أو عقود تجري بالعربية تكون باطلة ولا يعتد بها لدى القضاء أو غيره»[4].

هذه القرارات ومجموعة قرارات أخرى غلب عليها طابع التعصب من قبل الكنيسة ضد الموريسكيين[5]، مثل قرار صدر في عام 1004هـ/1595م، حيث أمر فيليب الثاني: «تعلم اللغتين القشتالية والبلنسية، وأن تكتب التعاليم المسيحية باللغتين، كما تبعها مجموعة قرارات، أحدها الصادر في عام 979هـ/1571م

---

1 - قشتيليو، محمد، حياة الموريسكوس الأخير بإسبانيا ودورهم خارجها، ص 12.

2 - شارلكان: هو كارلوس الخامس هابسبورغ، ملك اسبانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة.

3 - المجلة العربية للثقافة، تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ادارة الثقافة، تونس، 1995م، عدد 27، ص 14، عبد الرحمن، جمال، الموريسكيون في اسبانيا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م، ط1، ص 28-27.

4 - عنان، اندلسيات، ص 160، ارينال، مرتيدس غارسيا، محاكم التفتيش والموريسكيون،ص 41.

5 - ارينال، المرجع نفسه، ص 44-41.

يتواصون بتشتيت الأقليات حتى ينسى أفرادها لغتهم العربية السيئة»[1]، ولكن الموريسكيين كانوا يتواصون بالحفاظ على اللغة، حيث ذكر ابن داوود الغرناطي: «من أضاع اللغة العربية فقد سُلِبَتْ سلطته...»[2].

وأخيراً كان انتصار الكنيسة وذلك بعد مرور أجيال وصدور الكثير من القرارات التعسفية، إذ ضاعت اللغة لدى الجيل اللاحق من الموريسكيين، بعد أن أجبر الجيل السابق على ذلك.

ان تضييق الفترة الزمنية لتعلم القشتالية وحصرها بثلاثة أعوام دفع العرب للاستعانة بالمترجمين لأنه لن يسمح بعد ذلك لأحد منهم أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ اللغة العربية أو يتخاطب بها. وكل المعاملات أو العقود التي تجري بالعربية تكون باطلة، ولا يعتد بها لدى القضاء أو غيره[3].

وذكر مؤرخون إسبان أن معظم موريسكيي المرية كانوا يجهلون اللغة القشتالية. فكانوا يسلمون وثائقهم لمترجم ليبين لهم مضمونها. وكان هذا هو مصدر عيش هؤلاء المترجمين. فكانوا يضعون مكاتبهم رهن إشارة من يريد ترجمة وثائقه كما هو الحال الآن مع المترجم المحلف.

لكن في أواسط القرن السادس عشر. بدأ الطلب يقل على الترجمة نظراً لكثرة العارفين باللغة القشتالية وبين هذه المرحلة وتلك مرت فترة كان الموريسكيون فيها يضعون إمضاءهم بلغة تسمى الخميادو[4].

ومما كتب المؤرخ «نيكولاس كابريانا» في هذا الصدد: إنه من المؤسف أن نرى أن اللغة العربية المستعملة في الكلام هي التي بقيت سائدة أما المكتوبة فقد اندثرت شيئاً فشيئاً بسبب منعها رسمياً خاصة مع مرور القرن السادس عشر بالرغم من أن الموريسكيين بقوا يوقعون بالحروف العربية حتى 936هـ/ 1529م. ومن هؤلاء: دييكو لوبيث البهاري وغيره كثيرون. ويضيف المؤلف

1 - ثقفان، الأدب الموريسكي، ص 36.
2 - عنان، نهاية الأندلس، ص 364.
3 - عنان، محمد عبد الله، اندلسيات، ص 160.
4 - قشتيليو، محمد، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ص 12.

نفسه: كانت هناك مدارس قرآنية سرية يدرس فيها بعض الفقهاء الحروف العربية وتعاليم القرآن ما كان يشكل دعامة لثقافة محظورة تعيش في المخابىء، أحرقت كتبها على يد الكاردينال ثيسنيروس، ونظراً لهذا وجد المسؤولون أيام فيليب الثاني صعوبة في ترتيب وتصنيف الكتب العربية في مكتبة الاسكوريال نظراً لندرة من كان يعرف اللغة العربية. وبالتالي يفهم مضمون الوثائق الآتية من الأقطار الإسلامية. وأصبحت اللغة العربية ينظر إليها كشيء غريب رغم أنها كانت السائدة من قبل في الأندلس.

ولكن هذه اللغة قد تمكنت من المسلمين الذين مكثوا في الأندلس أما أولئك الذين انتقلوا إلى موريتانيا، أو مختلف البلدان الافريقية الأخرى فقد تمسكوا بلغتهم ودينهم، وفي المقابل، فإننا نجد أن العربية قد شاعت بين المسيحيين، أولئك الذين يتجسسون على العرب المسلمين لصالح النصارى، أو هم قد تعلموها خشية من هذا العدو فكان أن تمكنت منهم العربية ومن أبنائهم[5]، قال كاروياك: «إن من أسباب توغل العربية في الأوساط المسيحية على الرغم من مكافحتها ومحاولة استئصالها هو دافع تأمين الذات من عدوّ متربص ومجاور، بقصد الاطلاع على أسرار العدو وتحرشاته، بالإضافة إلى دافع أمني يتمثل في تفشي الجاسوسية التي كانت تشجعها الكنيسة والمملكة على وجه الخصوص..» [6].

لقد تابعت الكنيسة مقاومة العربية[7]. وبعد مرور سنوات أصبحت العربية وأهلها من الماضي، واجتثت من الأندلس كما تجتث النبتة من أرضها بغير رحمة، فكان تساؤل الفقيه الأندلسي بقوله:

قلتُ يوماً لدارِ قومٍ تفانوا   أينَ سكانـكِ العزازُ علينـا؟
فأجابت هنا أقاموا قليلاً   ثمّ ساروا ولستُ أعلمُ أينا؟[8]

5 - تقفان، الأدب الأندلسي، ص 39.
6 - ارينال، الموريسكيون ومحاكم التفتيش، ص 38.
7 - ارينال، المرجع نفسه، ص 39.
8 - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 525.

ذهب اناس وجاء بعدهم أناس استولوا على الديار، بدين غير دين من كان، وبلغة غير لغة قوم كانوا، وهذا ما عبر عنه أبو العلاء الرندي[1]عندما قال:

هي الأمورُ كما شاهدتها دولُ   منْ سرهُ زمنٌ ساءتْه أزمانَ[2]

تأثيرات لغوية:

ترك الاشتقاق من العربية أثره القوي في اللغة القشتالية أي الاسبانية. واللغة الاسبانية هي اللغة اللاتينية الوحيدة التي توجد بين حروفها (الخاء) j, ge, gi، و (الثاء) z. ce. ci وتمثل في كلمات كثيرة، وذلك على غرار ما حصل في اللغة العربية. وتوجد في اللغة الاسبانية كلمات كثيرة ترجع إلى أصول عربية. ومن القواعد المسلم بها أن كل كلمة اسبانية تبدأ بـ (بأل AL) هي عربية الأصل تبدأ بأداة التعريف العربية[3].

وهذه نماذج من الكلمات الاسبانية التي ترجع إلى أصول عربية، ومنها ما هو رسم للكلمة العربية بالحروف اللاتينية، ومنها في التعابير النظامية:

القاضي Alcalde   الفارس Alferez   المشرف Almojarife

ومنها من أسماء الزهر والمحاصيل:

الزهر Alzahar   الزيتون Aceituna   الريحان Arravan

الأرز Arroz   الياسمين Jazmines   السكر azucar

ومنها من أسماء أصحاب الحرف:

البناء Albanil   البيطار Albeitar

---

1 - هو أبو البقاء صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن شرف الرندي الأندلسي، (684-601هـ/1204-1285م) من أبناء رندة، نظمها بعد سقوط عدد من المدن الأندلسية.

2 - ثقفان، الأدب الأندلسي، ص 40.

3 - عنان، محمد عبد الله، اندلسيات، ص 175.

ومنها كلمات أخرى متنوعة:

القنطرة Alcantra القصر Alcazar القرية Alqueria

القنديل Candil المخزن Almacen الخزانة Alacena [1]

فهذه نماذج قليلة من الكلمات الاسبانية المشتقة من أصول عربية، ويوجد في اللغة الاسبانية مئات بل الآلاف من هذه الكلمات[2]. فالإحصاء الذي قام به ماكسيم رودنسون لمعرفة الكلمات التي بقيت في اللغة الاسبانية بلغت 2500كلمة.

والعنصر العربي في اللغة الرومانثية الايبيرية يرجع إلى ضرورة ملحة تتعلق باستيراد الحاجيات التي هي ثمرة القدرات الانتاجية العربية المتفوقة، وتتعلق تلك الواردات اللغوية العربية بمناحي شتى في الحياة، تشمل الزراعة وتشييد المباني والفنون والحرف المختلفة والتجارة والعلوم وشؤون الحرب[3].

3 - مصير الكتب والمخطوطات

تعود ظاهرة إحراق الكتب إلى عهد الفونسو السابع (552-250هـ/-1126 1157م) حيث تعمد الجنود قتل جميع الأئمة في مدينة شريش[4]، وإحراق المساجد والكتب الدينية. ولكن هذه كانت مجرد البداية[5]. هذا وقد استخدم الاسبان النار لمساعدة الهراطقة والمرتدين والمذنبين على التوبة والخلاص الأبديين من خلال إحراق أجسادهم في الاحتفالات التي كانت تشهدها المدن الاسبانية الرئيسية، كذلك استخدموا النار لتطهير حضارتهم من التأثيرات الحضارية الأخرى لذا لم

1 - كاسترو، اميركو، إسبانيا في تاريخها، ترجمة علي منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م، ط1، ص 77-76، حلاق، حسان، تاريخ العلوم عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1995م، ص، 351.

2 - لوبون، غوستاف، حضارة العرب، تحقيق عادل زعيتر، الهيئة المصرية للكتاب، 1969م، ط1، ص 534، فراج، عز الدين، فضل علماء المسلمين، دار الفكر العربي، 1998م، ط1، ص 103.

3 - كاسترو، أميركو، إسبانيا من تاريخها، ص 76، عنان، محمد عبد الله، اندلسيات، ص 174.

4 - شريش Jerez de la Frontera: تقع بمنطقة قادس من منطقة الأندلس.

5 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 211.

يعرف العالم أمة أحرقت كتب غيرها من الأمم أكثر من إسبانيا، ففي غرناطة وحدها أحرق الاسبان أكثر من مليون مخطوطة عربية والآف المخطوطات الأندلسية المكتوبة بالحروف اللاتينية (Aljamiado)، كما أضرموا النار في ألوف الكتب العبرية التي وضعها المفكرون اليهود خلال العصر الذهبي الوحيد الذي عرفه التاريخ اليهودي في الأندلس العربية، وفي أعداد كبيرة من الكتب التي ألفها البروتستانت.

واستمر الاسبان بهذه الممارسات ونقولها إلى العالم الجديد، فعمد رجال الكنيسة 932ه/1562م إلى إحراق مخطوطات حضارة المايا[1]. فلم يبق منها اليوم سوى أربع مخطوطات هي كل ما استطاع أبناء تلك الحضارة إخفاءه عن عيون الرهبان وعمال محاكم التحقيق التي نشطت في العالم الجديد. وكان نجم التدمير الفكري الكاردينال خمينيس الذي أمر رجاله بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية، من أهالي غرناطة وأرباضها، ونُظمت أكداسٌ هائلة في ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة، وفيها كثير من المصاحف البديعة الزخرف، والاف من كتب الأدب والعلوم، حيث أضرمت فيها النار، ولم يستثنَ منها سوى ثلاثماية من كتب الطب والعلوم، حملت إلى الجامعة التي أنشأها في قلعة «هنارس»[2] وذهب ضحية هذا الإجراء الهمجي عشرات الألوف من الكتب العربية هي خلاصة ما تبقى من الفكر الإسلامي في الأندلس[3].

واستمرت مطاردة السياسة الاسبانية للكتب العربية بعد فعلة خمينيس، فجمعت منها خلال النصف الأول من القرن السادس عشر مقادير عظيمة أخرى، من غرناطة ومن مختلف القواعد الأندلسية القديمة، ولا سيما بلنسية ومرسية، حيث كانت لدى الموريسكيين والعرب المتنصرين منها مجموعات كبيرة. ولكنها

---

1 - الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 27.

2 - هنارس Alcala Hanares: تقع شمال شرقي مدينة المائدة الأندلسية.

3 - شاكر، الأندلس في التاريخ، ص 155.

لم تعدم ولم تحرق هذ المرة، بل لقيت سبيلها إلى المكتبة الملكية في الاسكوريال[1] أيام الملك فيليب الثاني[2].

وفي سنة 1021ه/1612م وقع حادث ترتب عليه مضاعفة المجموعة العربية بالمكتبة الملكية. وذلك أن اسطولاً إسبانيا بقيادة «دون بيدرو دي لارا»، فاجأ قافلة من السفن المغربية تصحب مولاي «زيدان الحسني»، وكانت من بينها سفينة مشحونة بالتحف، وبها نحو ثلاثة الآف كتاب من كتب الفلسفة والدين والأدب، فاستولى عليها الإسبان. وكان مولاي زيدان قد اضطر تحت ضغط خصومه أن يغادر عاصمة مراكش، وان يحمل معه كتبه وتحفه، فاستلبها الاسبان، وحملت غنيمة إلى قصر الاسكوريال، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الاسكوريال في أوائل القرن السابع عشر نحو عشرة الآف مجلد، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها في إسبانيا، وفي أوروبا كلها. ولكن محنة جديدة أصابت تراث الأندلس. ففي سنة 1671م شبت النار في الاسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد، ولم ينقذ منها سوى زهاء الفين هي التي ترقد اليوم في أقبية الاسكوريال[3].

ولم ينس ملوك المغرب الكتب الأندلسية، ولم ينسوا بالأخص كتب المكتبة الزيدانية التي نهبت قسراً في عرض البحر، فبذلوا في سبيل استردادها غير محاولة رسمية.

ففي سنة 1101ه/1690م أرسل مولاي اسماعيل عاهل المغرب الكبير، سفينة إلى كارلوس الثاني ملك إسبانيا ليقوم بمهمة مزدوجة هي الاتفاق على تبادل الأسرى، والعمل على استرداد الكتب العربية، فزعم الاسبان للسفير الوزير

---

1 - الاسكوريال: هو متحف مهم يقع على بعد 45 كلم شمال غرب العاصمة الاسبانية مدريد، بناه فيليب الثاني ملك اسبانيا، تتألف مجموعة مباني الاسكوريال من القصر الملكي، والدير، والكنيسة، والمتحف، وعدد من الابنية الصغيرة وتعدُ من أهم الصروح الملكية في أوروبا لضخامتها ومحتوياتها الفنية ومكتبتها الشهيرة.

2 - عنان، محمد عبد الله، اندلسيات، ص 169.

3 - عنان، محمد عبد الله، المرجع نفسه، ص 171.

محمد بن عبد الوهاب الغساني أن الحريق قد أتى على سائر الكتب العربية، واخفوا عنه ما تبقى منها، واكتفى بالإتفاق على تحرير الأسرى.

وتكررت المحاولة بعد ثمانين عاماً فبعث مولاي محمد بن عبد الله ملك المغرب في سنة 1179هـ/1766م، كاتبه أحمد بن المهدي الغزّال بسفارة مماثلة إلى كارلوس الثالث ملك الاسبان، تدور أيضاً حول تحرير الاسرى واسترداد الكتب العربية. واستطاع أن يحصل على قليل من الكتب العربية جمعت له من مدريد وغرناطة. ولكن الاسبان أخفوا عنه، كما أخفوا عن سلفه الوزير الغساني، حقيقة الأمر فيما يتعلق بمجموعة الاسكوريال.

وبلغ الاهتمام بالكتاب أوجه عند أبي عبد الله الذي حمل معه كتبه المفضلة «حملت معي من الحمراء كتبي المفضلة، وأخرى لم أقرأها بعد ، وقد جُلّد كثير منها بشكل أنيق بالجلد الأحمر أو الأزرق بحلقات من الفضة المنقوشة. لكن ما كنت أقدمه منها على غيره هي تلك المستخدمة والمهترئة بفعل لمس أيدي من سبقني بالمصادفة. لقد انتقل الكتاب كرسول، من قرن إلى قرن ومن بلد إلى بلد ومن إنسان إلى إنسان. إنه يضم ذاكرة العالم وكذلك نبوءته، تاريخ البشرية الغابر والتاريخ القادم الغائم. كل هذا مختصر ومتوقع في هذا السراج الذي يمضي من يد إلى أخرى مضيئاً الظلمة. فارتاحت هذه الكتب على الرفوف المهملة بعد العمل الدقيق الذي قام به من كتبوها ومن نسخوها وخاطوها وجلدوها....» [1].

واستخدم الناس أوعية كثيرة لكتابة الوثائق والكتب مثل الفخاريات والبردى والرق والكاغد حتى دخل الورق إلى الأندلس من الصين، كما يبدو، فتطورت صناعته وكانت مدينة شاطبة من أهم مراكز صناعة الورق. وضاعت خلال مراحل تقدم الممالك الشمالية نحو الجنوب الأندلسي مخطوطات مشهورة كثيرة نعرف عنها من ذكر مؤلفين محدثين لها، إلا أن ما توافر نُقل إلى المناطق الخاضعة للأندلسيين واستقر معظمها في غرناطة حيث أضاف المؤلفون

---

1 - غالا، انطونيو، المخطوط القرمزي، ص 437.

الغرناطيون إليها عشرات المؤلفات التي وضعها علماؤها وشعراؤها وأطباؤها. وتعطي المخطوطات الموجودة في المكتبات العربية والأوروبية، بما فيها مكتبة الإسكوريال الملكية الإسبانية، فكرة واضحة عن مدى تقدم صناعة الورق ومهنة الوراقة في الأندلس، وكان النسخ فناً ومهنة برعت فيهما النساء الأندلسيات خاصة[1].

واكتشف خمينيس خلال وجوده في غرناطة أن المسلم يخرج من عنده فيذهب إلى بيته ويقرأ القرآن ويعود إليه بتصميم جديد على رفض التنصّر. ولاحظ خمينيس أن حمل الأندلسيين على التنصر يقتضي قطع مؤنتهم الدينية والفكرية، وأن قشتلتهم لا يمكن أن تتحقق إلا بقطع ارتباطهم بتراثهم وحضارتهم، وأن تعلم اللغة القشتالية لن يصبح ممكناً ما لم يحرمهم من العربية[2]. ويقول المؤرخ الأميركي وليم بيرسكوت: «إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجي جاهل، وإنما حبر مثقف، وقد وقع لا في ظلام القرون الوسطى، ولكن في فجر القرن السادس عشر، وفي قلب أمة مستنيرة، تدين إلى أعظم حد بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها»[3].

ثم يشير إلى ماترتب على هذا العمل بقوله:

«لقد غدت الآداب العربية نادرة في مكتبات نفس البلد الذي نشأت فيه، وإن الدراسات العربية التي كانت من قبل زاهرة في اسبانيا، حتى في العصور الأقل لمعاناً، انهارت لأنها عدمت غذاء يقويها، وهكذا كانت النتائج المخزية للمطاردة الأدبية، التي يراها البعض أشد تقويضاً من تلك التي توجه إلى الحياة ذاتها»[4].

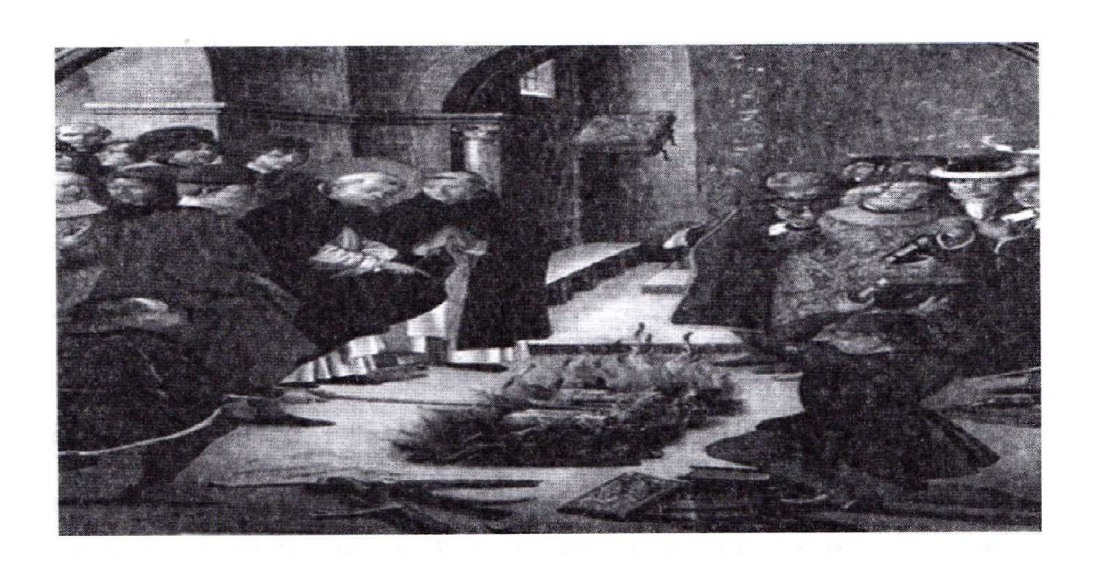
---

1 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 133.

2 - لين، بول، العرب في اسبانيا، ترجمة علي الجارم، دار المعارف، القاهرة، 2000م، ط1، ص 270.

3 - Prescott.W: History of Ferdinand and Isabella the Catholic, London, 1855. P453-454

4 - عنان، نهاية الأندلس، ص 319.



إحراق المصاحف في ساحة الرملة

4 ـ العلماء الشهداء

أقبل العلماء على الجهاد والاستشهاد، وابلوا بلاءً حسناً في ميادينه كافة لأسباب عدة أهمها:

ـ **لعلمهم أن الجهاد واجب على كل مسلم**، لقوله تعالى:[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**] [1]، وقوله تعالى: [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ**] [2]. وبرز دور العلماء منذ عهد دولة المرابطين والموحدين.

أ ـ مشاركة العلماء في القتال ضد النصارى في عهد مملكة غرناطة (897-535هـ/1492-1240م)

ـ معركة طريف

حدثت معركة بحرية في (740هـ/1339م) انهزم فيها المسلمون، واشتركت فيها قوات من قشتالة وأرغون والبرتغال، وقد بارك البابا هذه الحملة، حيث دخلت

1 ـ سورة الأنفال، أية 45.

2 ـ سورة الأنفال، أية 15.

جيوشهم مملكة غرناطة[1]، عندها استنجد سلطان بني الأحمر بالأخوة المرينيين، فعبر سلطانهم إلى الأندلس، ووقعت معركة بين الطرفين عام (741هـ/1340م)، استعمل فيها المسلمون المدافع التي تقذف النيران[2]، ولكنهم خسروا المعركة، وعاث الأسبان فساداً في المعسكر الإسلامي وغنموا ما فيه. هذا وقد وقعت هذه المعركة قرب «طريف»[3]، ولذا عرفت بواقعة طريف[4]، وعلى أثرها عقد السلطان المريني أبو الحسن الصلح مع النصارى، ووضع قواعد لافتكاك الأسرى[5].

وقد حضر هذه المعركة عدد من العلماء والأكابر والأعلام، الذين استشهد بعضهم، وممن استشهد: أبو محمد عبد الله بن سعيد السلماني، والد لسان الدين بن الخطيب[6] الذي يقول: «حدثني بالمسجد الجامع من غرناطة الفقيه أبو عبد الله ابن اللوشي قال: كبا بأخيك الطرف، وقد غشي العدو، وجنحت إلى إردافه، فانحدر إليه والدك، وصرفني، وقال أنا أولى به، فكان آخر العهد بهما»[7].

ومن رثاء والد لسان الدين ما نصه:

خَطبٌ ألمَّ فأذهَبَ الأخَ والأبا غَمّاً لأنفٍ شَاءَ ذلكَ أو أبى

قَدَرٌ جرى في الخلقِ لا يجدُ امرؤٌ عمّا به جرتِ المقادرُ مَهربا

وممن استشهدوا في واقعة طريف، القاضي أبو عبد الله محمد بن يحيى الأشعري المالقي، الذي تميز بحسن الخلق وحبه للعلم والعلماء والشجاعة عند

---

1 - الناصري، الاستقصا، ج3، ص 136.
2 - ابن العماد، شذرات، ج6، ص 127.
3 - طريف: مدينة تقع بالقرب من جبل طارق.
4 - ابن خلدون، تاريخ، ج4، ص 174.
5 - المقري، نفح الطيب، ج5، ص 413.
6 - المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 187.
7 - المقري، المصدر السابق، ج5، ص 12.

اللقاء[1]، وقد أشار على الأمير أن يكثر من قول «حسبنا الله ونعم الوكيل»، وقد كتف دابته التي كان راكباً عليها، وهو رابط الجأش مجتمع القوى[2] وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يقدر، وقال له: انصرف هذا يوم الفرح إشارة لقوله تعالى ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[3]، وذلك سنة (741هـ/1340م) رحمه الله تعالى[4]. كذلك واستشهد عالم الفرائض أحمد بن أحمد بن خلف، والمحدث أحمد بن ابراهيم بن بصلة بن عبد الله ابراهيم الأنصاري بظاهر جبل الفتح عام (734هـ/1333م)[5]، والفقيه المقرىء أبو الحسن الأنصاري الخزرجي، بظاهر غرناطة وقد قارب السبعين[6].

هذا وقد بادر عالم من علماء مدينة «بلش»، ويعرف باسم «ابراهيم السانتو» ومعه أربعمائة رجل لمساعدة أهل مالقة، واقتحموا جنود قشتالة المحاصِرين، واستطاع مائتان منهم اقتحام الحصار ودخول المدينة، ولما أقدم النصارى على الهجوم، أقدم السانتو على حيلة، إذ سجد ومكث على سجوده حتى أسره المهاجمون، وجاؤوا به إلى أميرهم، فقال له القائد القشتالي: اسألوه ما شأنه؟ فأجاب: أنه ولي من أولياء الله وعنده سر يريد أن يبوح به للملك، وهو يظن أن هذا القائد هو الملك، فلما قربوه هجم عليه بخنجر معه كان يخفيه، فقتله ثم هجم على زوجته وهو يظنها ايزابيلا فهجم عليه الحراس فقتلوه، ثم رموا بجثته على المسلمين فدفنوه[7]. ويبدو واضحاً أن ما قام به هذا العالم عملية استشهادية،

---

1 - ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 177.
2 - النباهي، المرقبة العليا، ص 147-146.
3 - سورة آل عمران، الآية 171.
4 - ابن الخطيب، المرجع السابق، ج2، ص 177.
5 - ابن حجر، الدرر، تحقيق محمد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م، ط2، ج2، ص 102.
6 - ابن الأبار، المعجم، دار صادر، بيروت، 1885م، ج1، ص 282.
7 - السويدان، طارق، الأندلس التاريخ المصور، شركة الابداع الفكري، الكويت، 2005م، ط1، ص 460.

استهدفت ملك النصارى وزوجته، ولكنها وإن أخطأتهم فقد أصابت أحد قوادهم، فلقي الله شهيداً.

عندما استسلم أبو عبد الله الصغير، وسلم آخر حصن إسلامي في الأندلس، رفض الأمير موسى (897هـ/1491م)، وقرر الجهاد، فهو لا يحتمل فكرة الاستسلام، وعندما لم يجد موسى بن أبي الغسان صدى لكلماته المنيرة، فما كان منه إلاّ أن غادر المجلس مخترقاً بهو الأسود في قصر الحمراء، فذهب إلى داره، وأخذ سلاحه، وامتطى صهوة جواده مخترقاً شوارع غرناطة التي احتلها الاسبان، وبالقرب من نهر شنيل واجه موسى بن أبي الغسان مجموعة من الفرسان الاسبان تقدر بحوالي الخمسة عشر، فطلبوا إليه أن يقف، ويعرف عن نفسه، فما كان منه إلاّ أن انقض عليهم وأخذ يمزقهم شر تمزيق... فظل يقاتل بمفرده حتى سقط شهيداً في مياه نهر شنيل، بعد أن دفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق[1].

ويبدو أن موسى كان يقرأ مكنونات صدور النصارى حين قال: «لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نمشي، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش والتعصب الوحشي والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والانطاق والمحارق» وكأنه يقرأ التاريخ، وكأنه يقرأ ما حدث بعده بسنوات معدودة. وردد أثناء الحصار قوله: «ان علينا الدفاع عن الأرض التي تحت أقدامنا لأنه إذا لم تبق لنا ذهب ملكنا ومحيت اسماؤنا»[2].

وممن تبقى من فقهاء المسلمين في غرناطة إختار خمينيس كبيرهم الشيخ الصقري[3] الذي طلب منه فتوى بجواز ترك الإسلام إلى النصرانية، مقابل مبلغ كبير، لكنه قال: «هذه الفتوى لا تصدر مني أبداً لو اعطيتني كل ما في خزائن

1 - الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، ص 52.

2 - أرسلان، شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، دار الحياة، بيروت، 1983م، ط1، ص 262.

3 - رائف، أحمد، وتذكروا في الأندلس الابادة، ص 323.

الملكين الكاثوليكيين»[1]. فقد تعرض الشيخ الصقري للضرب بالسوط ووضع في القبو، وجلد ثلاثماية جلدة، ليعلن نصرانيته. لكن أبى ويُروى أن:

- الكونت تنديلا دخل على خمينيس، وسأله ماذا فعلت بالشيخ الصقري؟
- قال الكاردينال هادئاً:
- رفض الإيمان بالمسيح فذهب إلى الجحيم[2].

هـ الأوضـاع السيـاسيـة

1 - العوامل الداخلية المؤثرة في سقوط غرناطة

عرفت إسبانيا المسيحية نهضة حربية وسياسية كبرى، وتوجت تلك النهضة بزواج الملك فرناندو الثالث ملك أراغون بايزابيل ملكة قشتالة873هـ/1469م، وبهذا اتحدت الدولتان بعد أن ظلتا في نزاع وحروب مستمرة. وكان هذا يعني بداية النهاية لمملكة غرناطة الإسلامية، فقد كان بقاء هذه المملكة في الواقع يعود في حد كبير إلى استغلالها لهذا النزاع بين المملكتين. وبدأ هذان الملكان يعملان على إنهاء الوجود الإسلامي من شبه الجزيرة نهائياً، ولما شعر سلطان غرناطة أبو الحسن (890-865هـ/ 1485-1461م) بهذا الأمر امتنع عن دفع الجزية لقشتالة[3].

بدأت المناوشات بين الجانبين وأغار القشتاليون على (الحمة – Al hama)، في شباط عام 887هـ/ 1482م[4]. وزاد من سوء موقف غرناطة اشتعال الحرب الأهلية بين أبنائها، وخلافات زوجات السلطان أبي الحسن على

---

1 - رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة، ص 325.
2 - المرجع نفسه، ص 329.
3 - سويدان، الأندلس التاريخ المصور، ص 451.
4 - مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص 6.

السلطة[1]. وفي عام887هـ/1483م وقع السلطان أبو عبد الله محمد أسيراً في يد الاسبان بعد هزيمته في موقعة Lucena ثم أطلقوا سراحه وعاد إلى غرناطة بعد أن أملوا عليه كل شروطهم، وهناك قام بمواصلة الحرب ضد والده أبي الحسن الذي سرعان ما توفي، وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد الملقب بالزغل عام890هـ/1485م[2].

وانتهز الاسبان فرصة هذه الفتن التي اشتعلت بين الزغل وابن أخيه وقاموا بالاستيلاء على بعض المدن مثل رندة ولوشة ومالقة. فاتفق زعماء المسلمين درءاً للفتنة، على اقتسام ما بقي من غرناطة بين العم وابن أخيه. هذا وقد أرسل الاسبان إلى الزغل يعرضون عليه وعلى قادته مالاً جماً مقابل تسليم ما تحت يده من أراضٍ، فضعفت نفسه، ووافقهم على رأيهم، ورحل إلى فاس، وهناك قام سلطان المغرب بسجنه ومصادرة أمواله وسمل عينيه. وهكذا أصبح أبو عبد الله وحيداً في الميدان، وبعث إليه فرناندو يطالبه بتسليم غرناطة، ولكنه رفض وصمم على القتال[3].

وفي عام896هـ/1491م أقدم فرناندو على حصار غرناطة وإفساد زراعتها، وأنشأ أمامها مدينة (سانتا في) وتعني الإيمان المقدس، ليتخذها قاعدة لعملياته العسكرية[4].

ومن الجدير بالذكر أن الملكة ايزابيل كانت تعاني من الفوضى والفساد في مملكتها، ووجدت أن أفضل وسيلة لصرف أنظار الناس هي إشغالهم بمحاربة المسلمين في مملكة غرناطة. إذ كانت تطمح أن يقترن اسمها في التاريخ، بإخراج المسلمين من إسبانيا. ولكن كانت تواجه مشكلتين تحول دون تحقيق هذه الأمنية الغالية عليها:

---

1 - المقري، نفح الطيب، ج6، ص 262.

2 - العبادي، عبد الحميد، المجمل في تاريخ الأندلس، ص 192.

3 - مظهر، علي، محاكم التفتيش، في اسبانيا والبرتغال، ص 14-15.

4 - حومد، اسعد، محنة مسلمي الأندلس، ص 130.

1 ـ وجود معاهدة بين مملكتي قشتالة وغرناطة.

2 ـ حالة المملكة الاقتصادية والمالية.

طلبت الملكة من زوجها الإنضمام إليها في تنفيذ المخططات التي كانت تحلم بها منذ زمن بعيد. واعلمته بأنها ستعمل على توفير المال اللازم من المصادر التالية:

أ ـ فرض ضريبة على المدجنين مقدارها دوكا واحدة عن كل رأس.

ب ـ الطلب من محاكم التفتيش أن تدفع لخزينة الدولة مجموع الغرامات والمصادرات التي ستقضي بها.

ج- التدخل لدى البابا، ليحمل الكنيسة على ان تتنازل لخزانة إسبانيا، عن ثلث حصتها من العشر.

لبى الملك رجاء الملكة، وأخذا يعملان مع البابوية من أجل حصة الكنيسة، ومن أجل إعلان الحرب التي يريدان شنها على المسلمين. أصدرت البابوية نداء لمساعدة الملكين الاسبانيين في حربهما المقدسة ضد المسلمين، وبيعت صكوك الغفران في جميع أنحاء إسبانيا[1].

وبطبيعة الحال فإن السكان العرب، عانوا الأمرين، وفرض عليهم افتداء أنفسهم، فإن لم يدفعوا، كان يحق للملك أن يشتريهم[2]. إن هذه الأحداث كانت تثلج قلوب الاسبان وكل المتربصين بالأمة العربية والإسلامية، لقد كانت أحداثاً مؤسفة نظراً لما كرسته من تجزئة وانقسام قادا إلى ضياع سلطان العرب في الأندلس. ولم يبق سوى غرناطة آخر معقل عربي إسلامي، وعلى مسافات منها يحيط بها الاسبان منتظرين الفرصة السانحة للانقضاض عليها[3].

ان العرب لم يخرجوا من الأندلس في عام897هـ/1492م يوم سقوط غرناطة، إنما بدأ مع مرحلة الانقسامات والولاءات المتعددة، خلال عصري

1 ـ الكونت سيركور، تحت السيطرة المسيحية، باريس، 1846م، ص 314.

2 ـ المرجع نفسه، ص 313.

3 ـ الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، ص 50.

المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس والذي أدى إلى تبعثر الأمة الأندلسية وتحللها إلى طوائف وملوك ودويلات تتنازع فيما بينها مما أدى بالنتيجة إلى قيام الممالك المعادية مثل قشتالة وليون.

وسط هذه المحن استطاع فارس عربي أندلسي هو محمد بن الأحمر من بني نصر أن يعتصم في غرناطة ليجمع شمل المسلمين الذين سقطت مدنهم تباعاً. لقد حصّن غرناطة والمناطق المحيطة، واستطاع أن يتصدى للهجمات الاسبانية، وفي هذه المنطقة صمدت الدولة العربية الإسلامية في غرناطة قرنين ونصف القرن حتى تمكن منها الاسبان[1].

إضافة إلى ذلك خطأ تقدير الظروف الدولية والخاصة، عندما أقدم أبو الحسن علي بن سعد (890-868هـ/ 1483-1463م)، على التحول بسياسته من الدفاع إلى الهجوم، فامتنع عن دفع الأتاوة لملك قشتالة حين رفض هذا تجديد الهدنة معه وقال لرسوله: «قل لمولاك أن ملوك غرناطة الذين اعتادوا دفع الأتاوات قد ماتوا وإن دار السكة بغرناطة لا تسك الأن ذهباً أو فضة وإنما سيوفاً ورماحاً. ويقولون إن فرناندو غضب حين سمع ذلك وقال «غرناطة غرناطة!» سوف انتزع حباتك حبة حبة»[2]. وكانت خطوة سريعة تجاه السقوط النهائي[3].

2 ـ دور الكنيسة البابوية في سقوط غرناطة

حاول لويس التاسع احتلال تونس سنة 668هـ/1270م ولكنه أصيب بالطاعون وجيشه، وانتهت بذلك الحملة الصليبية السابعة وتوقف المدد عن الصليبيين في المشرق. وما إن جاءت سنة690هـ/ 1291م حتى استعاد المماليك عكا، وتخلت القوات الصليبية عن بيروت وصيدا وصور. ولكن الممالك الصليبية استمرت في قبرص حتى سنة894هـ/1489م، وفي جزيرة رودوس حتى

1 ـ الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، ص 12.

2 ـ غرناطة بالإسبانية تعني ثمرة الرمان.

3 ـ شاكر، الأندلس في التاريخ، ص 150.

سنة929هـ/1523م عندما أخرجهم الأتراك منها فارتحلوا إلى مالطة. وبانتهاء القرن الثالث عشر الميلادي أسدل الستار على الحملات الدينية المشرقية دون التمكن من الاحتفاظ بموطىء قدم واحدة. أما في الغرب فقد تمكنت الممالك الشمالية في الأندلس من حصر السيطرة الإسلامية على الجزء الجنوبي من الأندلس، واخضعت مملكة غرناطة للجزية، ولم يعد هناك مسوغ لوجود تلك الجيوش الجرارة، وضعف الاهتمام بالفرق التي لعبت دوراً مهماً في الحروب السابقة ضد الأندلسيين، وتفرغت الممالك الشمالية للاقتتال فيما بينها، وهزل شأن الملوك وقد نازعهم النبلاء على السلطة[1].

استمر هذا الوضع حتى اعتلت الملكة ايزابيلا عرش قشتالة سنة 879هـ/1474م، فسعت إلى تثبيت حكمها عن طريق توجيه جهود الدولة ضد المملكة الإسلامية الجنوبية، وكان زواجها من فرناندو الخامس اتحاداً شخصياً بين قشتالة ومملكة أراغون، التي ورثها الزوج بعد خمس سنوات من وراثة زوجته لعرش قشتالة. وباتحاد أقوى مملكتين في شبه جزيرة ايبرية، أصبح من العسير على مملكة غرناطة الاستمرار كوجود مسلم في وسط مسيحي لا يعرف إلا الحرب سبيلاً إلى توحيد الكلمة والثراء.

بينما في المشرق كانت التطورات تتجه نحو تجدد تأجج المشاعر الدينية نتيجة انتصارات العثمانيين في أوروبة، إذ استولى السلطان محمد الثاني على القسطنطينية سنة 857هـ/1453م واتبعها باخضاع 12 مملكة و 200 مدينة أوروبية. كل هذا حدث في أعقاب انتهاء سلطة البابوية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر وانتقال الكرسي البابوي إلى "افنيون"[2] في فرنسا حتى قبل البابا غريغوريوس العاشر[3] العودة إلى روما سنة 779هـ/1377م، واتخاذ الفاتيكان

1 - بشتاوي، عادل، الاندلسيون المواركة، ص 66.

2 - افنيون: منطقة في فرنسا.

3 - غريغوريوس العاشر (1276-1271م): انتخب في 14 اذار 1272م، دامت بابويته أربع سنوات.

حاضرة له. ولكن هذا لم يُعد للبابوية هيبتها، فخضعت الكنيسة لموجة علمنة وسادت الهرطقة والانقسام، حتى تعاقب على الفاتيكان الباباوات المعروفين باسم باباوات عصر النهضة، وانهمك هؤلاء في جمع الكتب أو تشجيع الفنون والآداب والعمارة مثل البابا سيكستوس الرابع (889-876هـ /1484-1471م) [1]، ولكن هذا لم ينقذ الكنيسة من التقوض الذي كانت تسير نحوه[2].

وعندما تلقى البابا سيكستوس الرابع من الملكة ايزابيلا رسالتها التي تعرض فيها خطة لإنهاء مملكة غرناطة، أبدى حماساً شديداً لعل ذلك يرفع من شأن البابوية، وأصدر إرادة بابوية خاصة بشن حملة صليبية (كروثادا) ضد الغرناطيين في الثالث عشر من تشرين الثاني سنة 884هـ/ 1479م وتضمنت هذه الإرادة السماح لايزابيلا وزوجها فرناندو بتحصيل ضريبة الجهاد ضد المسلمين لتأمين المال اللازم للقتال رغم أن ايزابيلا حصلت على مبالغ طائلة من الدائنين اليهود والايطاليين، لتمويل الحرب التي اندلعت ضد غرناطة بعد سنتين من اصدار الارادة التي جددت في السنة ذاتها. وبعد وفاة سيكستوس جاء «انوصان الثامن» 889-897هـ/1484-1492م[3]، فاستكمل ما بدأه سلفه بإحياء الارادة البابوية الخاصة بالحملة على غرناطة سنة 890هـ/1485م. ولكن الحرب طالت أكثر من المتوقع، فأصدر البابا انوصان في الأول من تشرين الأول سنة896هـ/1491م تجديداً للارادة السابقة مدة سنة تالية وأخيرة. ولم تمض ثلاثة أشهر حتى كان جيش ايزابيلا وفرناندو قد دخل غرناطة بعد استسلامها. وكتب فرناندو إلى البابا يبشره بسقوط غرناطة وانهاء آخر وجود إسلامي سياسي في شبه جزيرة ايبرية يقول فيها: «ولدك المطيع المخلص ملك قشتالة وليون واراغون وصقلية

---

1 - سيكستوس الرابع (889-876هـ /1484-1471م): نُصّب بابا 25 آب 1471م، فترة بابويته 13 سنة.

2 - التواني، عبد الكريم، مأساة انهيار الوجود العربي، مكتبة الرشاد، الدار البيضاء، 1967م، ص 544.

3 - انوصان الثامن 889-897هـ/1484-1492م: نُصب على الكنيسة في 12 أيلول 1484م، دامت مدة ولايته سبع سنوات.

وغرناطة..يقبل قدميك ويديك الطاهرتين خالصتي الطهارة..يبشرك بأن ربنا أنعم علينا بنصر مبين على أندلسيي غرناطة أعداء ديننا الكاثوليكي الطاهر وتم في هذا اليوم الثاني من كانون الثاني سنة اثنتين وتسعين استسلام مدينة غرناطة مع الحمراء وكل القوات مع القلاع والحصون»[1].

ويبدو أن الدعم الذي قدمته الكنيسة لإنهاء الوجود الإسلامي في شبه جزيرة ايبرية استمر في مراحل لاحقة بعد نقل الحرب إلى الشمال الافريقي، وبقيت الضريبة المعروفة باسم ضريبة الجهاد (الكروثادا) مفروضة حتى باتت في القرن السادس عشر المصدر الثاني لدخل الدولة. ولقد أسهمت الكنيسة في إنهاء الوجود السياسي الإسلامي في شبه جزيرة إيبرية ولكنها فرضت النصرانية على الأندلسيين الذين اختاروا البقاء في أراضيهم بعد سقوط غرناطة. وعرفوا فيما بعد باسم المواركة (الموريسكيين). أما الطريقة التي وظفت لتحقيق هذا التنصير فكانت في استخدام أساليب تعذيب طورها الجهاز المعروف باسم محاكم التفتيش[2].

وفي القسم الأخير من القرن الخامس عشر كان القتل الجماعي والنفي الشامل وتجاهل الوعود أساليب شائعة في وسط متعصب تحكمه ملكة متعصبة وتسوده الروح الصليبية العالية[3].

1 - شاكر، مصطفى، الأندلس في التاريخ، ص 148.
2 - بشتاوي، عادل، الأندلسيون المواركة، ص 69.
3 - بشتاوي، عادل، المرجع نفسه، ص 214.

الفصل الثاني

أوضاع الموريسكيين في ظل الكثلكة

1 - بداية المحنة
2 - ايزابيلا والكاردينال خمينيس
3 - الثورات
4 - الموريسكيون يمارسون الطقوس الإسلامية سراً
5 - محاكم التفتيش – الجذور التاريخية
6 - ديوان التفتيش
7 - إجراءات محاكم التفتيش
8 - أساليب التعذيب وأدواته
9 - نماذج من التهم المنسوبة للموريسكيين
10 - المطاردة خارج الأندلس
11 - الموريسكيون في عهد شارل الخامس
12 - الموريسكيون في عهد فيليب الثاني

1 - بدايـة المحنـة

استمرت محنة المسلمين في الأندلس رغم زوال سلطانهم السياسي ورحيل سلطانهم إلى المغرب، حيث نقض الملكان الكاثوليكيان العهد. ووضعا خطة إبادة للمسلمين الباقين في الأندلس، فشكلا محاكم التفتيش التي تتعقب من يؤدي شعائر الإسلام بأية صورة، فكان من جراء ذلك أن أظهر عدد من المسلمين المسيحية وابطنوا الإسلام، وأطلق على هؤلاء اسم (الموريسكيون) أي المسلمون الصغار. وقد بقي هؤلاء يقاومون الاضطهاد ما يزيد على القرن من الزمن دفاعاً عن عقيدتهم وكيانهم[1].

فقد أيقن المسلمون أن عصر الفرسان والحصون بدأ بالأفول بوصول المدفعية. لتطلق حِممها من بعد آمنٍ بديلاً عن المواجهة المباشرة والنزال. فاستلم المعركة مهندسون، وصار هذا السلاح الفتاك عاملاً هاماً في المعارك ضد المسلمين، فأخذ فرسان المسلمين يرثون لحالهم ويقولون: «ماذا تفيد شجاعة الفرسان في وجه هذه الآلة الجبانة التي تقتل من بُعد!» [2].

وكانت أول ظاهرة لافتة للنظر بعد رحيل السلطان أبي عبد الله الصغير إلى عدوة المغرب، بدء مسلمي الأندلس بالهجرة من الأندلس إلى المغرب كما جاء في شروط التسليم التي سهلت لهم هذه المهمة وهي إعتبار الملكين الإسبانيين ملزمين بتوفير السفن لنقل مسلمي الأندلس إلى المغرب مجاناً ولمدة ثلاث سنوات، وبعدها

1 - عنان، قصة كاتب موريسكي، مجلة العربي، العدد 131، ص 52.

2 - رستن، جيمس، محاكم التفتيش في اسبانية، ترجمة مجير العمري، دار السيد، السعودية، 2009م، ط1، ص 177.

يدفع من يريد العبور دوبلاً واحداً عن كل شخص[1]. فأول من هاجر أهل مالقة الذين نزحوا إلى «باديس»[2]، وخرج أهل المرية ونزلوا مدينة «تلمسان»[3]، ونزل أهل الجزيرة الخضراء في «طنجة»[4]، واستقر أهل رندة وبسطة وحصن مرتيل في «تطوان»[5] وأحوازها..... الخ من مدن المشرق[6].

صدرت الأوامر بتعميم مضمون معاهدة التسليم على الأمراء والوزراء والقادة والرهبان والرعية. وكذلك أصدر مرسوم يهدد كل من يجروء على المساس بما تضمنته هذه المعاهدة. وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين وتوقيع نجلهما الأمير، وحشد كبير من الأمراء وأشراف الدولة وأحبارها. وأدى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا وسائر من حرروا شروط القسم بدينهم واعراضهم، أن يصونوا المعاهدة إلى الأبد، وعلى الصورة التي انتهت إليها[7]. يتبين لنا من شروط المعاهدة أنها كفلت للمسلمين حريتهم ولغتهم وشعائرهم وعاداتهم وتقاليدهم، باستثناء حمل الأسلحة. ولكن الذي يبدو أن الملكين الإسبانيين لم يكونا صادقين فعلاً[8]. حيث بدأ تعصبهما ونقضهما للمواثيق منذ دخولهما غرناطة (3 ربيع الآخرة 897ه/ 2/كانون الثاني 1492م)، إذ صدرت الأوامر بإحراق كميات كبيرة من الكتب العربية لكي يسهل على الإسبان إبعاد المسلمين عن مصادر عقيدتهم ومن ثم القضاء عليهم بسرعة[9].

ومن أول الخطوات التي رسمتها الملكة إيزابيلا المتعصبة من أجل تنفيذ

---

1 - رائف، أحمد، محنة العرب في الأندلس، ص 220.

2 - باديس: مدينة ساحلية تقع في شمال المغرب.

3 - تلمسان: مدينة في شمال غرب الجزائر.

4 - طنجة: مدينة مغربية تقع شمال المملكة المغربية على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

5 - تطوان: مدينة مغربية يُطلق عليها لقب الحمامة البيضاء، والسبب وجود تمثال لحمامة بيضاء اللون متموضع في وسط المدينة، وهي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

6 - حتاملة، محمد عبدة، محنة مسلمي الأندلس، ط1، ص 76-75.

7 - مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص 44.

8 - أمين، أحمد، ظهر الإسلام، ص 312.

9 - رائف، أحمد، وتذكروا من الأندلس الإبادة، ص 336-335.

سياسة التنصير القسري للمسلمين، أنها اعتمدت على مجموعة من الأحبار والرهبان، ومنحتهم مناصب في البلاط الملكي[1]، وهم:

1 - دي مندوسا كونت تنديا، وهو القائد الأول لغرناطة.

2 - والأب إيرناندو دي تالافيرا مطران غرناطة.

3 - والأب خمينيس ثيثنيروس مطران طليطلة.

وإذا كانت الممالك الإسبانية قد اضطهدت المدجنين (المسلمين الذين ظلوا على دينهم) خلال استردادها القواعد الاندلسية قبل سقوط غرناطة، إلا أنه بعد السقوط أصبح الأمر أكثر خطورة فحرموا من حمل السلاح، وفرضت عليهم الضرائب دون غيرهم من السكان وأيضاً حَرمت المدجنين المقيمين في مملكة غرناطة من شراء الأراضي والعقارات، وذلك لتسهيل تفريقهم بالقوة، وتوطين الاسبان في أماكنهم، ومزج العناصر الإسلامية بالعناصر المسيحية، لكي يفقدوا كل ما لديهم من مقومات وجودهم من شعائر دينية ولغة عربية. وبلغ بهم الأمر أن أصدروا مرسوماً يحرم على مدجني الأندلس ونسائهم وأطفالهم ، أن يغتسلوا، أو يستحموا في أي مكان خصص لهذه الغاية، وأن تهدم جميع الحمامات العامة التي كانت منتشرة في جميع أنحاء غرناطة[2].

منذ اللحظة الأولى لدخول الاسبان غرناطة، تم توزيع مساحات شاسعة من الأراضي على النبلاء الإسبان، فأصبح ملاكوها المسلمون اتباعاً للنبلاء هؤلاء. وفي عام 903ه/1498م أجريت عملية عزل للعناصر الإسلامية عن المجتمع الاسباني، ووضعوا في أماكن معينة، والسبب تسهيل السيطرة والقضاء عليهم

---

1 - CARO BAROJA (Julio) Los Moriscos del reino de Ganada. Madrid,1976, Segunda ecticion, Capt.1 pags 42-47

حتاملة، التنصير القسري، ص 60، عنان، تراث الأندلس الفكري، مجلة العربي، العدد 99، ص 106.

2 - DOMINGUEZ ORITZ (Antonio): Historia de los Moriscos, Viday Tragedia de una minoria, Madrid, 1978, Cap. I, page 18

في حال الثورة[1].

رغم السياسة التعسفية التي رافقها إحراق خمينيس للكتب العربية، إلاّ أنه عُيّن رئيساً لديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي (محاكم التفتيش)، والذي تأسس في إسبانيا منذ القرن الثالث عشر الميلادي[2]. فقد أقام الملكان الكاثوليكيان محاكم التفتيش أولاً في اشبيلية عام 884هـ/1480م وفي جميع المدن الأندلسية التي سيطروا عليها، ويمكن القول أن هذه المحاكم كانت سلاحاً فتاكاً بيد الكنيسة تسحق به كل من لم يذعن لأوامرها[3].

لقد تعرض الموريسكيون لصنوف القمع والاضطهاد، فقد أحرق القشتاليون آباءهم وأمهاتهم وهم أحياء، وهتكوا الأعراض، وطاردوا الأبرياء، وعذبوا العجزة المسنين، وشردوا الملايين. وحدث هذا كله بعد تسليم غرناطة، وعلى يد الكنيسة الكاثوليكية التي جعلت من رسالة السيد المسيح عليه السلام، دعوة عنصرية ترتكب بإسمها أعظم الفظائع، وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أنّ الخلاف القشتالي الأندلسي لم يكن سياسياً، بل خلافاً عقائدياً، حيث أيقن النصارى بأن بقاءهم مرهون بضعف الإسلام والمسلمين، فلجأوا إلى الاضطهاد ومحاكم التفتيش[4].

2 - ايزابيلا والكاردينال خمينيس

قدمت ايزابيلا للكثلكة بالسيطرة على مملكة غرناطة أهم انتصار على الإسلام ولكنها لم تكتف بهذا الإنتصار، فلجأت إلى مؤسسة كنسية عريقة تخصصت في محاربة الهرطقة ضد الكاثوليك هي محاكم التفتيش وعينت مفتشاً عاماً هو توماس

1 - السامرائي، خليل وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 2004م، ط1، ص 306.

2 - رمضان، عبد العزيز، محاكم التفتيش،مجلة العربي، العدد 258، ص 48.

3 - حتاملة، التنصير القسري، ص 68-66، عنان، نهاية الأندلس، ص 329-323.

4 - حتاملة، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، مطابع الدستور التجارية، الاردن، عمان، 2000م، ط1، ص 652.

دي توركيماده[1].

ووجدت بطلة الكاثوليكية نفسها بعد تسليم غرناطة في وضع محرج للغاية ليس أمام شعبها الكاثوليكي فقط بل أيضاً أمام البابا وأمام ملوك أوروبة وأمام اليهود الذين بدأت بإحراقهم كسبيل وحيد للتكفير عن ذنوبهم وحصولهم على المغفرة. فإيزابيلا الورعة التي يُقال إنها رفضت استبدال ثوبها حتى تسقط غرناطة أضافت إلى رعيتها الكاثوليكية عدداً كبيراً من المسلمين يفوق مثيله في أي دولة أخرى. وبدلاً من أن تتمكن من تنصير مملكة غرناطة ها هي تجد المسلم في مكان غير بعيد عن قصرها في إشبيلية يصلي ويصوم ويضحي في مملكة كاثوليكية مثل قشتالة. وبدا واضحاً لإيزابيلا أنها سيطرت على غرناطة لكنها لم تسيطر على الغرناطيين، وكسبت أراضيهم لكنها لم تكسب ثقتهم، وحوّلت بعض المساجد إلى كنائس لكن هذه الكنائس خلت من المصلين. ووقف فرناندو حتى ذلك الوقت موقف المعارض من تغيير هذه السياسة خوفاً من إضعاف مملكته الصغيرة مقارنة بمملكة زوجته وما يمكن أن ينتج عن ذلك من إضعاف موقفه أمامها[2].

وسعت إيزابيلا عن وعي أو غير وعي إلى تأكيد هويتها الكاثوليكية بتصعيد الحملة على اليهودية والإسلام كأنها تخرج من امتحان لتقواها الكاثوليكية إلى امتحان آخر، وها أصبحت عدوة الملة اليهودية وبقي أن تصبح عدوة الملتين. واستنتجت بعد سبع سنوات من محاولات تنصير مملكة غرناطة أن الوضع لم يعد يحتمل فبدأت تنتقد «طلبيرة» وتطالب بسرعة اعتماد سياسة جديدة تقوم على الحزم في التعامل مع الغرناطيين لتسريع تنصيرهم[3].

ولكن قبل أن تتمكن من تحقيق هذين الهدفين كان عليها اختيار الشخص المناسب، ومن أفضل لهذه المهمة من شخص ينتمي إلى المدرسة المتعصبة

1 - حتاملة، الأندلس، التاريخ والحضارة والمحنة، ص 659.
2 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 130.
3 - رائف، أحمد، وتذكروا من الأندلس الإبادة، ص 321.

نفسها التي ينتمي إليها «توركيماده» هو «فرانسيسكو دي سيسنيروس» (839 - 922هـ/1436 - 1517م) المعروف في كتب التاريخ غير الإسبانية باسم خيمينس أو زمنيز. وعندما عينت إيزابيلا كاهنها الخاص طلبيرة رئيساً لأساقفة غرناطة اختارت خيمينس بديلاً، ولما مات مندوزا، رئيس أساقفة طليلطة، رشحت إيزابيلا خيمينس لشغل منصبه وحصلت على موافقة البابا الاسكندر السادس على ذلك الترشيح عام 900هـ/1495م. وكان منصب رئيس أساقفة طليطلة من أهم المناصب في قشتالة إذ كان يشمل أيضاً منصبين آخرين هما رئيس أساقفة قشتالة ومستشار قشتالة، وبهذا يأتي صاحب هذا المنصب في الأهمية بعد إيزابيلا وفرناندو فقط. ويبدو أن خيمينس انحدر من أسرة متواضعة لكن المؤرخين القشتاليين نفخوا في ماضيه وقربوه من تاريخ الملوك وعليّة القوم. ويبدو أن مسألة تنصير الأندلسيين باتت من بين أهم أوليات إيزابيلا عندما أمرت خيمينس بالتوجه فوراً إلى غرناطة لهذا الغرض عام904هـ/1499م[1].

وما ان استقر خيمينس في مقر إقامته الجديد حتى استدعى طلبيرة وطلب كشفاً بحساب جهوده التنصيرية خلال السنوات السبع الماضية، إلا أن النتائج لم تكن مرضية فوجه إليه أمر بضرورة تغيير سياسته فوراً واتباع الحزم في معاملة الأندلسيين. وخلال الاجتماع الأول، أو بعده بقليل، استفسر خيمينس من طلبيرة عن محاولات سمع بها لترجمة الإنجيل إلى العربية. ولما أجابه طلبيرة بأهمية توفير هذا الكتاب كجهد أساسي لتنصير الغرناطيين أمره خيمينس بالتوقف عن ذلك فوراً مكرراً رأي كل من إيزابيلا والكنيسة بأن ترجمة هذا الكتاب عمل خطير لأن اللغة العربية لغة نجاسة ستطال الكتاب المقدس. فتنحى طلبيرة عن مهمته وسلم زمام الأمور إلى خيمينس. وكان برنامج خيمينس واضحاً إلا أن

---

1 - حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس، ص 225، حتي، فيليب وآخرون، تاريخ العرب، ص 636-637.

La FUENTE ALCANTRA: Historia General de Espana, Barcelona, 1879, Cap.X, P. 334.

تنفيذه كان سهلاً ومعقداً في آن. فلو تمكن من تنصير عدد مناسب من الغرناطيين بالاقناع أو التهديد أو الرشوة، أو حتى لو قبل مثل ذلك العدد بالتنصر ولو إسمياً لتحرك عاجلاً وأقام في مدينة غرناطة فرعاً لمحكمة التحقيق سيضمن عماله مع الزمن ترسيخ الكاثوليكية في نفوس المتنصرين شاؤوا أم أبوا. إلا أن الأندلسيين كانوا يعرفون أيضاً أن التنصر هو طريق محكمة التحقيق إليهم لذا قاوموا بحزم أي محاولات لتنصيرهم، ونجحوا عموماً في إبطال محاولات كثلكتهم[1].

واعتقد خيمينس ان أقصر الطرق إلى تنصير عامة الغرناطيين هو تنصير فقهائهم فاستدعاهم إلى كنيسة كانت مسجداً في السابق، وبدأ مواجهة جدلية قامت على تفوق النصرانية على الإسلام، ومناظرتهم بأن الأندلسيين لم ينهزموا على يد القشتاليين إلا لأن الله وقف معهم. وكان هذا الكلام ومثله يستمر أحياناً معظم ساعات النهار ويتوقف ليلاً ليُستأنف ضحى اليوم الذي بعده، وأيقن الفقهاء مع الوقت أن خيمينس يمكر للمسلمين ولن يكل أو يمل حتى يحقق الغرض الذي جاء من أجله. ولكنه لم يجد تجاوباً فنبذ الفقهاء وبدأ الاتصال بالعامة فكان يستدعي البسطاء ويحاورهم، ثم بدأ يرشيهم بالمال والمتاع ويعدهم بالأراضي والأطيان[2].

واستهدف خيمينس وجماعته في مرحلة أخرى كل من عُرف أن أحد أجداده كان نصرانياً وأسلم، فحض هؤلاء على العودة إلى الكاثوليكية. ويبدو أن نصيب هذه المحاولة من النجاح فاق المحاولات الأخرى فاحتج الفقهاء واحتكموا إلى نص في معاهدة التسليم يقضي ب «ألا يقهر من أسلم على الرجوع إلى النصرانية، وأن من تنصر من المسلمين يقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد». ولم يأبه خيمينس بالاحتجاج فتابع تنفيذ سياساته على محاور عدة حتى ليقال أنه انفق معظم ماله الشخصي على شراء الهدايا وتقديم الرشاوى إلى المسلمين كي يثبت

---

1 - حتاملة، التاريخ والحضارة والمحنة، ص 672.

2 - حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 227.

لإيزابيلا أنه نجح حيث أخفق طلبيرة من قبله[1].

وأيقن زعماء الغرناطيين وفقهاؤهم بخطورة الوضع فنزلوا إلى الناس يحضونهم على عدم الاستجابة إلى خيمينس والامتناع عن قبول الهدايا. وفي (16 جمادي الأول 905هـ/ 18 كانون الأول 1499م)، أمر خيمينس السلطات المدنية بالتوجه إلى البيازين وإحضار من يتمكنون من إحضاره فجمعوا له في الكنيسة نحو ثلاثة آلاف أندلسي فحاورهم وناظرهم ثم أعلنهم مسيحيين عن بكرة أبيهم عندها انبرى الفقهاء والزعماء فخالفوه واتهموه بخرق معاهدة التسليم[2]. وقد كان من أسباب الإسراع بتسليم غرناطة للنصارى، أن بوادر ثورة شعبية إسلامية قد ظهرت في الأفق، والشعب الغرناطي في جملته مسلم متمسك برفض التنصر، وحيّ البيازين في غرناطة شحن بالرجال والسلاح استعداداً للقيام بالثورات[3].

3 - الثــورات

1 - انتفاضة حي البيازيـن 904هـ/1499م

كان حيّ البيازين يتبع مدينة غرناطة، وقد قدّر أحد المؤرخين الإسبان عدد الأسر العربية التي كانت تقطنه بعشرة الآف أسرة، أي إنه كان يضم نحو خمسين ألف عربي، بلغ بهم التوتر أقصى مداه نتيجة ممارسات الأب خيمينس المتكررة وعماله، الأمر الذي أدى في النهاية إلى الغليان، بعد وقوع صدام بين أهل الحي وبعض رجال خيمينس، ومنهم خادمه «سالتيدو» الذي اعتدى بالإشتراك مع أحد مفوضي الشرطة على فتاة عربية في ساحة «باب البنود»[4] فهب سكان البيازين

---

1 - حتاملة، الأندلس التاريخ الحضارة والمحنة، ص 674.

MARMOL CARVAJAL (Luis): Historia de la rebellion y castigo de los moriscos del Reino de Granada, Segunda edicion, tomo1. Madrid 1797, P. 112-113.

2 - بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 132.

3 - رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة، ص 317.

4 - الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ط1، ص 62، طه، عبد الواحد دنون، حركة المقاومة الإسلامية في الأندلس، المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2004م، ص 21.

في انتفاضة عارمة، استجابة لصراخ تلك الفتاة، ففر الخادم، وقتل مفوض الشرطة من قبل أحد الشباب العرب المقيمين في الحيّ[1].

بعد سريان أخبار هذه الحادثة طاف زعماء غرناطة وعلماؤها بالبيازين لحث الناس على حمل السلاح وإعلان الثورة لحماية وجودهم، والتصدي لممارسات خيمينس. واستقر الرأي على اختيار أربعين رجلاً من بينهم ليشكلوا حكومة عربية مستقلة عن الإسبان. ثم توجه فريق من الرجال إلى قصر الحمراء لمهاجمة خيمينس والقضاء عليه وعلى مساعديه، بينما تكفل الباقون بجمع السلاح وتحصين حي البيازين استعداداً للقتال. وحينما سمع خيمينس بأنباء هذه الانتفاضة، احتمى في بيت حاكم مدينة غرناطة، الكونت «دي تنديا» الذي كانت تربطه بالعرب علاقات احترام ومحبة، نظراً لحسن معاملته لهم[2].

أقنع خيمينس حاكم غرناطة بإرسال ثلة من الجند للقضاء على انتفاضة البيازين وإبادة الثوار عن آخرهم. ولكن لم تستطع هذه القوة أن تفعل شيئاً، نظراً للاحتياطات التي اتخذها سكان الحي، وإغلاقهم كل الطرق التي تؤدي إلى الوصول إليهم، بل إنهم استعدوا لمحاصرة قصر الحمراء واقتحامه. وحاول الكونت «دي تنديا» إقناع الثوار بالتروي والسكون، وساعده في هذا أيضاً الأب «هرناندو دي تالافيرا»، أسقف غرناطة، الذي كان هو الآخر يحظى باحترام أهلها العرب لتفهمه لأحوالهم، ومحاولته اتباع الإقناع في تحويلهم إلى المسيحية بدلاً من القسر والإكراه[3].

اجتمع هذان الشخصان بالثوار، وطلبا منهم العودة إلى البيازين، بعد

---

1 - أرسلان، شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، دار الحياة، بيروت، 1983م، ص 295.

2 - بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 112.

.Plaidy, J, the Spanish Inquisation, London, 1978, P. 228

3 - عنان، نهاية الأندلس، ص 296.

Prescott, With, W.H, History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, Abridged and edited by. Harvey Cardiner, London, 1962, p. 22 .9

ضمان عدم الإساءة إليهم نتيجة هذه الانتفاضة، مع احترام الاتفاقيات المبرمة بين الطرفين، وأن يعامل العرب بكل احترام شريطة أن يكونوا رعايا للملكين الكاثوليكيين، وأن يؤدوا ما عليهم من ضرائب. كما تعهدا لهم أيضاً بعدم الإكراه في اعتناق المسيحية، وإن من قبلها طوعاً فله أن يحتفظ بعاداته وتقاليده ولغته، ومن أبى تلك الديانة فعليه أن يترك مدينة غرناطة[1]. وقد شرح الثوار وجهة نظرهم ومطالبهم، مؤكدين استعدادهم للقتال حتى الرمق الأخير، إذا لم تنصفهم الملكة، وتأمر بعودة الأب خيمينس إلى إشبيلية. فوعدهم الكونت «دي تنديا» بنقل وجهة نظرهم هذه إلى الملكة، وعرض على أهل البيازين استبقاء زوجته وابنه لديهم ضماناً لتعهده، وغادر اشبيلية لمقابلة الملكة إيزابيلا، فسكنت الأمور إلى حد ما بانتظار نتائج المفاوضات[2].

ولكن الكثير من الثوار لم يطمئنوا إلى نتائج الأحداث، لا سيما الأربعين رجلاً، أي أفراد الحكومة العربية المنتخبة بعد الانتفاضة، ففروا إلى مناطق البشرات الواقعة في جنوب غرناطة، خشية التنكيل بهم ومطالبتهم بدم المفوض الذي قتل في بداية الأحداث[3]. وكان ظن هؤلاء في محله، حيث لم تستمع الملكة إيزابيلا ولا زوجها إلى وجهة نظر الكونت «دي تنديا»، وأهملت الأخذ بما اقترحه من حلول سلمية للحد من اضطهاد أهل غرناطة، والعمل على إنصافهم وتهدئتهم، بل استدعت الأب خيمينس، الذي أصر على موقفه، وذكّر الملكة أنها تحمل لقب «الكاثوليكية» ولا يمكن لها أن تقبل بوجود رعايا يدينون بديانة أخرى، وأن العرب لا يمكن أن يستمروا في البقاء في غرناطة وقشتالة وغيرها من مدن إسبانيا ما لم يعتنقوا الديانة المسيحية، وأن اتباع اللين مع سكان غرناطة بعد انتفاضتهم سوف لن ينتج سوى انتفاضات أخرى في بقية أنحاء البلاد[4].

---

1 - حتاملة، التنصير القسري، ص 77.
2 - طه، حركة المقاومة الإسلامية في الأندلس، ص 23.
3 - مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص44.
4 - بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 115.

لهذا اتخذت الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند قراراً يقضي بفرض التنصير على كل الأندلسيين العرب، أو ترحيلهم إلى شمال إفريقيا إن رفضوا ذلك. كما أُصدر أيضاً أمرٌ يمنع بموجبه العرب القاطنين في خارج حدود مملكة غرناطة من الدخول إليها، حتى لا يختلطوا بأهلها، فيرفع ذلك من روحهم المعنوية[1]. ولم يبق أمام الأندلسيين سوى البحث عن أماكن تؤويهم في المناطق الجبلية الجنوبية. فغادر غرناطة كل من لم يستجب لقرار التنصير، واتخذوا لهم في الجبال قواعد مهمة يشنون منها غاراتهم على الإسبان، رداً على الإجراءات التعسفية التي اتخذت بحقهم، أما بقية سكان غرناطة، فقد رضخوا مرغمين للقرار خوفاً من أساليب التنكيل التي اتبعت بحق من يرفض التخلي عن عروبته ودينه[2].

2 - ثورة البشرات الأولى (906هـ/ 1501م)

تنحصر منطقة البشرات Aplujarras الأرض المرتفعة بين جبال الثلج أو سيرا نيفادا، والبحر المتوسط، ويبلغ طولها نحو تسعة عشر ميلاً، وتضم الكثير من القرى التي يقطنها العرب. وقد أصبحت هذه المناطق لوعورتها وصعوبة الوصول إليها ملاذاً للفارين من الأندلسيين، الذين رفضوا قبول التنصير، وقرروا مقاومة السلطات الإسبانية. فأخذ سكان هذه المناطق بالتعاون مع القادمين الجدد بتحصين قراهم ومدنهم، وجمع الأموال والأسلحة لشن الغارات على مناطق الإسبان، وقطع خطوط مواصلاتهم. ثم اتخذوا من مدينة غونجار الحصينة الواقعة في سفح جبال الثلج قاعدة لهم[3].

وحينما وصلت أنباء هذه الثورة إلى أسماع السلطة الإسبانية، أرسلت الملكة إيزابيلا حملة بقيادة الكونت «دي تنديا» و«غونثالو دي قرطبة Gonsalvo de Cordoba» للقضاء عليها قبل استفحال أمرها. وقد اصطدمت هذه الحملة

---

1 - حتاملة، التنصير القسري، ص 78.

2 - طه، عبد الواحد ذنون وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 307.

3 - حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 229.

بمدينة «غونجار»، حيث وقع عدد من أفرادها في خنادق حفرها أهل المدينة، ثم غطوها بالزرع والقش[1]. ولكن قائد الحملة «غونثالو دي قرطبة»، تمكن من استعادة النظام في صفوف جيشه، وفرض الحصار على المدينة بعد أن جاءته الإمدادات، وأجبرها على الاستسلام، فدخلها وقتل جميع من فيها من النساء والأطفال والشيوخ. أما الرجال فقد التحقوا بالجبال قبل وصول الحملة. ولم يكتف الجنود الإسبان بهذا، بل هدموا المنازل على رؤوس ساكنيها، وأحرقوا المدينة عن بكرة أبيها[2].

استمر قادة الحملة في تقدمهم إلى بقية المناطق الثائرة لتكرار ما فعلوه بمدينة «غونجار» ولكنهم لم يستطيعوا أن يحققوا نصراً بيناً على الثوار لوعورة المنطقة والخوف الدائم من الكمائن الأمر الذي جعل عملية تقدمهم صعبة للغاية. فطلبوا من الملك فرديناند المساعدة، فجاءهم بنفسه في سنة 906هـ/ شباط 1501م، ومعه جيش كبير، يرافقه عدد من القادة والفرسان والسادة والإسبان. وقد ابتدأت هذه الحملة بمهاجمة المناطق الثائرة، فأخضعت مدينة أندرش Andarax ولانخرون Lanjaron، ولوشار Luchar وموندنجار Monoejar وبلفيف Belefiyuc وغيرها. ولم يستطع الثوار الاستمرار في مقاومتهم نظراً للقوة القاهرة التي جاءت مع هذه الحملة، ولأساليب البطش والتنكيل التي اتبعتها مع السكان العزّل، لهذا فقد وافقوا على الصلح مع الملك فرديناند. وبعد مباحثات طويلة توصل الجانبان إلى وقف القتال مقابل حصول الملك على خمسين ألف دوكات Docados[3] وتسليم جميع الأسلحة والحصون التي كان الأندلسيون يسيطرون عليها قبل الثورة، وتعهد الملك مقابل ذلك الوفاء ببعض شروط معاهدة استسلام غرناطة[4].

---

1 - فهمي هويدي، في بلاد الموريسك غرباء الأندلس، مجلة العربي، العدد 228، ص 71.

2 - حتاملة، التنصير القسري، ص 81، بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 97.

3 - Docados: عملة اسبانية ذهبية قديمة.

4 - طه، عبد الواحد ذنون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 308.

استمرت عملية القضاء على ثورة البشرات نحو عام واحد، واستمر الملك فرديناند في غرناطة طوال هذه المدة ليشرف على أوامره بتنصير الأندلسيين وجمع الأسلحة منهم. وقد أرهبت أعمال القمع الوحشي التي ارتكبت في القضاء على الثورة أهالي غرناطة، فأصبحوا عاجزين عن الوقوف أمام الممارسات الإرهابية للسلطة. ولكن هذه الأعمال لم ترهب العرب في أماكن أخرى، بل كانت دافعاً لهم لحمل السلاح والمقاومة، لأنهم أيقنوا أن ما لحق بسكان البشرات وغرناطة سيلحق بهم عاجلاً أم آجلاً، وإن الوقوف أمام العدوان هو السبيل الوحيد لحماية عروبتهم ودينهم وكيانهم. فوقعت انتفاضات عديدة وحركات مقاومة في مناطق كثيرة من جنوب إسبانيا، مثل وادي آش Guadix وبسطة Baza والمنطقة الجبلية المحيطة بمدينة رندة، وكذلك السلسلة الممتدة من رندة إلى جبل طارق Gibraltar والمعروفة بالجبال الحمراء Sierra Vemeja[1].

3 ـ الثورة في الجبل الأحمر (907هـ/1501م)

كانت الثورة في الجبل الأحمر عارمة، ولم تكن تقلُّ في قوّتها عن ثورة البشرات. وقد عهد الملك فرديناند بمهمة القضاء عليها إلى قائد عسكري، هو «ألونسو دي أغيلار Alonso de Aguilar» ورافقه أيضاً ابنه الدون «بيدرو دي قرطبة Don pedro de cordoba» وقد استخف «دي أغيلار» بعرب هذه المنطقة، ولم يقدّر مدى انتشار الثورة فيها، فوقع في كمين محكم نصبه له المقاتلون العرب في سنة 907هـ/ آذار 150م، فانهالت عليه وعلى جيشه الصخور في أثناء عبوره من أحد الممرات الجبلية الوعرة، حيث قتل مع عدد كبير من قواته[2]. وحينما وصلت هذه الأخبار المقلقة إلى أسماع الملك فرديناند سارع في نيسان من السنة ذاتها إلى قيادة جيش كبير، واتجه به إلى مدينة رندة التي جعلها قاعدة لعملياته العسكرية، وأخذ ينطلق منها لشن حملات متعددة

1 ـ طه، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 29.

2 ـ حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 202-201.

على ثوار المنطقة[1].

ودارت معارك عنيفة بينه وبين الثوار الأندلسيين، الذين اضطروا إلى الاحتماء برؤوس الجبال بعد أن اشتد الضغط عليهم. وقد اتبع فرديناند سياسة الحصار لفرض الاستسلام على الثوار، وفي الوقت نفسه حاول مفاوضتهم لتيقنه من عدم إمكانية الوصول إلى نصر حاسم عليهم بسبب وعورة المنطقة واستحالة إبقاء عدد كاف من الجنود فيها لضمان عدم قيامها بالثورة مرة أخرى. ووعد الملك بالأمان لكل من أسهم في الثورة، والخيار بين التنصر أو مغادرة البلاد، وتيسير سبل النقل لمن يفضل المغادرة بعد دفع مبلغ من المال. وهكذا تم التوصل إلى اتفاق بإنهاء الثورة، والكف عن القيام بالأعمال العسكرية، بعد حروب عديدة دامت نحو سنتين، دارت فيها معارك هائلة خسر فيها الجانبان عدداً كبيراً من الضحايا. وقد نفذت بنود الإتفاق، ونقل العرب الذين رفضوا التنصر إلى شمال افريقيا. ولكن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً، حيث لم يستطع الكثير من الباقين دفع المبالغ اللازمة للعبور، فاضطروا إلى قبول التعميد والتنصر[2].

فالمصادر العربية لا تعطي معلومات كافية عن هذه الانتفاضات بإستثناء بعض الإشارات الطفيفة التي وردت في كتاب «نفح الطيب»، وكتاب «نبذة العصر».

فالمقرِّي، يشير إلى امتناع بعض الأندلسيين عن التنصر واعتزالهم الناس في قرى بلفيق وأندرش وغيرها: «فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً إلا ما كان من جبل بلنقة في سلسلة جبال رندة، فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة، وأخرجوا على

---

1 - بشتاوي، الأندلسيون الموراركة، ص 117، الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 63.

Prescott op. cit pp. 208-209.

2 - طه، حركة المقاومة الإسلامية في الأندلس، ص 31.

Prescott, History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic. P. 21

الأمان إلى فاس بعيالهم وما خفّ من مالهم دون الذخائر.....» [1].

أما المصادر القشتالية، فتروي الوقائع من وجهة نظر السلطة القشتالية التي تمثلها. وقد عبر أحد الكتّاب الأجانب المنصفين بشيء من التفصيل عن الأساليب الإرهابية التي اتبعتها السلطة في القضاء على هذه الثورات، منها مثلاً أن كونت ليرين Count de lerin نسف بالبارود أحد المساجد الذي كان مليئاً بالنساء والأطفال. وأن القشتاليين في تعاملهم مع الأندلسيين كانوا يبتعدون عن شعورهم الديني، ويعتبرون العرب مجرد عبيد وأتباع ورقيق، ولهذا كانوا يعرّضونهم للإبادة التامة، فقضوا بالموت على مناطق بأسرها[2].

وبعد انتفاضة البيازين عام904هـ/1499م، وثورة البشرات906هـ/1501م، اتخذت السلطات الإسبانية قراراً يقضي بالسماح لرجال الدين بالتبشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي داخل مملكة غرناطة، وانشئت محاكم التفتيش التي أذاقت المسلمين شتى ألوان العذاب[3]. وبعد فشل ثورات الموريسكيين في داخل إسبانيا، أرسلوا استغاثتهم إلى إخوانهم المسلمين لعلهم يساندونهم في محنتهم ومن هذه الصرخات:

1 ـ الاستغاثة بعدوة المغرب، لأن المغرب أقرب البلاد الإسلامية لهم، إلا أن الحالة السياسية المفككة للمغرب في هذه الفترة منعته من إرسال النجدات إلى الأندلس، كما كان سابقاً.

2 ـ طلب العوّن من السلطان بايزيد الثاني سلطان العثمانيين (820 - 917هـ/1418- 1512م)، واتفق هذا السلطان مع السلطان المملوكي في مصر قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م) على إرسال اسطول بحري لنجدتهم عن طريق صقلية[4]. إلاّ أن ظروف السلطانين السيئة

1 - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 527.

2 - حتاملة، التنصير القسري، ص 82-81.

3 - حتاملة، محمد عبده، الأندلس، التاريخ والحضارة والمحنة، ص 651.

4 - حمودة، علي محمد، تاريخ الأندلس السياسي العمراني والاجتماعي، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1957م، ط1، ص 302.

حال دون إرسال مثل هذا الأسطول، فاكتفى السلطان بايزيد بإرسال كتاب إلى الملكين الكاثوليكيين، بعد ثورة البيازين عام904هـ/1499م، لم يكن له أي أثر يذكر. ومع ذلك استنجد به الموريسكيون مرة أخرى، فكانت استغاثتهم على شكل قصيدة مؤثرة مطلعها[1]:

سلام كريم دائم متجدد   أخص به مولاي خير خليفة

ويبدو أن تاريخ الاستغاثة كان بعد عام907هـ/1502م، ولم يحرك السلطان ساكناً، وذهبت الاستغاثة الموريسكية في مهب الريح.

3 ـ كذلك أرسل الموريسكيون استغاثتهم إلى الملك الأشرف قانصوه الغوري (921-906هـ/1501-1516م) سلطان دولة المماليك في مصر، وأوضحوا له ما وصلت إليه حالهم من إكراه على الارتداد، وانتهاك للحرمات. ودعوة ليتوسط لدى الملكين لكي يحترما معاهدة الاستسلام، ويوقفا الأعمال البربرية ضدهم. فأرسل سلطان مصر وفداً لملكي إسبانيا، أعلن فيه أنه سيجبر المسيحيين المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام بالقوة، إذا لم يحترم الملكان الاتفاقيات المعقودة بينهم وبين مسلمي الأندلس[2].

فأوفدا إلى مصر في عام 906هـ/1501م رئيس كاتدرائية غرناطة الذي استطاع أن يغرر بسلطان مصر ويوحي له بأن الموريسكيين في حالة جيدة، ومعاملتهم حسنة، وأن لهم الحقوق والواجبات التي يتمتع بها الاسبان.

ولكن سلطان مصر لم يتابع الأمر لأنه كان مشغولاً بتحركات السلطان سليم الأول، وذهب قانصوه الغوري ضحية هجوم سليم الأول على بلاد

1 - المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 109.

2 - السامرائي، وأخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 310-308.

الشام في معركة مرج دابق عام 921هـ/ 1516م[1].

وعندما خابت الآمال التي كان يعلقها مسلمو الأندلس على إخوانهم في الدين في بلاد المغرب والمشرق، لم يبق أمامهم سوى خيارات ثلاثة إما الموت أو التنصير القسري، أو الهجرة القسرية خارج البلاد. فضل الكثير منهم البقاء في بلادهم، والقبول بالأمر الواقع، حيث صعب عليهم مفارقة الأوطان العزيزة. وهناك فريق آخر أبت عليه عزة الإسلام أن يعيش ذليلاً، فترك البلاد وهاجر إلى مصر وبلاد الشام وبلاد عدوة المغرب، وقسم منهم ذهب مع الرحلات الاستكشافية إلى أميركا الوسطى والجنوبية.

ولم يكتف الملكان الكاثوليكيان بتنصير وتهجير الموريسكيين بل لاحقوهم إلى دار هجرتهم وبخاصة بلاد المغرب العربي التي تعرضت مدنه، التي سكنها الموريسكيون لغارات الاسبان البحرية[2].

4 ـ ثورة بلنسية (932هـ/1526م)

كانت بلنسية تضم نحو سبعة وعشرين ألف أسرة أندلسية، والتي حظيت باهتمام خاص لدى الحكومة الإسبانية لوقوعها على البحر المتوسط مما يمهد لسكانها سبيل الاتصال بإخوانهم في شمال افريقيا. وقد انطلقت شرارة الثورة في ضاحية «بني وزير» القريبة من المدينة حيث أغلق الأهالي أبواب بيوتهم في وجه ممثلي الكنيسة، ووقعت اشتباكات بينهم وبين الاسبان، ومن ثم انضم إليهم سكان المدن والقرى القريبة، وعندما تزايد عدد الثوار في منطقة «بني وزير» توجهوا إلى أحد الحصون في المنطقة ويدعى حصن «بولبة» حيث تحركت القوات الحكومية للقضاء عليهم، وذلك في (1جمادي الأول 932هـ/15 شباط

1 ـ حمودة، علي محمد، تاريخ الأندلس السياسي، ص 302.

2 ـ مجلة العربي، العدد 156، ص 139، ص 141، السامرائي، خليل ابراهيم، وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 310-309.

1526م). وكانت الحملة مكونة من خمسة الآف رجل، وهي مسلحة بالمدافع والبنادق والذخائر.

استطاع الثوار أن يصدوا الحملة ويكبدوها خسائر فادحة، ولكن قلة المؤن والأسلحة لديهم اضطرتهم إلى الرضوخ والتسليم، وأجبروا على أن يفتدوا أنفسهم بمبالغ طائلة من المال، أو يعتنقوا المسيحية. ولكن القسم الأكبر منهم رحل إلى مدينة «سيجورية» ومنها إلى جبال «سيرا دي يسبادان» التي تفصل بين مملكتي «أراغون وبلنسية»[1]. ونصبوا أحدهم ملكاً عليهم باسم «سليم المنصور»، لكن هذا القائد لم يكن بعيد النظر، ولم يفكر في توسيع رقعة الثورة وإشعالها في أماكن أخرى، الأمر الذي جعله معزولاً عن بقية الحركات مما أدى إلى إحاطة الإسبان به والقضاء على ثورته[2].

5 - ثورة البشرات الثانية (975هـ/1568م)

بعد سقوط غرناطة، حورب أهلها في معيشتهم ونظام حياتهم، أصاب الصناعة الكساد نتيجة سياسة الحكومة التي فرضت منع تصدير الحرير المُصنع في غرناطة بعد عام 957هـ/1550م[3]. كذلك استولت محاكم التفتيش في غرناطة على أملاك سبعين عربياً. وإن أحد أسباب الثورة في الواقع ما هو إلا تعبير عن انتفاضة العرب بسبب مصادرة أملاكهم[4].

ويرى «أورثادو دي ميندوسا» إلى أن المشكلة التي وقعت عام 974هـ/1567م، أطلقت شرارة الحرب، ويقول: «كانوا كالعبيد خاضعين لقمع العامة والخاصة كانت زوجاتهم وأولادهم وأملاكهم وأنفسهم تحت تصرف أعدائهم، ولم يكن

1 - حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 204-203.
2 - حتاملة، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 749.
3 - مظهر، علي، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، ص 22.
4 - كاردياك، لوي، الموريسكوس الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية، ترجمة عبد الجليل التميمي، تونس، منشورات المجلة التاريخية المغربية، 1983م، ص 109.

لديهم أدنى أمل في التحرر من نير العبودية لقرون آتية.....»[1]. وهكذا كانت الأجواء التي عاش فيها عرب الأندلس قبيل الإعلان عن تنفيذ المرسوم الملكي في الأول من كانون الثاني سنة 975هـ/1568م. أجواء تتصف بالقهر والاضطهاد، والمحاربة في المعتقد واللغة والمعيشة[2].

ونتيجة لتجارب العرب في انتفاضاتهم السابقة، أدركوا بأن الإعداد الجيد، والكتمان هما خير الأمور لنجاح ثورتهم الجديدة. وفي هذه المرة أيضاً كان حيّ البيازين في غرناطة هو المنطلق للجموع العربية الثائرة. فقد تولى فكرة الثورة وإضرام نارها أحد الغرناطيين الساكنين في هذا الحيّ، ويدعى «فرج بن فرج»، وهو صباغ يرجع في نسبه إلى أسرة «بني سراج» العربية التي تمتعت بنفوذ كبير أيام الحكم العربي الإسلامي في غرناطة. فاتصل بمن استطاع من إخوانه في غرناطة، وأدرك هو والقادة الذين اتصل بهم أنه لا بد من توفر عنصرين أساسيين لنجاح المقاومة، الأول هو المشاركة الفعلية لعرب جنوب إسبانيا، والثاني هو العون المادي والدعم العسكري من عرب شمال افريقيا[3].

وتم الاعداد لتوفير هذين العنصرين، فحصلوا على رخصة بناء مستشفى للمرضى واللقطاء والفقراء خارج أسوار غرناطة، واستغلوا هذه الحجة لجس النبض والدعوة إلى الثورة، وأحصوا ما يقارب 45 ألف مقاتل يمكن أن يسهموا في الثورة[4]. و تم الاتفاق على إعلانها ولكن وقع في يوم (5 رجب 976هـ/ 23 كانون الأول 1568م) حادث في البشرات عجل بقيام الثورة، حيث اصطدم بعض الثوار بمفرزة اسبانية مكونة من خمسين جندياً، ومعهم بعض المأمورين

---

1 - ايبارا، ميغيل انخيل، الموريسكيون في الفكر التاريخي، ترجمة وسام جزر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م، ص 36.

2 - أرسلان، شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، ص 297.

3 - حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 211.

4 - حتاملة، التهجير القسري لمسلمي الأندلس، ص 34.

والقضاة، بالقرب من «قاديار Cadiar» فأبادوهم[1]. وكانت هذه الحادثة الشرارة التي اشعلت فتيل الثورة.

دخل «فرج بن فرج» غرناطة، لكنه لم يحظ بمؤازرة أهلها، فاضطر إلى الانسحاب من المدينة، والالتحاق ببقية القوات في البشرات[2]. حيث وقع اختيار الثوار على فرناندو دي فالور(محمد)، لتتويجه ملكاً عليهم في السابع والعشرين من كانون الأول، وتسمى بإسم ملوكي يليق به، وهو «محمد بن أمية» صاحب الأندلس وغرناطة[3]. ابتدأ محمد بن أمية بممارسة مسؤولياته الجديدة، وأرسل في طلب العون من عرب شمال افريقيا، فبعث أخاه عبد الله إلى الجزائر، ثم اتبعه بسفارة أخرى إلى المغرب بقيادة «فرناندو الحبقي»، كما عين عدداً من القادة لإدارة العمليات في المناطق الثائرة[4].

وبهذا الأسلوب استطاعت قوات الثورة أن تحقق في أيامها الأولى انتصارات كبيرة، وقد فوجىء الملك فيليب الثاني بأخبار هذه الانتفاضة الجديدة، لاعتقاده أنه نجح في إحباط الاضطرابات في هذه المنطقة. وتولى مركيز موند نجار الحاكم العسكري العام لغرناطة، مهمة التصدي للثورة بناء على طلب الملك فيليب الثاني، ولكن الملك عهد بالقيادة العامة في مقاومة الثورة إلى أخيه غير الشرعي، دون خوان النمساوي، الذي وصل إلى غرناطة في (27 شوال 976ه/ الثالث عشر من نيسان 1569م)، وابتدأ على الفور في اتخاذ سياسة قمعية شديدة إزاء الحركة. وقتل كل المشتركين فيها[5]، وقد اجتمع ابن أمية بأصدقائه

---

1 - حتاملة، التنصير القسري، ص 35.

2 - عنان، نهاية الأندلس، ص 347.

Elliott, J.H, Imperial Spain, London, 1969, P.228.

3 - قطب، محمد علي، مذابح وجرائم محاكم التفتيش، ص 60، قشتيليو، محنة الموريسكوس في إسبانيا، ص 42.

4 - طه، عبد الواحد ذنون، حركة المقاومة الإسلامية في الأندلس، ص 61.

5 - الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب الأندلس، ص 319.

Elliot, Imperial Spain, P. 233, Plaidy, J, Spanish Inquistion, London, 1978, P. 411

وأقاربه في البيازين حيث يعيش الموريسكيون الذين يبلغ عددهم ثمانية عشر أو عشرين ألف[1]، وكان «فيرناندو دي فالور»، يحركه الغضب الناتج عن حادثة مصادرة سلاحه، وكان يقنع الناس بضرورة الثورة لإثبات أهميتهم وحتى لا يكونوا خاضعين للملك فيليب ولا لوزرائه. وقد أعد خطة للسيطرة على المدينة والمملكة، لم يكن الموريسكيون الأثرياء على استعداد لخطة الثورة[2]، فقد كان من المحتمل أن تفشل وأن يفقدوا ثرواتهم. وأعلنوا أنهم ينضمون إذا انضم كل أهل المملكة إلى «فيرناندو»، فأراد الذهاب إلى البشرات ليشرح للموريسكيين أن الملك فيليب يريد أن يجعلهم مسيحيين، وأن يحرمهم من اللغة العربية ومن زي المسلمين ومن أسلحتهم ولما كانت لهم رغبة في الحرية، فقد اجتمعوا وعقدوا اتفاقهم[3].

استمرت الثورة مشتعلة بالبشرات لأكثر من سنتين، فقد حدثت مجزرة في مدينة «جبليس»، وكذلك في مدينة غرناطة، ومما زاد في مقاومة الأندلسيين، ما قام به «دون خوان النمساوي»، الذي قرر نفي أهالي غرناطة، لا سيما الذكور منهم الذين تتراوح أعمارهم بين عشر وستين سنة، وإرسال معظمهم إلى قشتالة حتى لا يلتحقوا بالثوار، وقد تمت موافقة الملك على هذا الأمر. وهناك عوامل أخرى حالت دون إمكانية انتصار الثوار على القوات الإسبانية، ولا سيما عدم الإنسجام الكامل بين قادة الثورة وزعمائها. كما أدت الخيانة دوراً بارزاً في هذا المجال، فقتل «محمد بن أمية» على يد انصاره وأقرب الناس إليه[4].

فإختار زعماء الثوار ملكاً آخر، هو ابن عمه «ديبغو لوبث Diego Lopez»، المعروف «بابن عبو»، فتسمى باسم مولاي «عبد الله محمد بن عبو»

---

1 - من محاضر بلدية مالقة، المحضر 18، ص 321.

2 - من محاضر بلدية مالقة، المحضر 18، ص 321.

3 - من محاضر بلدية مالقة، المحضر 18، ص 359، عبد الرحمن، جمال، دراسات اندلسية وموريسكية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008م، ط1، ص 169.

4 - الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 108.

ملك الأندلسيين[1]، الذي أبى الاستسلام، وانسحب إلى المناطق الوعرة، بعد أن استشهد معظم رجاله، وقد استطاع الاسبان أن يغروا بعض أتباعه باغتياله، فاستشهد في شهر (شوال 979هـ/ آذار سنة 1572م)[2]، وأدرك الثوار أن لا فائدة من المقاومة، فطلبوا الأمان، ووضعوا اسلحتهم، فانتهت بذلك هذه الثورة الكبيرة.

ويروي لين بول نهاية الثورة الأندلسية الكبرى فيقول: «كان السبي والنفي والمصير الذي آل إليه من بقي حياً بعد الثورة، ولكن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً .... أولئك الذين أسروا والثورة مشتعلة أصبحوا عبيداً، وسيق الباقون إلى النفي تحت حراسة الجنود بينما شددت الحراسات على الممرات في التلال[3]. وكثير من المنفيين التعساء ماتوا في الطريق جوعاً أو تعباً من الحر والبرد، وتمكن آخرون من الوصول إلى افريقيا حيث عانوا من الفاقة ولم يجدوا ارضاً يحرثونها، وبعضهم وصل فرنسا فقوبل بفتور الاستقبال رغم أن هنري الثامن وجد فيهم أدوات مفيدة لمكائده في إسبانيا»[4].

---

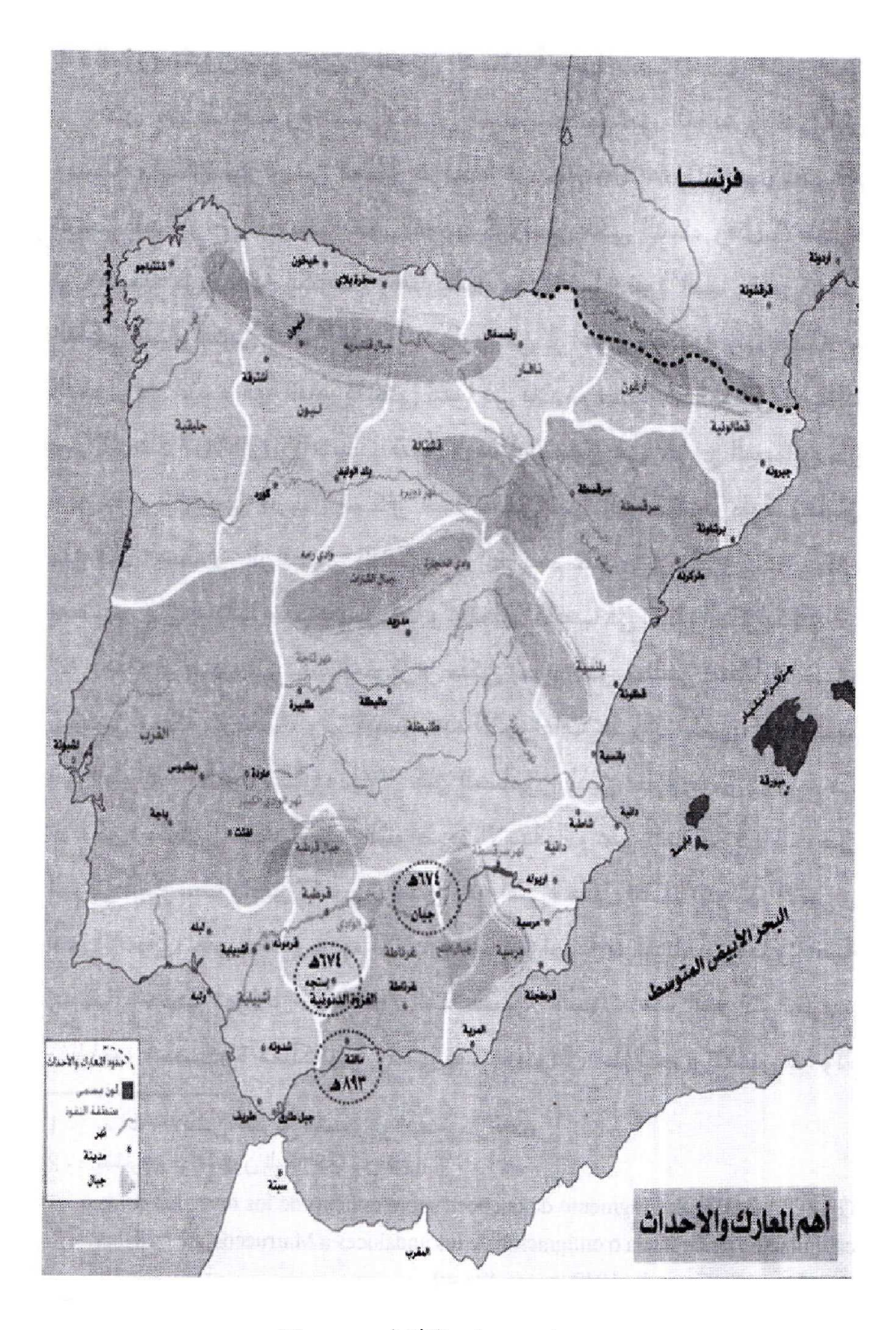
1 - قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش، ص 62.

.Lane-Poole, Stanley, the moors in Spain, the edition, London, 1888, P. 277

2 - حومد، محنة العرب في الأندلس ، ص 245-246.

3 - Lane – Poole, Stanley. The Moors in Spain, P. 279

4 - رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998م، ط3، ص 92.



جيمس رستن، محاكم التفتيش، ص: 11

4 - الموريسكيون يمارسون الطقوس الإسلامية سراً

كان من نتائج ثورة البشرات، أن تم تنصير مسلمي المرية ووادي آش وبسطة وأماكن أخرى من مملكة غرناطة في عام 906هـ/1501م. وبعد عام انزلت أشد أنواع العقوبات بحق الموريسكيين من سبي النساء وقتل الأطفال، أو وضعهم في رعاية الكنيسة، وهذا يظهر مدى اتساع نفوذ البابا وتأثيره على الملكين الكاثوليكيين لذلك اختار المدجنون في أراغون وبلنسية وغرناطة – الدخول في النصرانية ظاهرياً حتى يبقوا في بلادهم خشية فقدانها إلى الأبد[1]، وخلال عام 907ه/1502م بدأت تتجلى رغبة الإسبان في إخراج المسملين من شبه جزيرة إيبيريا. فأرسل الملكان الكاثوليكيان أمراً إلى حاكم قرطبة، يطلبان منه قتل المسلمين الرافضين للتنصر، أو طردهم خارج الأندلس[2]. حتى قال بعضهم: «إن إسبانيا ضحت بحريتها وعظمتها كشعب في سبيل الكاثوليكية»[3].

هذا وقد صدر في ذات العام قرار ملكي يحرم على مسلمي قشتالة الاتصال بمسلمي مملكة غرناطة، ولم تقتصر هذه الاجراءات على المسلمين، بل تعدتهم إلى الطوائف الأخرى كاليهودية[4]. كان المسلمون الذين أخرجوا من ديارهم في الأندلس، يشكلون خطراً على الشواطىء الإسبانية وعلى الملاحة في الحوض الغربي للمتوسط، وكانوا يأسرون سكان الشواطىء مقابل إفتداء اخوانهم الأسرى لدى الإسبان، حتى أطلق عليهم الإسبان لفظ «قراصنة»، فغدت أوروبا وخاصة إسبانيا، تحسب لهؤلاء المجاهدين ألف حساب. وسببت هذه الغارات تخريب منازلهم، ومصادرة ممتلكاتهم، وسبي نسائهم، وقتل أطفالهم، وتنصيرهم. ولم

---

1 - حتاملة، الأندلس، التاريخ الحضارة والمحنة، ص 689.

2 - بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 119.

GARCIA GOMEZ: Fragmento de la epoca sobre noticias de los reyes nazaritas o capitulacion de Granada o emigracion de los andaluces a Marruecos, Al Andalus .Vll. Madrid – Granada, 1942, pages 494-49

3 - أمين، أحمد، ظهر الإسلام، ص 306.

4 - PRESCOTT: Historia del Reinado de los Reyes Catolicos. Tomo III, Catp, Vll, P. 206-207.

يَسْتَفِد إلاّ من تَاجر بدينه وشرفه. فمنح لخيانته تلك، بعض المراكز ومنهم:

1 - محمد الدردوش، منح منصب حاكم مالقة، وتسمى بإسم فرناندو المالقي.

2 - محمد الغازي، منح مركز سكرتير وكاتب شرعي لمدينة مالقة، وسمي بضون ألونسو سيرانو.

3 - ولدا أبي الحسن سعد ونصر، وأمراء آخرون من غرناطة، تنصروا فزوجهم الملكان الكاثوليكيان زوجات إسبانيات نصرانيات، ومنحاهم مراكز تشريفية.

4 - أحمد عليلش، كان يعمل جاسوساً للملكين الكاثوليكيين.

وبعد عام 907هـ/1502م، كان من تبقى من المسلمين الذين غلب على أمرهم، دخلوا الديانة النصرانية مكرهين يتظاهرون بقبولهم لهذا الدين الجديد. فكانوا يترددون على الكنائس والأديرة، كي يشاهدهم الإسبان، ويرضوا عنهم لقبولهم هذه العقيدة المفروضة عليهم رغم ذلك استمروا في ممارسة شعائرهم الدينية. وكانوا يؤدون فرائض الصلاة داخل بيوتهم بحذر، ويغلقون على أنفسهم بيوتهم أيام الآحاد، موهمين الطرف الآخر بأنهم ذهبوا إلى الكنيسة[1].

ونظراً للصفة السرية التي تمارس بها الشعائر الإسلامية، أصبحت تعاليم الإسلام وممارساته تقاليد موروثة، يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلاً بعد جيل، في حلقات مغلقة، لها صفة المجالس السرية. والأطفال الذين استولت عليهم الكنيسة لم يتم ارجاعهم إلى أهاليهم، وإنما تم تعيينهم رهباناً وقساوسة، وظلو في عهدة الكنائس والأديرة يدعون إلى النصرانية ويبشرون بتعاليمها. حتى أن هؤلاء فاقوا النصارى الأصليين الذين كانوا يكرهون الإسلام وتعاليمه، في تعصبهم وكراهيتهم لدين أبائهم وأجدادهم من حيث لا يشعرون. شعر المسلمون أن هناك مخططاً صليبياً رهيباً، يستهدف طمس آخر معالم الحضارة الإسلامية من الناحية الدينية والثقافية والاجتماعية، بعد ما قضى عليها من الناحية السياسية. وحاول هؤلاء الموريسكيون، إنقاذ أنفسهم وعقيدتهم التي كانت تستهدفها السياسة

---

1 - حتاملة، محمد عبده، محنة مسلمي الأندلس، ص 84.

الإسبانية[1]، والتي تجلت في كلام الملكين الكاثوليكيين وهذا نموذج منه:

1 - ماتت الملكة إيزابيلا وهي توصي «بمتابعة الحرب ضد أعداء الإيمان المسيحيين» وتقصد الموريسكيين.

2 - مات الملك فرديناند الكاثوليكي عام 921هـ/1516م، وهو يوصي أولاده قائلاً «عليكم أن تعملوا على تحطيم أتباع الديانة المحمدية» ويقصد استئصال الموريسكيين من جذورهم[2].

- عدد سكان غرناطة في القرن الخامس عشر الميلادي

بلغ عدد سكان غرناطة أثناء حكم الملكين الكاثوليكيين وتبعاً لمعلومات بعض المؤرخين، خمسين ألف نسمة، وتليها مالقة التي كان يقطنها عشرون ألف نسمة، وكان في بلش مالقة عشرة آلاف نسمة [3].

- حالة الموريسكيين في عهد الملكة خوانا المعتوهة (883 - 962هـ /1479 - 1555م)

ويبدو أن الملكين الكاثوليكيين لم يكونا سعيدين في حياتهما الخاصة، بعد وفاة أولادهما واحداً تلو الآخر ولم يبق سوى صونيا خوانا، وماريا، وقتالينا. تزوجت صونيا خوانا من الارشيدوق النمساوي (فيليب الجميل)، وكانت الوريثة الوحيدة للملكين الكاثوليكيين، طبقاً لأمر والدتها الذي أصدرته قبل وفاتها في العام نفسه، وطبقاً لأعراف الوراثة. توفيت إيزابيلا عام 909هـ/1504م، عن عمر يناهز ثلاثاً وخمسين سنة. وجاء فيليب إلى إسبانيا ليستولي على السلطة فيها خلافاً لرغبة الملك فرديناند الكاثوليكي، وازدادت معارضة الملك فرديناند

---

1 - GARCIA ARENAL (Mercedes): Los moriscos y la Inquisicion. Procesos del Tribunal deCuenca, Madrid 1978, p:. 25.

2 - حتاملة، الأندلس، التاريخ الحضارة والمحنة، ص 695.

3- DELOZOYA(El Marques): Los Origines del Imperio. La Espana de Fernando esabel. Madrid, 1939. P: 481-490.

عندما وصلته أنباء (معاهدة بلو) Blois التي أبرمت بين الملك لويس الثاني عشر الفرنسي وصهره فيليب الجميل، وهي تنص على تقسيم قشتالة وميلان ونابولي بين الاثنين[4]. وبعد ثلاثة أيام من اعتلائه العرش، تعرض للتسمم ومات بعد وقت قصير، ويرجح أن يكون الملك فرديناند وراء الموضوع[5]. عقب وفاة الملك فرديناند عام 922هـ/1516م، أصبحت صونيا خوانا حاكمة على قشتالة، وليون، وغرناطة، وطليطلية، وغاليسية، واشبيلية، وقرطبة، ومرسية، وجيان، والجزيرة الخضراء، وجبل طارق، وجزر الكناري .....الخ[6].

لكن موت زوجها أفقدها عقلها كلياً، وحَكَمَ بإسم خوانا المعتوهة مجموعة من المتنفذين، أو النواب من عام (909 - 921هـ/1504 - 1516م)، وهم:

1 - الملك فرديناند الكاثوليكي من عام (909 - 911هـ/1504 - 1506م). ومن ثم ورث شارل الأول المُلك وعمره لم يتجاوز السابعة، فكان حكمه تحت الوصاية، وعين مجلس وصاية من سبعة أشخاص برئاسة الكردينال خمينيس دي سيسنيروس، وقد استبد بالسلطات، فحصرها في يده.

2 - النيابة الثانية: استلمها الملك فرديناند الكاثوليكي من عام 912هـ/1507م حتى وفاته 921هـ/1516م[7]. واستمرت سلطات خمينيس حتى وصول شارل الأول للسن القانونية لتسلم العرش، وكان يفضل استاذه الأب أدريانو، على الكاردينال سيسنيروس، وشاع أن للملك يداً في استعجال أجل الكاردينال خمينيس، الذي دفن في مدينة مدينة Roa[8] عام 922هـ/1517م.

4- CARMONA (Francisco Diaz), Compendio de Historia de Espana, Barcelona, 1911, capt IV, P: 392-393.

5 - بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 124.

6 - Davila Collado (Manuel): El pooder civil en Espana. Memoria premiada por la Real Academia de las Ciencias Morales y politicas. Tomo I, Madrid, 1885, P: 583

7 - VIVO (Jose Zahonero): Historia de Espana, Valencia 1949, Capt XIV, p: 96
حتاملة، محمد عبده، الأندلس التاريخ الحضارة والمحنة، ص 714.

8 - COMAS (Maria), Breve Historia de Espana, Segunda edicion, Barcelona, 1892, p: 124

ـ المراسيم الجائرة ضد الموريسكيين في أثناء حكم الملكة خوانا المعتوهة:

كانت مهمة هذه الملكة مقتصرة على التوقيع على المراسيم التي يصدرها نوابها، وهي:

1 ـ مرسوم خاص بالملابس، يحظر استخدام الملابس العربية، ومنع خياطتها، ومنع لبس الثياب الحريرية والملابس الفاخرة وأمهلهم المرسوم عشر سنوات للتطبيق، وفرض في مرسوم آخر أن تلبس كل طبقة اجتماعية ملابس متميزة خاصة بها، ثم أعطيت النساء كذلك مهلة سنتين حتى يتخلصن من غطاء الرأس.

2 ـ مرسوم خاص بالذبائح: يمنع الموريسكيون من ذبح الحيوانات على الطريقة الإسلامية، ويفرض أن يذبحها جزار مسيحي من أصل اسباني قديم، ويجب أن تحمل إلى المسلخ.

3 ـ مرسوم خاص بالزواج: وفيه إلزام بالزواج على الطريقة المسيحية، والفرض على كل من تنصر، أن يتزوج نصرانية، ويفرض أيضاً على كل موريسكية منصرة أن تتزوج من نصراني، ويرغم كذلك الموريسكيون أن يكون الإشبين من المسيحيين القدماء.

4 ـ مرسوم خاص بالزيارات: يرغم الموريسكيون المقيمون خارج غرناطة الذين نصروا قسراً، على عدم زيارة الموريسكيين المقيمين في غرناطة خشية أن يتآمروا معهم، ويهدد من لا يتقيد بذلك بأقصى العقوبات من مصادرة الممتلكات أو بالموت حرقاً[1].

5 ـ مرسوم خاص ببيع العقارات غير المنقولة: لا يجوز لأي موريسكي بيع ممتلكاته لأي موريسكي آخر، إلاّ بعد أن تمنحه السلطات إذناً، ثم منع الموريسكيون من بيع ممتلكاتهم منعاً باتاً، سواء كان ذلك البيع لموريسكي أو

---

1 ـ حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 105، النواتي، عبد الكريم، مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، ص 647 - 648.

لنصراني، خشية أن يأخذوا قيمة ممتلكاتهم فيفروا بها إلى شمالي افريقيا[1].

6 ـ مرسوم خاص بمنع الكتب العربية: يجب على كل موريسكي أن يسلم كل ما في حوزته من كتب باللغة العربية، ويتم تسليم الكتب والمخطوطات كافة إلى السلطات المسؤولة في مدة لا تتجاوز خمسين يوماً من تاريخ صدور هذا القرار.

7 ـ مرسوم خاص بمنع الأسلحة: يمنع الموريسكيون من حمل أي أسلحة، أو استخدامها إلا بإذن من السلطات العليا المسؤولة. أما إذا حمل أي موريسكي السلاح بدون ذلك الأذن فيقصى عن البلاد إلى الأبد.

إضافة إلى مرسوم خاص بالإرث، ومرسوم آخر خاص بالتعاون مع مسلمي شمال افريقيا، والهاربين من مملكة غرناطة.

8 ـ ومرسوم خاص بممارسة الشعائر الإسلامية والملتحقين بالثوار: إذا تبين أن موريسكياً منصراً مارس بعض الشعائر الإسلامية، تصدر بحقه أشد العقوبات. وكذلك الحال إذا التحق بالثوار المعتصمين في رؤوس الجبال[2].

5 ـ محاكم التفتيش (الجذور التاريخية)

عَقَدَ رجال الكنيسة الكاثوليكية في مدينة تولوز الفرنسية سنة 729هـ/1329م، لأول مرة أيام البابا غريغوريوس التاسع اجتماعاً تمهيدياً لتقرير إنشاء محكمة يقدم إليها كل من اتُّهم في عقيدته الكاثوليكية، وكل من كان على دين أو معتقد غير ما يعتقد جماعة الكاثوليك، أمثال اليهود والبروتستانت، وجماعة المفكرين الأحرار، والمسلمين الذين كانوا في أوروبا (في إسبانيا والبرتغال)، وكل من يُتهم بالإلحاد والزندقة في مسيحيته الكاثوليكية[3].

---

1 ـ حتاملة، الأندلس التاريخ الحضارة والمحنة، ص 719.

2 ـ المرجع نفسه، ص 722.

3 ـ مظهر، علي، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، ص 75.

ولكن البابا غريغوريوس لم يقرر إنشاء الديوان بطريقة رسمية والعمل بما رآه المجتمعون، إلاّ في سنة 734هـ/ 1333م، فصدرت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن خاص، للبحث عن الزنادقة، وتقديمهم لمحكمةٍ بابوية خاصة، وأن يستعين بمن يراه لازماً لمعونته من الجواسيس، وكان يُطلق على تلك المحكمة البابوية الخاصة اسم (الديوان المقدس) أو (التفتيش المقدس)، وتهدف لحماية العقيدة الميسحية[4]. ولم يكن يُعْرف أولئك الجواسيس، بل أُخفيت اسماؤهم عن الناس ووُعدوا بِغُفران خطاياهم، وأُحلَّ لهم ارتكاب الجرائم مهما يكن نوعها، ومهما يعقبها من عظائم الأمور[5].

ظل ديوان التفتيش يعمل به في فرنسا، تارةً جَهْرةً وتارة خِفْية، تبعاً لآراء الملوك، حتى كانت الثورة الفرنسية (1203هـ/1789م)، فتقّرر إلغاؤه، وانتقم الشعب من رجاله، وهرب بعضهم إلى إسبانيا والبرتغال. ومع أن ذلك الديوان وتلك المحاكم كانت معروفة في فرنسا وايطاليا وفي بلاد أخرى من أوروبا، إلاّ أنها لم تكن فاعلة مثل إسبانيا والبرتغال، ولم تمارس من الفظائع والأعمال البربرية الوحشية مثل ما مورست في إسبانيا، حتى قدّر بعضهم عدد ضحايا التفتيش بما لا يقل عن تسعة ملايين من الناس في المدة الزمنية بين 734هـ/1333م إلى 1250هـ/1835م، خمسة قرون، حيث أُلغي في إسبانيا بعد أن لطّخ بعارهِ كُلّ أرجائها، وبالدم الإنساني البريء المسفوك، في سبيل نُصْرة الكثلكة[6]. ويبدو أن اختصاص محاكم التفتيش قد اتسع بمضي الزمن، فلم يبق مقتصراً على مطاردة المارقين والكفرة، بل تعداه إلى السحرة، وجاء بعد ذلك دور اليهود.

ويرجع تأسيس محاكم التفتيش بإسبانيا إلى عهد الملكين الكاثوليكيين، فقد أرسلا سفيرهما إلى البابا سنة 883هـ/1478م للحصول على براءة في هذا

4 - كاسترو، أميركو، إسبانيا في تاريخها، ص 601.

5 - قطب، محمد علي، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، دار القلم، بيروت، ط2، 1987م، ص 77.

6 - قطب، المرجع نفسه، ص 78، بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 269.

الشأن، واتخذت الخطوة الحاسمة بالفعل لتنفيذ المشروع في سنة 884هـ/1480م. وانشئت محكمة التفتيش الأولى في إشبيلية، وبدأت نشاطها المروع في قشتالة ضد اليهود المتنصرين، فطاردت الوفاً منهم. واستصدر الملكان الكاثوليكيان براءة أخرى من البابا في شباط سنة 886هـ/1482م على إثرها أُنشئت محاكم جديدة في قرطبة، وجيان، وشقوبية، وطليطلة، وبلد الوليد، وصدرت براءة أخرى في سنة888ه/1483م بإنشاء مجلس أعلى لمحاكم التفتيش له اختصاص مطلق في شؤون الدين[1].

وبعد صدور قرار التعميد الإجباري ضد الأندلسيين سنة 907هـ/1502م أصبحت محاكم التفتيش تتابع الموريسكيين بصرامة، ففي الوصية التي تركها فرناندو الكاثوليكي لشارل الخامس نجده يأمره «بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للإيمان الكاثوليكي لتضييق الخناق على طائفة محمد»، لذلك فقد ظل الموريسكيون دائماً يُحَمّلون الملكين الكاثوليكيين مسؤولية إنشاء محاكم تفتيش، فكثيراً ما يتردد في قولهم: «إن إيزابيلا قد دخلت جهنم، لأنها أنشأت محاكم التفتيش....» [2].

وهكذا يتبين أن شارل الخامس قد لجأ إلى البابا للحصول على براءة سنة 930هـ/1524م أُحل فيها الملك من اليمين التي أقسمها عام 925هـ/1519م (بالمحافظة على حياة المسلمين، وحريتهم وأموالهم، وامتيازاتهم وقضاتهم...)، وحثه على الاهتمام بموضوع تحويل المسلمين إلى النصرانية في مملكة أراغون، ونصح البابا «كليمانت السابع» الملك بأن يكلف أعضاء ديوان التحقيق بإتمام عملية التنصير. أما إذا أصرّ أحد المسلمين على التمسك بالإسلام فالخضوع أو الاسترقاق مدى الحياة[3].

---

1 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 62.

2 - بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 96، حتاملة، التنصير القسري، ص 78.

3 - طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ص 41.

6- ديوان التفتيش في إسبانيا

إن القديس «دومينكو» هو أول من كان رئيساً للجلسة الأولى لهذا الديوان بإسبانيا، ولكن الذي ذاع صيته هو «توركويمادا» الذي عين رئيساً عاماً لديوان التفتيش بأمر من البابا بنتو الرابع سنة (847هـ/ 1443م) وكان مركز سلطته في مقاطعتي الأراغوان وكستيجا، ويقال إن «توركيمادا» هذا من أسرة عرفت بالقسوة والشدة، وكثيراً ما استخدم أجداده كجلادين في بلاط الملوك الأولين، ولكنه فاقهم فظاعة وشدة حتى ليقال إنه هو الذي تفنن في أنواع التعذيب لذلك الديوان وعرف فيه الغدر والخيانة وأنه كان يعذب كل من يشتبه في أمانتهم وإخلاصهم حتى الموت[1].

وقد وقعت الملكة إيزابيلا تحت تأثير «توماس دي توركيمادا» وكان قسيساً لها قبل أن تكون ملكة[2]. وسبب موته أنه أراد الاعتداء على عفاف فتاة جميلة ثم كان يأمر بعدئذ بموتها كما كانت تلك عادته، فما كان منها إلا أنها دست له السم في خمر بيدها. والغريب أن البابا «بنتو الرابع» أدخله حظيرة القديسين وأصحاب المجد في الكنيسة. وقد استمر في غيّه سبع عشرة سنة في إسبانيا أحرق في أثنائها سبعة عشر ألف شخص وهم على قيد الحياة. وبعد موته أصدر البابا أمره بأن تكون محكمة التفتيش مختلطة من جميع طبقات الرهبان وأن تصدر الأحكام بإسم البابا. ومن ذلك الوقت أطلق عليها اسم (المحكمة المقدسة) وكان ذلك سنة 886هـ/1481م[3].

هذا وقد صدر مرسوم ملكي من ملكي إسبانيا حينئذ فرديناند وإيزابيلا بتأسيس ذلك الديوان والمحكمة المقدسة وأن تزاول أعمالها البربرية في كل الجهات التابعة لهذين الملكين. وكان المرسوم يعطي رجال الكنيسة الحق في إدارة شؤون ذلك الديوان وتعقب من يشتبه في أمرهم من اليهود والمسلمين وكل

---

1 - بشتاوي، عادل، الأندلسيون المواركة، ص 217.

2 - مظهر، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، ص 75.

3 - المرجع نفسه، ص 107.

من لم يكن يعتقد أنه كاثوليكي شديد التعصب للكثلكة وكانوا يتجسسون على الناس ويلقون القبض عليهم.

ويبدو أن رؤساء ذلك الديوان وأعضاءه كانوا يركبون عربات فخمة تجرها أربعة من جياد الخيل، وتحيط بعرباتهم كواكب من فرسان شهروا سيوفهم وهم في أفخر حلة كأنما هم حرس لقيصر عظيم أو سلطان عظيم الشأن. ويقول بعض المؤرخين إن أولئك الرهبان كانوا يسكنون قسماً خاصاً من ذلك البناء الضخم المخصص ليكون مقر ديوان التفتيش ومقر سجونه وكان كل راهب دومينيكي يسكن في الجزء المخصص له، وقد جعل فيه كل أسباب الترف والنعيم المقيم بينما تراه يأمر بتعذيب المئات والألوف في أسفل ذلك البناء والصرح المشيد، والويل والثبور لمن كان يغضب عليه راهب كهذا كائناً من كان. فقد كان للديوان جنده الخاص به ولهم أعلامه[1].

7- إجراءات محاكم التفتيش

فُتحت أبواب محاكم التحقيق لمن يريد دخولها للشكوى، ويكفي في العادة أن يتقدم شخص بشكوى ضد شخص آخر لبدء المرحلة الأولى من التحقيق، فإذا توافرت شهادة شخص آخر عُيّن لهذه الشكوى محقق أو أكثر لمتابعتها. ويقتضي بعدها جلب المتهم إلى التحقيق. وفي بعض الحالات كان هذا ممكناً خلال النهار، لكن حالات أخرى اقتضت المداهمة تحت جنح الظلام وتوخي الهدوء. وكان المُعرفون يطرقون باب بيت المتهم أو المتهمة ويطلبون لقاء الشخص المطلوب ثم يأمرونه بمرافقتهم. وربما حدث ذلك فوراً لكن ربما امتنع المتهم أو أهل بيته عن فتح الباب وهنا يدخل المعرفون عنوة ويأخذونه. وطوّر عمال المحكمة آلة تشبه الإجاصة يمكن توسيعها أو تضييقها بواسطة مفتاح خاص. وكانت هذه الآلة على غاية من الأهمية إذا حاول المتهم الصياح لطلب النجدة من جيرانه فما ان

---

1 - العمر، ناصر بن سليمان، سقوط الأندلس، دروس وعبر، دار القصيم، السعودية، 2005م، ط1، ص 3.

يفتح فمه حتى يكون العمال دسوا الآلة في فمه وأخذوه بالقوة. ومن اعتقل بهذه الطريقة نُقل إلى قصر محكمة التحقيق في المدينة وبدأت مرحلة جديدة من حياته يمكن أن تستمر أسبوعاً أو شهراً ويمكن أن تطول سنوات. ومهما كانت مدة الحجز فلن يستطيع أهل المتهم مقابلته أو الاتصال به، وربما اجتاحهم الخوف من أن يكون دورهم تالياً فأنكروه وتفادوا السؤال عنه فلا يبقى إلا الانتظار. فربما أطلقه العمال بعد ثبوت براءته فعاد إلى بيته، وربما صار عبداً ونُقل إلى العالم الجديد، وربما لن تراه ابنته أو أمه ثانية إلا وهو يحترق ببطء[1].

1 - خطوات التحقيق:

ويمرّ التحقيق في سجن المحكمة بمراحل عدة قبل الانتقال إلى التعذيب. ويبدأ عادة بجلب المتهم إلى قاعة المحكمة ليمثل أمام القاضي والمحققين فيستجوبونه ويشجعونه على الاعتراف بعرض شهادات الشهود. فإذا أنكر لجأ المحققون إلى التهديد والتخويف، وأنزلوه إلى القبو وعرضوا عليه آلات التعذيب وربما الحالة التي وصل إليها من لم يعترف بعد في تلك الأقبية. وربما أصر المتهم بعد كل هذا على براءته فتبدأ مرحلة جديدة فاتحتها عرض قائمة الاتهامات الموجهة إليه واللجوء إلى أساليب نفسية عدة لضمان اعترافه. ومن ذلك تغيير الأسئلة التي يطرحها هذا المحقق أو ذاك، وتغيير لهجة مخاطبة المتهم فربما استخدم محقق لهجة قاسية واستخدم آخر الليونة، وربما أمطره المحققون بعشرات الأسئلة، وربما تركوه في الزنزانة ساعات أو أياماً بطولها من دون توجيه كلمة واحدة له، وربما وضعوا معه متهماً آخر هو في الحقيقة جاسوس للمحكمة فيحاول استدراجه إلى الاعتراف. وإذا ظل المحققون بعد كل هذا يعتقدون أن المتهم لم يصرح بالحقيقة فإن المرحلة الأخيرة هي انتزاع اعترافاته بالقوة[2]. وان الهدف العام للتعذيب سواء كان عضوياً أو نفسياً هو انتزاع الاعتراف من المتهم تمهيداً

1 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 218.

2 - رستن، جيمس، محاكم التفتيش في اسبانية، ص 232.

لمحاكمته وتوقيع العقوبات الجسدية أو المالية أو النفسية في حقه لضمان نقاوته الروحانية.

2 - عدم وجود قانون للمحكمة:

إن السمة الغالبة لهذه المحكمة هو عدم وجود قانون عقوبات خاص بالمحاكم لذا كان الحكم يعتمد على رأي قاضي المحكمة الذي تُركت له مهمة تقدير جرم المتهم والعقوبات المناسبة. وكان القاضي يأخذ في العادة برأي مساعديه وربما استشار قضاة آخرين في الحالات الخاصة. وأحياناً تكون القضية متصلة بالهرطقة لكنها تحمل جانباً سياسياً أو أمنياً، كما في حال «البروتستانت» أيام «فيليب الثاني»، وعندها يتم تحويل مثل هذه القضايا إلى المجلس الأعلى لمحاكم التحقيق الذي يبت فيها. ويتألف هذا المجلس عادة من ستة أو سبعة أشخاص يعينهم الملك أو الامبراطور كلهم بإستثناء المحقق العام الذي يعينه البابا، وربما أخذ في الاعتبار رغبة الملك الإسباني في هذا التعيين، وربما انحصر دوره بالموافقة على من يرشحه الملك[1]. وفي معظم الحالات كان الحكم يبقى في نطاق محاكم التحقيق فلا يحق للمحكوم عليه الاستئناف، ولا تملك المحاكم المدنية حق الاعتراض على الحكم الصادر أو تغييره بل لا يستطيع حتى البابا إلغاء حكم لا يريد المحقق العام إلغاءه. ويمكن أن تُبقي المحاكم السجين في سجونها سنوات، ويمكن أن تطلقه بعد يوم. وإذا صدر الحكم وكان بالسجن لمدة قصيرة فربما ابقته المحكمة في سجنها، وربما وضعته في دير في حالات خاصة. أما في حالات السجن مدداً طويلة، أو في حالات الحرق أو العمل في القواديس، فكانت المحاكم تسلّم المحكوم عليه إلى السلطات المدنية التي تنحصر مهمتها في تنفيذ أمر محكمة التحقيق في مدة أقصاها خمسة أيام[2].

---

1 - رائف، أحمد، وتذكروا من الاندلس الإبادة، ص 343.

2 - بشتاوي، الأمة الاندلسية الشهيدة، ص 219.

وكتب «ديستويفسكي» و«ادغار ألان بو» وغيرهما كثيرون عن فظائع محاكم التحقيق الإسبانية وصوروا أجواء أقبية التعذيب وأنواعها والكوامن النفسانية للقائمين عليها. إن عمال محاكم التحقيق لم يعذبوا فعلاً أندلسيات لا لشيء إلا لأن جمالهن كان يمكن أن يغوي الصالحين الكاثوليك، ولم يعذبوا أندلسياً لأنه كان لا يحب لحم الخنزير، ولم يأمروا أهل الميت اليهودي المتنصر المتهم بممارسة الهرطقة خلال حياته بنبش قبره ووضع رفاته في كيس لإحراقه إلى جانب المدانين الآخرين، ولم يدفعوا الأسياخ المحماة في جسد ضحاياهم، ولم يدفنوا البروتستانت في هولندا أحياء، ولم يوصوا بإحراق المتهمين، فإن طبيعة المخالفات التي جرى إحراقهم بسببها ستثار اليوم مجرد الاستغراب أو تتصف بالطرافة وربما لا تستدعي أكثر من مجرد توجيه إنذار أو تحذير[1].

وربما مات المتهم قبل أن يعترف فيفلت من قبضة العمال لكن تسعة من بين كل عشرة يدخلون قصور محاكم التحقيق كانوا يعترفون في مرحلة أو أخرى، وأحياناً بذنوب وممارسات لم يُقدموا عليها لا لشيء إلا للخلاص من التعذيب. أما العاشر فهو بطل أو مُغفل. وإذا حصل المحققون على الاعتراف وسجله الكاتب فإن محققين آخرين يطلبون من المعترف الإقرار بما اعترف به في مرحلة لاحقة ولا تكتمل القضية إلا بهذا الاعتراف النهائي[2]. وبعد ذلك تعرض القضية على قاضي محكمة التحقيق الذي يقرر العقوبة التي ربما اشتركت السلطات المدنية والكنسية في متابعة بعضها. وكان الحرق مع مصادرة الأملاك العقوبة القصوى التي نزلت بالآلاف، إلاّ أن العقوبات الأخرى كانت متدرجة ومتفاوتة كالجلد أو مصادرة الأملاك أو العبودية أو الحبس مع الأشغال الشاقة وغيرها المئات[3].

1 - الكتاني، علي المنتصر، الصحوة الإسلامية في الأندلس، مؤسسة اخبار اليوم، قطر، ، ط1،ص 41.

2 - عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 335.

3 - بشتاوي، عادل، الأندلسيون المواركة، ص 217.

8- أساليب التعذيب وأدواته

إن التعذيب الذي تعرض له سكان غرناطة يعجز اللسان عن وصفه نظراً لبشاعة هذه الأفعال، فقد كانت قاعة التعذيب مظلمة رطبة، جدرانها سوداء، وقد ثبتت فيها مسامير ناتئة قد صدئت، بابها من الحديد السميك، وفي أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات في الأرض. وكانت تلك السلاسل لربط المذنبين حين تعذيبهم، وإلى جانب ذلك مجالد من الجلد المعقود على رصاص ودواليب، وأدوات حادة لتمزيق الأجساد، وعضاضات حديدية لعض اللحم، ثم أكاليل حديدية ذات مسامير حادة ناتئة من الداخل تطوق بها جبهة المعذب يأخذ المُعذب بتضييقها شيئاً فشيئاً بواسطة مفتاح يدور بلولب حتى تغرز المسامير في الرأس.

ثم هناك كلاليب ذات رؤوس حادة لسحب أثداء النساء من الصدور، وآلات لسحب اللسان من أصله، وأخرى لتكسير الأسنان، وأحذية حديدية تُحمى لدرجة الإحمرار يُلبسونها لمن ساء حظه ووقع في يد أولئك الوحوش، وأحذية من نوع آخر ذات مسامير من الداخل يضعونها في رجل السجين والموكل بالتعذيب يأخذ في تضييقها حتى تغرز في اللحم، وأسياخ حديدية مختلفة الأشكال لتُحمي في النار وتسعمل لكيّ المُعذَّب[1]. ومشنقة معلقة في السقف لشنق المعذَّب نصف شنقة، فلا هو حيّ ولا هو ميت.

وأيضاً سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلقة أيضاً في نواحٍ مختلفة في السقف ليُربط فيها السجين، فتتجاذبه وتمزق أعضاءه تمزيقاً من جهات عدة، وتابوت كان يسمى بالسيدة الجميلة وهو عبارة عن خزانة حديدية يقف فيها المُعذَّب وفي بابها ست من الحراب القصيرة المثبتة. فإذا ما أغلق ذلك الباب بقوة دخلت حربتان في عيني المعذب فتنفذان من مؤخرة الجمجمة، وتدخل حربة في قلبه وأخرى في معدته وآخريان في بطنه[2].

كذلك وُجدت آلات كثيرة لطي الإنسان وكسر عظام ظهره، وأخرى لإنزال

1 - مظهر، علي، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، ص 84.

2 - بشتاوي، عادل، الأندلسيون المواركة، ص 217.

نقط الماء البارد على رأسه بعد حلق شعره حتى يجن بعد ساعات أو زمن قليل. ومطارق ثقيلة لسحق الرؤوس، إضافة إلى صليب سمي بصليب أندراوس لصلب ضحايا التفتيش، ثم مائدة كبيرة وضعت في زاوية البهو عليها ملاءات بيض وبجانبها برميل للماء. فإذا ما أُغْمِيَ على السجين من شدة الألم يضعونه عليها ويلفونه بملاءة تبل بالماء البارد لإنعاشه حتى إذا ما استفاق أعادوا تعذيبه[1]. وفي وسط القاعة (الجحش الخشبي) لربط السجين إليه حتى تزهق روحه بواسطة التضييق على رئتيه، فكانوا يطوّقون صدره بآلة حديدية ثم يأخذون في تضييقها حتى تنقطع أنفاس المُعذب[2]. كما كانت أرض القاعة من خشب قديم ومهترىء نخره السوس تتصاعد منه رائحة كريهة. أما المكان الذي يجلس فيه رجال التفتيش فكان مملوءاً بالصلبان وبالكتابة التي تشاهد على القبور بقصد إلقاء الرعب في نفوس المساجين، وكانت تشاهد دماء من سبقهم وكثيراً ما تركت جثث في زوايا القاعة يحوم عليها الذباب ويتصاعد منها الروائح ليزيد كل ذلك في خوف المُعذَّبين أمام محاكم التفتيش[3]. وقد أحاط بهم رهبان في ثياب سوداء وأغطية سوداء على وجوههم ورؤوسهم لا تظهر منها إلا عيونهم وفي أيديهم كتب صلاة يرددون منها أنغام مخيفة وبأصوات خشنة. وكان يحضر التعذيب طبيب، عمله إنعاش المسكين بشراب ما ليتحمل العذاب. وكان يُحظر على المُعذَّب إبداء أي صراخ أو أنين. وقد اخترعوا لذلك آلة حديدية يضعونها في فم السجين لمنع الصياح، وجعلوا من تلك الآلة مربعاً على هيئة صليب ليتنفس منه ولا يمكنه الصراخ[4].

واقتضى مبدأ الامتناع عن إسالة الدم تطوير آلات غريبة ربما لم تكن إسالة الدم شيئاً في مقابلها منها مثلاً الكرسي الإسباني الذي كان يُجلس عليه

---

1 - رائف، أحمد، وتذكروا من الأندلس الابادة، ص 345.

2 - مظهر، علي، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، ص 86-85.

3 - Circourt, Count Albert, Histoire des Arabes en Espagne, Paris, 1848, Vol 2, page 8

4 - الغزالي، محمد، التعصب والتسامح بين الإسلام والمسيحية، دار نهضة مصر، 2005م، ط6، ص 236.

المتهم وتُربط قدماه ثم تُدهنا بالسمن وتُضرم تحتهما النار حتى تُقليا. ومنها أيضاً الخانوق وكان عبارة عن تابوت في محيطه مسامير تمنع الضحية من الحركة. وشاع استخدام أكياس خاصة توضع فوق الرأس حتى يضيق التنفس، واقتطاع اللحم بكماشات حامية فيمنع سيلان الدم بالكي الفوري، وصب الرصاص على الجلد[1]. وكانت الإجاصة التي يلجأ إليها عمال محاكم التحقيق لمنع المعتقل من الصياح تُستخدم في أغراض تعذيب أخرى، لكن يمكن استبعاد بعض تلك الوسائل التي كانت ستتسبب في إسالة الدم مثل قطع أظافر اليدين والقدمين. فمع عدم إمكان الجزم بأن إسالة الدم لم تحدث خلال تعذيب كل تلك الألوف من الضحايا، كان من أهم مبادىء التعذيب في أقبية محاكم التحقيق، توقف التعذيب فور سيلان الدم. وحققت محاكم التحقيق مع أكثر من 300.000 أندلسي ومئات البروتستانت خلال القرن السادس عشر، لكن الحملة الأولى استهدفت الأندلسيين المُنصرين أو المُتنصرين في قشتالة، لكنها تركزت في صورة أهم على اليهود المتنصرين المعروفين أيضاً باسم (مارانوس) أي الخنازير[2].

- طرق التعذيب في محاكم التفتيش

تنوعت طرق التعذيب وتعددت إلى درجة تفوق الخيال، ومن أبرزها:

1 - ملء البطن بالماء، فيضعون السجين على قطعة من الخشب، وقد ارتفع الجزء الذي يُربط إليه رأسه عن الجزء الذي تربط إليه قدمان بواسطة حبال متينة ويربطون صدره أيضاً بالحبال. ويأتي رجل بقمع يضعه في فم السجين وأمامه آخر يحمل جرة ملأى بالماء، ويأخذ في صب الماء داخل القمع شيئاً فشيئاً والطبيب إلى جوارهما يراقب التعذيب ليرى مدى تحمل العذاب الذي يؤدي إلى قتله اختناقاً. وإلى جوار المسكين يقف أحد القساوسة يأمره بالاعتراف فإذا رفض أمر حامل الجرة أن يزيد في سكب

---

1 - حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس، ص 348.

2 - المرجع نفسه، ص 349.

الماء حتى ينتفخ بطن السجين وتجحظ عيناه ويموت إختناقاً [1].

2 ـ ونوع آخر من التعذيب بواسطة حرق القدمين، حيث يربط السجين إلى كرسي طويل ربطاً محكماً بواسطة الحبال كأنه جزء من الخشب المربوط إليه، ويتركون القدمين خارج الكرسي فوق موقد به نار ملتهبة، والموقد له لولب يرفع النار ويخففها، فإذا ما أصر على الإنكار تركوا قدميه تحترقان، ثم يفكون وثاقه ويأمرونه بالوقوف والمشي، وتستعمل السياط لضربه حتى يصل لسجنه ويقضي نحبه فيه[2].

3 ـ ومن فنون التعذيب أيضاً تفتيت الأعضاء وتكسيرها، حيث يعرى الشخص ويوضع حبل متين في وسطه تحت الإبطين، ويعلق الحبل إلى بكرة في السقف. ثم يجذب الحبل فيرتفع الجسم ثم يترك فيهبط بسرعة مقدار قامة الشخص ويترك بين نهاية الحبل والأرض شبر ونصف متر على الأكثر وتكرر العملية عدة مرات[3].

4 ـ التعذيب بتمزيق الأعضاء، يعلق الرجل أو المرأة إلى السقف وتربط كل يد ورجل إلى حبل مثبت في بكرة في الزوايا الأربع للغرفة، وتوضع أثقال في أطراف تلك الحبال توازي مائة كيلوغرام، فتجذب تلك الأثقال أطرافه، ويبقى معلقاً في الفضاء حتى تتمزق أطرافه إذا لم يعترف لهم بكل شيء وهم يسألونه أثناء التعذيب، وكلما أصرّ على السكوت زادوا في وضع الأثقال ويبقى كذلك حتى يموت.

5 ـ الدفن على قيد الحياة، وكان يجري أمام الناس، فكانوا يختارون جداراً في طريق كبير أو ميدان عام ويحفرون في ذلك الجدار قبراً يوضع فيه المُعذب ويعاد البناء كما كان.

---

1 ـ رستن، جيمس، محاكم التفتيش في اسبانيا، ص 233.

2 ـ عنان، نهاية المسلمين، ص 328.

3 ـ الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 69.

Circourt, Histoire des arabes d'espagnes, p.9.

6 ـ وكانوا يتركون فتحة صغيرة لكي يراه الناس وهو يموت. وويل لمن أبدى تأففاً أو امتعاضاً من أعمال المحكمة[1].

7 ـ وخصص نوع آخر من العذاب للنساء العنيدات اللواتي كن يشتمن رجال المحكمة. وذلك بتعرية المرأة إلاّ ما ستر عورتها ويأخذونها إلى مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها وهي على هذه الحالة السيئة ولا يمكنها الحراك. وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها كأنما هي جنية لا سيما في الليل. وتترك المسكينة على هذه الحال حتى تجن أو تموت جوعاً ورعباً. وكان رجال التفتيش يعتقدون أن الروح الشريرة هي التي تتكلم في المرأة[2]. حتى أن محاكم التفتيش كانت تحاكم أحياناً الموتى فتنبش قبورهم وتخرج جثثهم لتعاقب وتحجز أموالهم وممتلكاتهم[3].

ـ مواكب الحريق:

يخرج الموكب من ساحة السجن إلى ساحة الحريق، ويتقدم الجمع تلاميذ المدارس الإسبانية في ثياب خاصة برفقة معلميهم من رجال الدين، ويصحبهم ألف رجل يحملون رايات الكنيسة، وإلى جانب كل راية كاهن. ثم جماعة تحمل صور القديسيين وأعلام الجماعات الدينية، ثم السجناء المعذبون وفي رقابهم أغلال. ويسير المحكوم عليهم بالحرق بخطى ثابتة مرفوعي الرأس، وقد كُمت أفواههم وكبلت أيديهم بالسلاسل. ويأتي بعد ذلك صفان طويلان من جند إسبانيا ومن خلفهم الحكام والقضاة ورجال بلاط الملك ونائب الملك أو الملك نفسه، ثم الأمراء وأبناء الأشراف. ومن خلفهم رجال الديوان والرهبان. ويظهر بعدئذ

1 ـ مظهر، محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال، ص 97.

2 ـ مظهر، محاكم التفتيش، ص 98.

3 ـ الكتاني، علي المنتصر، إنبعاث الإسلام في الأندلس، ص 70.

وكيل المملكة الذي صادق على حكم الحرق. بعدها يظهر علم الديوان وكان من حرير أحمر يرفع على صليب ويتقدم العلم رئيس الديوان الذي بين شفتيه الموت أو الحياة يحيط به الجند شاهرين حرابهم ومستلين سيوفهم[1]. ويسير خلف هؤلاء الشعب، وفي الميدان الكبير تُعد كراسٍ مذهبة لجلوس الملك ورجال البلاط والحكام والأمراء. ويقف صفان من المحكوم عليهم حرقاً أمام مكان جلوس الملك وهم في إنتظار الحرق. وقد أعد الحطب أكواماً مكدسة.

وبعد وعظ الكهنة للمحكومين، يصل رئيس الديوان ويتقدم إلى الملك فيخاطبه، ويتلى الحكم على مرأى ومسمع الجميع، ويأمر رئيس الديوان بترتيل مزمور مطلعه: (ارحمني يا رب كما شاءت رحمتك). أما مكان الحرق فعبارة عن أربعة أعمدة وأحياناً عمود واحد، وحوله أكوام الحطب في علو ثلاثة أمتار من الأرض ويكون على هيئة مصطبة مربعة. فكانوا يوثقون المحكوم إلى هذا العمود، ويربطون حبلاً في رقبته ويربط الحبل إلى العمود. ويلف الجلاد الحبل حول رقبته عدة مرات حتى يختنق المسكين، وأحياناً تشد الحبال إلى وسطه وتترك النيران تأكله وهو حيّ[2]. ثم يصعد كاهن يحمل صليباً من العاج ليقبله المحكوم قبل حرقه بقليل. وإذا ما انتهى الكاهن من عمله أضرمت النيران دفعة واحدة في الحطب بينما يصلي الكهنة يبحث جواسيسهم في وجوه الناس عمن أظهر عطفاً على المحروقين، أو أبدى أي إشارة اشمئزاز ألقي القبض عليه، وكثيراً ما كان يُضم إلى المحروقين[3].

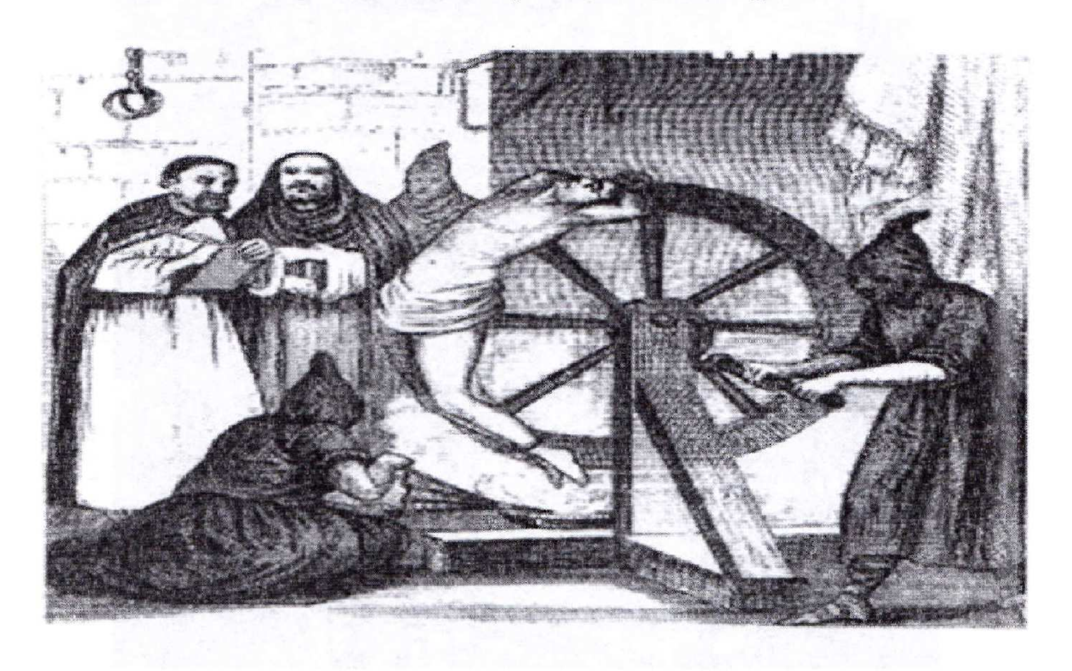
1 - مظهر، علي، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، ص 127.

2 - المرجع نفسه، ص 128.

3 - عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 338.



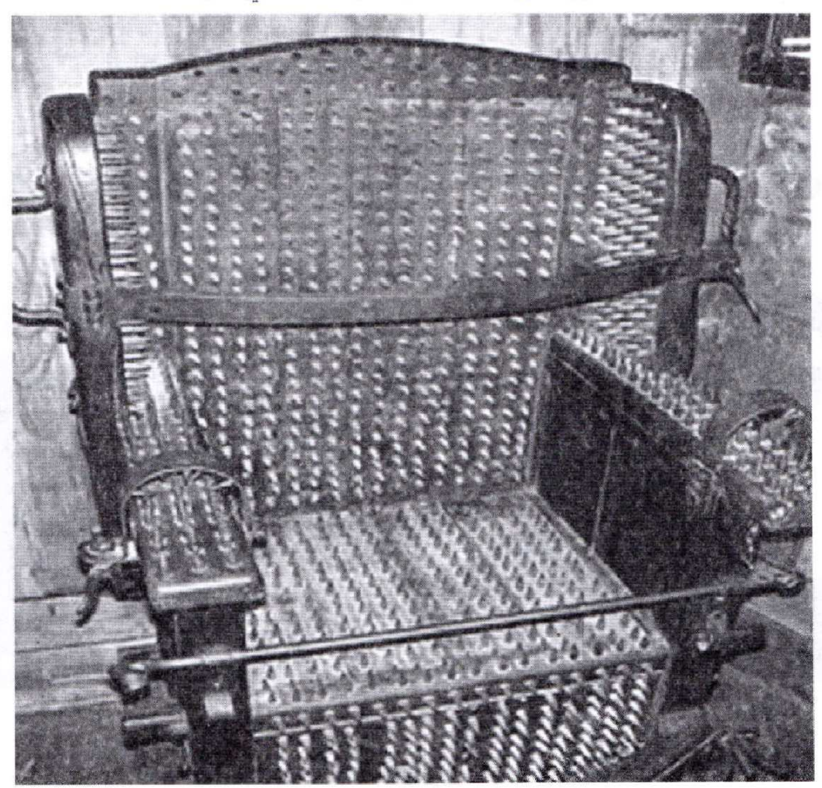
إحراق المسلمين بعد إدانتهم من قِبل محاكم التفتيش



من طرق التعذيب لإنتزاع اعترافات الضحية



تعذيب امرأة مسلمة بسكب الماء في فمها



كرسي مصنوع من المسامير لتعذيب ضحايا محاكم التفتيش،

موقع انترنت مدونة ثورة الغضب

تابوت السيدة الجميلة وهو من أدوات التعذيب



إحدى وسائل التعذيب

9- نماذج من التهم المنسوبة للموريسكيين

تحولت إسبانيا إلى بؤرة جواسيس ووشايات حيث يذكر «لوجين بيليتيان» في كتابه «ديوان التفتيش» أن مسيحية أبلغت الديوان بأن أحد المتنصرين المسمّى خوان مدنيا قد عاد لإسلامه وكان ذلك في شهر كانون الأول سنة 934هـ/1528م وقالت أنها كانت تسكن مع أسرته، ولاحظت أنهم لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمور أبداً. وأنهم يغسلون أقدامهم وأرجلهم حتى الوسط كل يوم سبت وأحد. وكان خوان هذا رجلاً هرماً جاوز السبعين من عمره. فاستدعته محكمة التفتيش ببلد الوليد لاستجوابه فقال: بأنه اعتنق الكاثوليكية سنة 908هـ/1502م في العام نفسه الذي نفي فيه المسلمون من تلك الجهات. وقال: بأنه لا يذكر أنه مارس شيئاً من تقاليد المسلمين وعاداتهم. أما عن امتناعه عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر فذلك لأنه لم يعتد ذلك وقد نصر وهو في سن متأخرة عندما كان في الخامسة والأربعين، وعند مثل هذا العمر لا يسهل تعود شيء جديد. وهو يستحم مساء السبت وصباح الأحد لأن حرفته تضطره لذلك. وبين السبب الذي دعا المرأة التي قالت في حقه ما قالت: أنه حزازات في نفسها وسوء أخلاقها وقرّر بأنها كثيراً ما تكذب وأراد الاستشهاد بعدة متنصرين أمثاله لإثبات ما يقول، فأبت المحكمة أن تستمع منهم شيئاً. ولم يفد الرجل تأكيده بأنه شديد الإخلاص للكثلكة، ولا في التجائه إلى المجلس الأعلى وقررت المحكمة إحالته على التعذيب. فإذا أقرّ بكفره كان ذلك سبيلاً لإعادة النظر في أمره. أما إذا أصر فجزاؤه الغرامة. وهدّدته المحكمة بالتعذيب وأُخذ إلى قاعة العذاب وجرّد من ثيابه، ورغم ذلك كله فإنه أصر على أقواله، وقال بأنه مضطر لنقض ما يقول لخوفه، فجلد وسير به في موكب حريق إرهاباً له وقضي عليه بغرامات وأموال يدفعها[1].

كذلك قُبض على شيخ متنصر وهو في سن السبعين سنة968هـ/1560م لأنه كان يطالع كتباً عربية في التوحيد الإسلامي، ولم ينكر الرجل التهمة ولكنه

1 - مظهر، علي، محاكم التفتيش، ص 112، قطب، محمد علي، مذابح وجرائم محاكم التفتيش، ص 107.

عارض في اعتباره كافراً، فحكم عليه بالحرق وزج به في السجن حتى يوم التنفيذ. ولما كان الشيخ مريضاً فإنه توفي في السجن. فأقدموا على حرق تمثال يرمز له ولكنهم عادوا وقضوا بإخراج جثته من القبر وإحراقها علناً في حفلة الحرق. وأن يلحق كفره وإثمه ذكراه فتبقى ملوثة، وتلحق أسرته فلا يباح لأحد أبنائه أن يتقلد مناصب أو أعمال[1].

وأيضاً أُحرقت متنصرة سنة 982هـ/1575م لاتهامها بالكفر والإلحاد وقد أجبرت على الاعتراف بذلك تحت تأثير التعذيب في سجن الديوان ثم عادت فأنكرت اعترافها ولكن لم يُفد كل ذلك أمام قسوة قلوب رجال الديوان[2]. ومن التهم الغريبة أن فلاناً أنشد أغاني عربية أو أنه يكثر من الاستحمام كما هو عند المسلمين، أو لدفاعه ولو بكلمة واحدة عن محمد بن عبد الله أو لتكفين ميت بأثواب جديدة أو الامتناع عن أكل لحم خنزير وشرب النبيذ وصبغ اليد بالخضاب أو لاقتنائه كتباً عربية أو لقيامه إلى الصلاة أو صومه أو لوضوئه أو لوجود أوراق باللغة العربية أو قرآن عند المتهم فكان العقاب شديداً من إرهاب وحرق وجلد ومصادرة وتعذيب وتشهير بإركاب المتهم حماراً وقد علق على ظهره لوحة فيها اسمه وتهمته. ثم يطاف به في أرجاء المدينة. وقد تفنن رجال الديوان في أحكامهم وفي تعذيبهم تفنناً عجيباً[3].

- من محاضر محاكم التفتيش:

هذه بعض النماذج من التعسف الذي تعرض له المسلمون في اسبانيا ومنها ما حصل مع «ماريا كليمنتي» ومع سجين موريسكي.

أسهمت المرأة المسلمة في الأندلس دوراً حاسماً في حفاظ الأندلسيين على دينهم الإسلامي رغم ما انطوى عليه هذا الدور من مخاطر أدت إلى أحيان كثيرة

---

1 - الكتاني، علي المنتصر، الصحوة الإسلامية في الأندلس، ص 42.

2 - المرجع نفسه، ص 23.

3 - مظهر، علي، محاكم التفتيش، ص 114.

إلى الموت حرقاً على يد رجال محاكم التفتيش الكاثوليك، الذين اجتهدوا في الفتك بالموريسكيات، لعلهم بذلك يجتثون جذور دين يأبى إلا البقاء في صدور قوم أجبروا على التنصر بقوة الحديد والنار.

فهذه «مارية كليمنتي أورسكا Maria clemente Orasca» أرملة «لويس دي مدينا Luis de Medina» تجاوز سنها الخمسين سنة أحرقت حية في 921ه/1585م أي بعد مرور 92 سنة على سقوط آخر دولة للإسلام بالأندلس بيد النصارى الكاثوليك، على يد محكمة التفتيش بلوغروني Logrono، تهمتها أنها قامت بتربية ذريتها على الدين والثقافة الإسلامية، حيث علّمت سوراً من القرآن الكريم لأطفال صغار ونبهتهم لواجباتهم الدينية[1]. لم تنكر مارية رحمها الله هذه التهم أثناء التحقيق معها، واعترفت بمسؤوليتها في نشر التعاليم القرآنية واستجابة أفراد اسرتها لدعوتها.

كان أحد الموريسكيين مودعاً في أحد سجون محكمة التفتيش الظالمة في طليطلة في حجرة مظلمة وادخلوا عليه مبشراً مسيحياً معتقلاً. شعر المبشر المسيحي بالإهانة لأنهم تجرأوا عليه وادخلوه السجن فأخذ يركل الأرض بقدميه ويطلق الشتائم على أعضاء محكمة التفتيش. بعد لحظة هدأ غضبه وأدار وجهه فوجد الموريسكي جالساً فوجدها فرصة للحوار فقال له «لقد قرأت منذ فترة كتاباً نسميه (ضد القرآن) ووجدت فيه معجزة انشقاق القمر ودخوله في كم الإزار وهي المعجزة التي يتحدث بها المسلمون. أنت تعرف أن القمر كبير جداً فكيف يدخل في كم الإزار وهو صغير. ألا تظن أن هذا ضلال؟» تحرك الإيمان في قلب الموريسكي الذي كان يدرك قدرة الله فقال للمبشر «سيدي، من الأكبر هل هو الله أم القمر؟» أجاب المبشر «وهل هناك شك في أن الله أكبر من القمر؟[2]» قال الموريسكي «فكيف، والحال كذلك، يدخل الله في مجرى التنفس وهو أصغر من الكم؟ الا يمكن للقمر إذن أن يدخل في كم الرداء؟» نهض ذلك الشيطان المبشر

1 - نقلاً عن الأرشيف الوطني الإسباني AHN. Ing. Lib 834 f 263 r.

2 - عبد الرحمن، دراسات موريسكية، ص 109.

واشتد غضبه وبدأ يضرب باب الحجرة حتى جاء قائد السجن فطلب مقابلته. حضر أعضاء محكمة التفتيش وحكى لهم المبشر ما حدث مع الموريسكي وأضاف «لو أن هذا الرجل تُرك حياً لتحول الإسبان جميعاً إلى مسلمين» ولهذا حُكم على الموريسكي بالموت حرقاً رضي الله عنه[1].

10- محاكم التفتيش تطارد الموريسكيين خارج الأندلس

استمرت مطاردة الموريسكيين حتى بعد خروجهم من اسبانيا على يد الكاردينال «خمينيس» الذي غادر الموانيء الإسبانية ومعه ثلاث وثلاثون سفينة حربية، وإحدى وخمسون سفينة نقل تحمل أربعة وعشرين ألف جندي اسباني قشتالي، في حملة دينية يرأسها كاردينال، فاستطاع احتلال مدينة وهران الجزائرية[2].

وأسفرت هذه الحملة عن مذبحة مروعة، قتل فيها من الآهالي الآمنين أربعة آلاف، واسترُق عدة آلاف، واغتصبت الفتيات والنساء بمعرفة الحبر الأعظم الذي سجد بين الجثث شكراً للرب على هذه النعمة التي حباهم بها. وهكذا أصبحت وهران أهم قاعدة للإسبان في شمال افريقيا، واحتل «دون بيدرو»[3] المنطقة الحجرية على مسافة ربع كيلو من ميناء الجزائر، فشيد هناك قلعة، وصار في وسعه قصف المدينة بالمدافع التي كانوا يوجهونها إلى مآذن المدينة للتسلية واختبار دقة التصويب أثناء الآذان[4]. إثر هذه الأحداث أمر خمينيس بإنشاء محاكم التحقيق في وهران عام 921هـ/1515م والتي انتهى أمرها بعد حين[5].

---

1 - عبد الرحمن، دراسات موريسكية، ص 110.

2 - رائف، أحمد، وتذكروا من الأندلس الإبادة، ص 345.

3 - دون بيدرو: قائد عسكري

4 - المرجع السابق، ص 346.

5 - كليل، صالح، خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الأوسط، رسالة ماجستير، الجزائر، 2007م، ص 48.

11- الموريسكيون في عهد شارل الخامس
(925 - 963هـ / 1519 – 1556م)

إتبع شارل الخامس سياسة تعتمد على : «إقامة السلم بين المسيحيين وإعلان الحرب الصليبية ضد المسلمين»، إذ ان كل الأعمال التي سيقوم بها على الصعيدين الداخلي والخارجي تدخل في هذا الإطار[1]. وقدم النواب الموريسكيون بالمجالس البلدية في غرناطة مذكرة بمظالم إخوانهم تبين مدى الأذى والاضطهاد الذي لحق بهم على يد كاثوليكيي غرناطة، نتيجة الأحكام القاسية التي كان قد أصدرها الملك عام 924هـ/1518م بحق الموريسكيين لكثرة ثوراتهم، فأمر أن تثار هذه القضية في مجلس خاص، وشكل لجنة، ظاهرها تقصي الحقائق وباطنها اختبار مدى تمسك الموريسكيين بدينهم الإسلامي. وقد اختار لهذه المهمة شخصيات مهمة لها وزنها بالمنطقة. وبعد أن تحققوا من الظلم والاضطهاد الذي لحق بالموريسكيين غضوا النظر في تقريرهم عن الجرائم المرتكبة في حقهم إثر تبينهم أن الموريسكيين، بالرغم من المحن المتتالية، لم يكن بينهم من يدين بالنصرانية[2].

وقد رفعوا تقاريرهم عن تلك المظالم إلى الملك، وبعد اطلاعه عليها تبين له أن الموريسكيين كانوا يرغمون على اعتناق النصرانية دون تلقينهم مبادىء الإيمان المسيحي، لذلك اجتمع رجال الدين في إطار لجنة خاصة وقضوا بأن الطريقة السابقة في تنصير الموريسكيين قسراً لم تعد مجدية، فلجأوا إلى أساليب أكثر دهاءً وعنفاً[3]:

1 - نقل محاكم التفتيش من بلدة جيان إلى غرناطة.

---

1 - قشتيليو، محمد، محنة الموريسكوس في إسبانيا، ص 29.

2 - حومد، أسعد، محنة مسلمي الأندلس، ص 239.

CARO BAROJA, (Julio), Los moriscos del reino de Granada, Madrid, 1976, 2 edition, p. 52.

3 - حتاملة، الأندلس التاريخ الحضارة والمحنة، ص 734.

2 ـ إصدار عفو عن كل الذنوب المرتكبة حتى عام 932هـ/1526م ضد الإيمان الكاثوليكي، وينذرون بأشد العقوبات إذا لم يرتدوا عن غيهم.

3 ـ منع الموريسكيين من استخدام اللغة العربية.

4 ـ فرض على كل موريسكي أن يبدل ملابسه حتى تصبح متفقة مع ملابس الإسبان.

5 ـ منع الخياطة على النمط الموريسكي.

6 ـ حظر استعمال الحمامات.

7 ـ منع اقتناء الموريسكيين للعبيد والأسرى لخدمتهم.

استمرت المفاوضات السرية بين ممثلي الموريسكيين والملك، فوافق على ايقاف القرارات مقابل 80.000 دوكات، ولكن إلى حين[1].

إن اتباعه لهذه السياسة كان أملاً في الحصول على التاج الموعود الذي وعد به من قبل البابا في حال انتصاره على خير الدين بربروسا، وقضائه النهائي على الخطر الإسلامي، وفرض السيطرة المسيحية على البحر المتوسط، غير أن وصول أخبار نزول بربروسا في «ماهون» عاصمة «البليار»، واحتلاله لعاصمة الجزر شكك في نجاح مخطط شارل الخامس ليصبح امبراطوراً على المسيحية فقرر الإعداد لحملة صليبية أوروبية ضد الجزائر بمثابة عمل يتوج به حربه ضد الإسلام بتاج النصرانية[2]، فانطلق بالإعداد لمشروع كبير كشف حيثياته للبابا طالباً دعمه ومساندته، فشعر البابا بخطورة ملك إسبانيا على العرش البابوي فعمل على إبعاده بطريقة تقضي عليه، بأن حرضه على العمل بحل مشاكله مع فرنسا، ثم الانطلاق في محاصرة الجزائر كخطوة ثانية. فبدأ شارل الخامس الصراع فوجه أمراً إلى قائده 947هـ/1541م باحتلال مونيه «هنين»

1 ـ الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 75، قطب، محمد علي، محاكم التفتيش، ص 58.

Circourt, Comte, Histoire des arabes d'Espagnes v2, p: 174.

2 ـ حتاملة، محمد عبده، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 728.

وهي مرسى لمدينة «تلمسان»، إزاء هذا الواقع قرر خير الدين توجيه ضربة للأسبان في قواعدهم، ووقع اختياره على مدينة «ماهون» عاصمة جزر البليار، فقاد اسطوله واحتلها، وعاد إلى الجزائر، واثر هذه الانتصارات تناقصت أهمية انتصارات الاسبان في المغرب الإسلامي، طالما أن التهديد الذي تمثله الجزائر ما زال قائماً[1].

استطاع «بربروسا» خلال أربعين سنة أن يصبح سيد البحر المتوسط، وتميز بخصلتين اثنتين عزم شديد ودهاء سياسي وهو المؤسس الحقيقي للدولة الجزائرية[2]. بعد أن علم أن الأوروبيين كانوا يعمدون إلى قطع انوف وآذان المسلمين الذين يقعون أسرى لديهم ويقتلونهم بعد تعريضهم لعذاب شديد، أرسل خير الدين رسمياً إلى حكومات إسبانيا وجنوى والبندقية يعلمهم فيه أنهم إذا استمروا في ممارسة الأعمال غير الإنسانية فإنه سيعامل أسراهم بنفس المعاملة، تظاهر الأوروبيون بقبول تهديده ولكنهم استمروا في نفس الممارسات، فاضطر إلى المعاملة بالمثل فشعرت الدول الأوروبية أنه جاد في تهديداته، واضطروا إلى الإذعان لمطالبه فأنقذ بعمله هذا الأسرى سواء المسيحيين أو المسلمين. ولكن السلطان العثماني استدعاه فأناب على الجزائر «محمد حسن باشا»، وعُين وزيراً للحربية متخذاً اسطنبول قاعدة لأسطوله إلى أن وافته المنية سنة952هـ/1546م[3]. حتى أن بربروسا وصل إلى فرنسا وحوّل مدينة «طولون» إلى مدينة إسلامية[4].

نتيجة فشل سياسة القوة بدأ الإسبان في محاولة امتصاص الفشل بسياسة متعددة الأهداف سواء سياسة الإغراء التقليدية أو محاولة تفكيك الوحدة الطبيعية للمقاومة الإسلامية لمشاريعه:

---

1 - مورو، محمد، الجزائر تعود لمحمد، دار المختار الإسلامي، القاهرة، ط1، 1992م، ص 18.

2 - ابن أبي الضياف، أحمد، اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان، ص 9.

3 - كليل، صالح، خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الأوسط، ص 127.

4 - ابن أبي زيان، ابن اشنهو، عبد الحميد، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، ص 172.

1 - عبر اغراء بربروسا بالسلطة، والذي اشترط على سفير شارل الخامس الانسحاب من المرسى الكبير وهران وبجاية وعنابة وحلق ألواد وطرابلس مقابل كفه عن محاربة الإسبان، وأن يطلق سراح المسلمين مقابل إطلاقه لسراح الأسرى المسيحيين، وأن يكف عن اضطهاده رعاياه المسلمين بالأندلس، وأن يزيل القرصنة من البحر تسهيلاً لتجارة المسلمين. وبعد مفاوضات دامت تسعة أشهر، كاد الصلح أن يعقد بين ملك إسبانيا وخير الدين المتمركز في ميناء «قورفو» باليونان، لولا تدخل الخليفة العثماني الذي رفض عقد الصلح بناء على إلحاح ملك فرنسا الذي يرى فيه خطراً عليه، فانقطعت المفاوضات عام 946هـ/1540م.

2 - بعد فشل شارل الخامس لجأ إلى مخطط آخر عام 947هـ/1541م، وهو إغراء خير الدين بحكم شمال افريقيا كحاكم عام بالنيابة عنه.

ولكن شارل الخامس قرر مهاجمة الجزائر مستغلاً رحيل خير الدين إلى مقر الخلافة بصفة نهائية، وما شجعه قرار البابا «بول الثالث» الذي أشهر الحرب على الجزائريين فقرر شارل الخامس أن يكون بطل المسيحية[1]. ولكن الحملة فشلت وفشل معها حلم الإسبان وملكهم. بعد تصدي خير الدين لحملة شارل الخامس عام948هـ/1541م، علم بربروسا بالاستعدادات، فأمر بتجهيز ثمانين سفينة للتصدي للإسطول الإسباني ومساعدة الجزائريين بأسطول من مائة سفينة، فتعرض الأسطول العثماني لعاصفة ضربت السواحل الإيطالية. فنجا شارل الخامس بأعجوبة من خطر كبير، إذ أنه لولا العاصفة لما تأخر خير الدين ولتمكن من القضاء على اسطول العدوّ المنسحب. وكانت نتيجة الهزيمة أن شوهد شارل الخامس لأول مرة في حياته منهاراً باكياً على الكارثة التي حلت به خاصة بعد أن اتفق كل قادته على تأجيل الهجوم في الاجتماع الذي عقد في رأس «ماتيفو»[2].

---

1 - المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص 281.

2 - جوليان، شارل اندره، تاريخ افريقيا الشمالية، ص 325.

ـ سياسة شارل الخامس الخارجية:

أما على الصعيد الخارجي فقد كان شارل الخامس يعي جيداً الدور الذي يمكن أن يقوم به الموريسكيون في شمال افريقيا بإعاقة حملته الصليبية الكبرى ضد المنطقة[1]. فعند احتلاله تونس في صيف 942ه/ 1535م فرض على الملك الحفصي معاهدة ينص أحد بنودها على: «أن مولاي الحسن لن يقبل في مملكته أحداً من العرب الأندلسيين الموريسكيين الذين اعتنقوا الدين المسيحي، باعتبارهم رعايا جلالته سواء كانوا من بلنسية أو غرناطة أو أي مكان آخر في مملكته، وأن الملك الحفصي لا يسمح لهم بالقدوم وبالإقامة بتونس بل، على العكس من ذلك يطردهم من مملكته ويرحلهم تماماً عن طريق ضباطه ويعتبرهم كأعداء.....» [2].

وحرص شارل الخامس على الاهتمام بالتقارير السرية الإسبانية التي ترده من الجزائر ففي تقرير سري من بجاية في 942ه/1536م ورد ما يلي: «.... يوجد الآن في مدينة الجزائر ألفان من الأتراك، وسبعة أو ثمانية الآف من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى وضع بها بربروس حاميات.....» [3].

ـ الموريسكيون والأتراك:

كان الموريسكيون يتتبعون مدى النجاح الذي حققه العثمانيون، وخاصة بالجزائر التي أصبحت حصناً منيعاً يلجأ إليه المهاجرون الأندلسيون. وحقق خير الدين بربروسا نجاحاً في إنقاذ مسلمي الأندلس[4]. وهكذا فقد هاجم مراراً السواحل الشرقية لإسبانيا، وجمع في سفنه كثيراً من الموريسكيين الراغبين في الهجرة، وأسر الكثير من الإسبان. ومن أهم الغارات التي نظمها خير الدين على

---

1 - محمد مورو، الجزائر تعود لمحمد، ص 17.

2 - المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، مطبعة البعث، دون تاريخ، ص 278.

3 - كليل، صالح، خير الدين، في مواجهة المشروع الاسباني، ص 240.

4 - التميمي، عبد الجليل، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، 1975م، العدد 23، ص 39.

السواحل الإسبانية غارة وقعت عام936هـ/1529م، إذ أرسل نائبيه «أيدين ريس وصالح ريس» إلى المياه الإسبانية، واستطاعت أن تجمع 600 من موريسكيي بلنسية الراغبين في الهجرة[1]. هذه التجربة اقنعته بأن تحقيق هذا الهدف لا يمكن أن يتحقق إلا بقيام دولة إسلامية واحدة في شمال افريقيا يمكنها إعداد القوة الكافية لاستعادة الأندلس فقضى ثلاثة أشهر ينقل المهاجرين الأندلسيين ويخطط لهذا الهدف[2].

استطاع شارل الخامس أن يحصل من البابا على براءة سنة 930ه/1524م أحل فيها الملك من اليمين التي أقسمها عام 925ه/1519م، وحثه على الاهتمام بموضوع تحويل المسلمين إلى النصرانية في مملكة أراغون. ونصح البابا كليمانث السابع الملك بأن يكلف أعضاء ديوان التحقيق بإتمام عملية التنصير. أما إذا اصر أحد المسلمين على التمسك بالإسلام، فيحسن إخراجه من المملكة تحت طائلة استرقاقه مدى الحياة.

فأمر شارل الخامس عام 932ه/1526م بتطبيق قرار «التنصر أو الهجرة» على مسلمي جميع ممالك إسبانيا[3]. وكان الضغط المتزايد على المسلمين يدفعهم إلى المخاطرة بأنفسهم وأولادهم في سبيل الهجرة إلى شمال افريقيا، نجاة بدينهم وحريتهم وأعراضهم، رغم ما في هذه المخاطرة من عواقب وخيمة[4]. فقد كانت الأوامر الملكية تقضي باسترقاق من يقبض عليه وهو يحاول الهرب، واسترقاق زوجته وأولاده، ومصادرة أموالهم. ولكنهم برغم جميع هذه المخاطر كانوا يتسللون باستمرار إلى شمال افريقيا بمساعدة المغاربة، إذ يسجل المؤرخون سلسلة من الهجرات المتتالية:

أول هجرة مؤرخة سنة 936ه/ 1529م، 2200 موريسكي، غادروا

1 - عنان، نهاية الأندلس، ص 389.

2 - الجزائري، محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر، ص 93.

3 - قشتيليو، محمد، محنة الموريسكوس في إسبانيا، ص 34.

4 -Lapeyre, Herri, geographie de L'Espagne morisque, Paris, 1959, PP, 29 -30.

مملكة بلنسية. وفي ذات العام 200 موريسكي من بلدة Olive. أما في عام 939هـ/1532م، 2000 موريسكي غادروا منطقة Cullera[1].

أما المسلمون غير المعمدين، فيجب أن يعمدوا خلال فترة معينة، وإلا أصبحوا عبيداً مدى الحياة.

وقد جمعوا عرب بلنسية في الكنيسة، وأعطوهم عشرة أيام لإعلان دخولهم في الدين المسيحي وإلا تعرضوا للاسترقاق. ولكن المسلمين لم يأبهوا بما سمعوا وشرعوا في بيع أملاكهم وقرروا الهرب للنجاة بدينهم، ولما أدركت السلطات الإسبانية حقيقة الأمر منعت على المسلمين بيع أملاكهم[2].

فاندلعت في أواخر عام 931هـ/1525م ثورة قابلتها السلطات الإسبانية بأعنف وسائل القمع والإرهاب. ولم تتمكن مملكة أراغون من التغلب على الثائرين، إلاّ بعد أن استعانت بجيش من الألمان، وأبلى المسلمون أحسن البلاء في المعارك التي دارت خلال عشرة أشهر، وأدت هذه الثورة إلى قتل عدد كبير من المسلمين، واسترقاق عدد كبير منهم، وهجرة أعداد كبيرة إلى شمال افريقيا، أما الباقون فقد أجبروا على تلقي التعميد[3].

لكن المسلمين لم ييأسوا، إذ أدركوا الوسيلة التي يتغلبون بها على عجرفة الإسبان، ألا وهي بذل المال وتقديم الرشاوي، إذ كان كل شيء في إسبانيا في ذلك الحين يباع ويشتري، الشرف والقانون والأخلاق، حتى أصبح الاعتراف بشرعية أبناء الأكليروس ممكناً. فتابع الفقهاء الذين يمثلون جمعيات المسلمين في بلنسية، تسوية المواضيع المعلقة، فاتصلوا بكاردينال طليطلة، وبديوان التحقيق الأعلى، والامبراطور نفسه، وتوصلوا سنة 934هـ/1528م إلى اتفاق قبل به الملك ووافق عليه ومن أهم بنوده:

1- CARDAILLAC (Louis), Monrisco y Cristianosun enfentamiento Polemico (1492-1642), Madrid, 1979, p.109

2 - حومد، أسعد، محنة العرب في الأندس، ص 169.

3 - رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 82.

- لا يتابع الموريسكيون من طرف محاكم التفتيش خلال أربعين عاماً.
- لا يجبرون على ارتداء الملابس المسيحية خلال عشر سنوات.
- لا يجبرون على استعمال اللغة الإسبانية خلال عشر سنوات.
- السماح بمقابر خاصة.
- السماح للموريسكيين بحمل السلاح[1].

لكن الملك نقض الاتفاق، ويحاول بعض المؤرخين تبرير ذلك بأن الملك اكتشف مؤامرة أواخر عام 935ه/1528م، ومنهم من يجعل سبب نقض الاتفاق حملات المجاهدين البحرية، انطلاقاً من شمال افريقيا، على الشواطىء الإسبانية وجزر البليار[2]. غير أن سياسة شارل الخامس كانت تجنح أحياناً إلى اللين، فنراه في سنة 949هـ/1543م يبلغ المحققين العامين بأنه تنفيذاً لرغبة مطران طليطلة والمحقق العام فإنه أصدر أمراً بالعفو عن المسلمين المتنصرين من أهل مدينة «دلكامبو» و «أريغالو» فيما ارتكبوه من ذنوب الكفر، وإنه يكتفي بأن يطلب إليهم الاعتراف بذنوبهم أمام محاكم التفتيش، ثم ترد إليهم أملاكهم الثابتة والمنقولة التي أخذت منهم[3]. وهكذا لبثت السياسة الإسبانية أمام الامبراطور شارلكان إزاء الموريسكيين، تتردد بين الإقدام والإحجام، واللين والشدة. بيد أنها كانت على وجه العموم أقل عنفاً وأكثر اعتدالاً منها أيام فرديناند وإيزابيلا. وفي عهده نال الموريسكيون كثيراً من ضروب الإعفاء والتسامح، ولكنهم ظلوا في جميع الأحوال موضع القطيعة والريب، عرضة للإرهاق والمطاردة، ولبثت محاكم التفتيش تجد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضل[4].

ونظراً لجهوده حصل حسن آغا والي الجزائر على لقب «باشا» مكافأة له على ما قدمه من جهد وما أظهره من كفاءة وإحباطه للهجمة الصليبية التي قادها

1 - عنان، نهاية الأندلس، ص 356.

2 - هورتز انطونيو، دومنغيز بنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس، حياة ومأساة أقلية، ترجمة عبد العال طه، قطر، 1988م، ط2، ص 30.

3 - LONGAS (Pedro), Vida religiosa de los Moriscos, Madrid, 1915 P. 12.

4 - رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 83، حتاملة، التنصير القسري، ص 91.

شارل الخامس [1]. وكان الموريسكيون يتتبعون باهتمام مدى النجاح الذي حققه العثمانيون، وخاصة بالجزائر التي أصبحت حصناً منيعاً يلتجيء إليه المهاجرون الأندلسيون [2]. هذا ويُلاحظ أن خير الدين قد حظي استحساناً كبيراً من مسلمي الأندلس، فقد جاء في رسالة بعث بها أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 948هـ/1541م ما يأتي: «... وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله، خير الدين وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمعت أهل الإسلام على طاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضمائر، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سبب خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت أيالة طاعة مولانا السلطان......» [3].

ويبدو أن قادة إسبانيا توجّسوا من إتحاد كلمة الموريسكيين مع العثمانيين، فشددوا المراقبة على موانئهم بل ذهبوا بقرار من الملك إلى إنشاء قوات لرد هجمات المغاربة الخطيرة على السواحل الإسبانية[4]. وكان الإسبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب العربي لأمكنهم إنشاء مملكة على السواحل المغربية. وهم بذلك يقطعون الطرق على رسل الموريسكيين إلى اسطنبول لطلب النجدة، وبعد فشل حملة شارل الخامس على الجزائر سنة 948هـ/1541م، والأصداء التي تركتها خاصة لدى المورسكيين، بدأ هؤلاء يتطلعون إلى نجدة السلطان سليمان القانوني [5]. ففي أقل من شهر من هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين بعث مسلمو الأندلس برسالة إلى السلطان العثماني يوضحون فيها:

---

1 - كليل، صالح، خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني، ص 151.

Pamuk Amo ne tary, History of the Ottoman Empire, Camberley , 2000, P144.

2 - التميمي، عبد الجليل، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، 1975، العدد 3، ص 39.

3 - التميمي، عبد الجليل، المرجع نفسه، ص 46-45.

4 - عنان، محمد عبد الله، الآثار الإسبانية الباقية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ط2، ص 96.

5 - رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 86.

أولاً: ما يقاسي الموريسكيون من طرف محاكم التفتيش، والقرارات الجائرة التي سلطت عليهم:

«.... فإن العبيد الفقراء المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وحملة عدتهم 364000 ألفاً، رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكابدة الكفار، وجود أهل الشرك أثناء الليل وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار.....».

ثانياً: الشكاية من أهل المغرب: «....وطالت بنا الأيام، وعاشت فينا يد النكاية والإيلام وخذلنا جيراننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان.....» [6].

ثالثاً: اعتبر محررو هذه الرسالة أن المدد المرسل إلى الجزائر هو تعزيز لقدرة المسلمين، ولذا طالبوا بإعادة تعيين خير الدين باشا على الجزائر ليعمل من جديد على صد العدوان الإسباني، وإنقاذ مسلمي الأندلس: «.... هم عازمون على الجزائر والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله، المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام... وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام لا زال بالعز موصوف وبالبهاء والنصر محفوف بأن بعثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشا إلى الجزائر، فإنه لهذا الوطن نعم ناصر وجميع أهل الشرك منه خايف وحاير .....» [7]. ونتيجة لهذه العلاقات القوية بين الموريسكيين والأتراك وما كانت تسببه من مشاكل تعوق تنفيذ مشروع شارل الخامس فإنه كان يتصور فتح القسطنطينية من جديد وإعادة وحدة الامبراطوريتين الغربية والشرقية لوضع حد لانتهاكات السلاطين هذه الوحدة التي ستتوج عرشه

6 - التميمي، المرجع السابق، ص 45.

7 - حتاملة، محمد عبده، التنصير القسري، ص 92.

بالنصر الخالد، نصر الكنيسة والمسيحية[1].

ان هذه الحمية الدينية المتأصلة في شارل الخامس، هي التي كانت تبلور سياسته والتي كان محورها الأساسي في نظرته ورؤيته وحدة العالم المسيحي التي لا تنفصم، خاصة أنه كان يعتبر نفسه المسؤول والحارس الأول عن سلامة العقيدة المسيحية[2]. وهذا ما جعله أيضاً يعتبر الإسلام عنصر تهديد خطير لمشروعه، وبالتالي يجب تسخير كل الوسائل للقضاء عليه مما سبب له هذه المقاومة الموريسكية العنيفة في الداخل والخارج.

12- الموريسكيون في عهد فيليب الثـاني (963 - 1006هـ / 1556 – 1598م)

حاول فيليب الثاني إتباع سياسة والده من خلال مبادرته إلى وضع حد لخلافاته مع فرنسا وانكلترا، حيث توّج عمله هذا بعقد معاهدة (كاتوكمبريسيس Cateau-Gambrésis) بتاريخ 3 نيسان 24 جمادي الآخر سنة 966هـ/1559م[3]، فأصبح في إمكانه تحويل اهتمامه إلى الخطر الأساسي المتمثل بالعثمانيين وبحارتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط والذي يهدد النظام السياسي والاقتصادي والتجاري للقارة الأوروبية[4]. وقد عبّر السفير الإسباني في البندقية «غارسي هرنانديز» في رسالة بعث بها إلى ملكه يخبره فيها أن العدد الأكبر من الموريسكيين الفارين

---

1 - قشتيليو، محمد، محنة الموريسكوس في إسبانيا، ص 35.

Hugo Hantsch, Le problem de la Lutte contre L'invasion turque dans L'ideé politique génerale de Charles-Quint, P55.

2 - فريد بك، محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقي، دار النفائس، 1981م، ط1، ص 160.

3 - قشتيليو، محمد، محنة الموريسكيون في إسبانيا، ص 68.

Braudel, Fernand, PF les espagnoles et l'afrique du nord de 1492 à 1477 en revue africainne, 1982, P 279.

4 - التميمي، عبد الجليل، الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الايالات المغربية في القرن السادس عشر، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، 1975م، عدد3، ص 13.

الذين نجحوا في عام 967هـ/1560م في الوصول إلى القسطنطينية عبر البندقية قد استخدمتهم تركيا جنوداً ومترجمين وجواسيس، ويبدو أنهم في هجرتهم كانوا ينتظمون تحت رئاسة واحد منهم[1].

وعندما استجوب بعضهم حول علاقتهم مع الأتراك العثمانيين فإنهم أجابوا: «ليس هناك من موريسكي واحد لا يقدم نفسه طواعية للأتراك في ظروف المعاملة السيئة التي تلاحق بها إسبانيا الموريسكيين». ولم تكن المشكلة الموريسكية تنحصر بين طرفين، كما كانت تدعي إسبانيا، بل مشكلة عالمية تؤثر على العلاقات بين القوتين العظيمتين إسبانيا وتركيا، وبالتالي كان على فيليب الثاني أن يتخذ إجراءات أكثر زجرية في حق من يساعد أعداءه[2]. فقد زاد الموريسكيون نشاطهم على الشواطىء، لكنهم كانوا يصطدمون بأنانية العثمانيين، ويجهلون أن فكرة التضامن الإسلامي مضى زمنها وأن سياسة الأتراك إنما هي لصالح الإسلام ومناهضة لسياسة ملوك إسبانيا الكاثوليكية[3]. وانتهى كل أمل بالمساعدة بعد توقيع الهدنة بين الإسبان والأتراك عام 989هـ/1581م وما أعقب ذلك من اتفاقيات. ولم تكن المخاوف في الفترة 997-999هـ/1589-1591م سوى شائعات من الجانبين. والدليل الأكبر على شعور الموريسكيين بالإحباط تجاه الأتراك هو اتجاههم نحو فرنسا اعتباراً من عام 977هـ/1570م[4].

وقد تجلّى دور الزعماء الموريسكيين في البحر، إذ كانوا خير مرشد لإحكام الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية[5]. وهكذا لبثت الغارات البحرية

1 - رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 89.

2 - Braudel, Fernand, (F) la méditerranée etle monde méditérranéen, 2 tomes, 4 édition, paris, 1979, V2, P 279

بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 126.

3 - عبد الرحمن، جمال، دراسات موريسكية، ص 250.

4 - المرجع نفسه، ص 251.

5 - ابن أبي دينار، كتاب المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق محمد همام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967م، ص 192.

عصراً، تزعج الحكومة الإسبانية، وقد زاد عددها واشتد عبثها، بالأخص منذ منتصف القرن السادس عشر، إذ كانت إسبانيا يومئذ سيدة البحار، وكانت أساطيلها الضخمة، تجوب مياه الأطلنطي حتى بحر الشمال وجزر الهند الغربية، وتسيطر على مياه البحر المتوسط الغربية. بيد أنها لم تستطع أن تقمع هذه الغارات التي كان يقوم بها على الأغلب جماعات مجاهدة، من القراصنة المغاربة، في سفن صغيرة، تدفعهم روح المغامرة والاستبسال، وكان اللوم يلقى دائماً على الموريسكيين، ولا سيما سكان الثغور، فهم الذين يمدون هذه الحملات المفيدة بالمعلومات، ويزودونها بالمؤن والعوْن، ويعينون لها موضع الرسوّ والإقلاع، وقد كانت تأتي على الأغلب لمعاونتهم على الفرار إلى ثغور المغرب، وقد كان الموريسكيون على الرغم من اضطهادهم، والتشدد في مراقبتهم، على اتصال دائم بمسلمي افريقيا وأمراء المغرب جميعاً[1].

وفي سنة 966هـ/1559م قام أمير البحر التركي «طرغود»، الذي خلف خير الدين بربروسا في الرياسة، بغارة كبيرة على الشواطىء الإسبانية، واستطاع أن يحمل معه ألفين وخمسمائة موريسكي، وفي سنة 977هـ/1570م، استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع الموريسكيين من بالميرا. وفي سنة 992هـ/1584م سار اسطول من الجزائر إلى ثغر بلنسية وحمل ألفين وثلاثمائة. وفي العام التالي استطاعت السفن المغيرة أن تحمل جميع سكان مدينة «كالوسا». وبلغت الغارات البحرية التي وقعت على الشواطىء الإسبانية بين سنتي 934هـ/1528م و922هـ/1584م ثلاثاً وثلاثين. هذا عدا الغارات المحلية التي كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الموريسكيين المهاجرين[2]. وقد وصف لنا الكاتب الإسباني الكبير سرفانتس هذه الغارات البحرية المروعة في صور مثيرة شيقة، فقد كان هو أيضاً من ضحاياها، إذ أسر في الغارات التي وقعت سنة 982هـ/ 1575م، وحُمل أسيراً إلى الجزائر، ولبث في الأسر بضعة

---

1 - بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 143.

2 - عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 388.

أعوام حتى تم افتداؤه في سنة 988هـ/1580م.

وكان ممن عملوا في الجهاد في البحر في ذلك الحين ضد الإسبان بعض أكابر الزعماء مثل الريس «بلانكيو Blanquillo»، والريس «أحمد أبو علي من اشونية»[1]. وتزايدت البواعث والظروف التي حملت إسبانيا النصرانية، على التوجس من العرب المتنصرين، واعتبارهم خطراً قومياً يجب العمل على درئه والتخلص منه[2].

ويبدو أن السياسة الإسبانية، كانت تعتزم منذ أواخر عهد فيليب الثاني، أن تتخذ خطواتها الحاسمة، في شأن الموريسكيين بعد الذي عانته إسبانيا في قمع ثوراتهم، وتم وضع مشروع لنفيهم في سنة 990هـ/1582م، ولكن مشاغل السياسة الخارجية حالت دون تحقيق مشروعه. وكان قد مضى زهاء قرن على سقوط غرناطة، واستحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد لا تكاد تربطه بالماضي المجيد سوى ذكريات غامضة[3].

أولاً: إضطهاد الموريسكيين في عهد فيليب الثاني:

قضى فيليب الثاني على آخر ما تبقى من السياسة المعتدلة التي حاول أن ينتهجها أبوه، فأصدر عدة مراسيم تبين من جهة مدى الفزع الذي أصابه من غزو إسلامي جديد للمنطقة، وتبين من جهة أخرى مدى التأثير الذي كان يمارسه رجال الكنيسة على الملك لجعل السياسة في خدمة الدين.

وهذه جملة مراسيم أصدرها الملك وكلها تتمحور في اتجاه واحد:

1 - أصدر قراراً في عام 968هـ/1560م يحرم فيه على الموريسكيين اقتناء العبيد السود حتى لا يدينوا بالإسلام. وقد تقدم الموريسكيون بطلبات تظلم

---

1 - Dr. Lea, Henry Charles, History of the Inquisation in Spain, nueva York-London, 1967, V 3, P. 363

2 - عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 393.

3 - بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 307.

إلى الملك يوضحون فيها مدى الآثار السلبية المترتبة عن هذا القرار[1].

2 - صدر في 22 رمضان 970ه/ 14 أيار 1563م أمراً ملكياً:

- يحرّم اقتناء الأسلحة بدون رخصة. ويأمر الموريسكيين بتقديم جميع أسلحتهم لختمها في مدة أقصاها خمسون يوماً، ولا يجوز لأي موريسكي أن يقتني الأسلحة إلا إذا كانت مختومة بخاتم الحاكم العام[2].

وفوّض الملك إلى الحاكم العام لمنطقة غرناطة أمر تحديد العقوبة المترتبة على مخالفات حمل السلاح. وبناءً على هذا التفويض جعل الحاكم العام الإعدام عقوبة للمخالفين، ووافق الملك على ذلك. وقد أدى هذا الأمر إلى مآسٍ كثيرة، وإلى ملاحقات غير مشروعة، وإلى ابتزاز أموال الموريسكيين. ولم يكن أمهامهم أمكنة يلجأون إليها غير الكنائس وأراضي السادة الاقطاعيين، ولكن الملك سد الطريق أمامهم، إذ أصدر أمراً حدد فيه حق اللجوء إلى الكنائس بثلاثة أيام، وحرم على السادة الاقطاعيين إيواء الهاربين. لذلك لم يبق أمامهم غير اللجوء إلى الجبال والانضمام إلى طوائف المنفيين، إذ استمرت تقوم بأعمال فدائية كبيرة بالمنطقة، وتعاظم أمرها إلى أن سيطرت على المنطقة الممتدة من جبال البشرات إلى روندة، وبلغ من جرأتهم أنهم كانوا يصلون إلى أبواب غرناطة. ومنذ ذلك الحين بدأت تختمر فكرة القيام بالثورة وبدأ الاعداد لها[3].

ثانياً: الأوامر الصادرة عام 978هـ/1566م:

أبلغ «البابا» فيليب الثاني ضرورة اتخاذ تدابير صارمة بحق الموريسكيين، وأنه يعتبر الملك مخطئاً في التسامح الذي يبديه في ترك الموريسكيين يمارسون عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية القديمة.

---

1 - الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 76، حتاملة، الأندلس التاريخ الحضارة والمحنة، ص 770، حتاملة، محمد، التهجير القسري، ص 21.

2 - حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 178.

3 - أرسلان شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، ص 297.

وقد تألفت لجنة لوضع الاقتراحات اللازم اتخاذها ضد الموريسكيين. حيث اقترح الرهبان والقساوسة أن تزداد التدابير الواردة في الأمر الملكي الصادر عام 932ه/1526م. فصدرت عدة توصيات منها:

- منع استعمال اللغة العربية، ويمنح الموريسكيون مهلة ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية، ولا يسمح بعد ذلك بالتكلم بها. وكل المعاملات والعقود بهذه اللغة تعتبر باطلة، ويجب تسليم الكتب العربية في ظرف ثلاثين يوماً.
- منع استعمال الألبسة العربية، إذ يستعمل منها فقط ما كان مطابقاً لألبسة النصارى.
- إجبار النساء الموريسكيات على كشف وجوهن[1].
- إجبار السكان على ترك أبواب البيوت مفتوحة في أيام الأعياد لمراقبة ما يجري فيها.
- يمنع الموريسكيون منعاً كلياً من امتلاك العبيد[2].
- هدم الحمامات العامة وكل ما له مظهر جامع أو حمام.

وافق الملك على هذه التوصيات وأصدر أمره بتنفيذها. ورغم المحاولات التي بذلها الموريسكيون سواء في غرناطة أو لدى العرش الإسباني نفسه فإن السلطات الدينية استمرت في تنفيذ القرارات الملكية بكل قساوة معتبرة «أن الموريسكيين جبناء، ولا سلاح لديهم ولا حصون». وبالتالي فإن تطبيق الأوامر الملكية لن يعترضها أي حاجز، لكن الأمر كان على العكس تماماً، إذ اندلعت الثورة الكبرى بغرناطة متحدية بذلك جميع القرارات الصادرة عن العرش الإسباني[3].

---

1 - الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 76.

Guérin, Jacqueline Fournel, les morisques aragonais et l'inquisition de saragosse (1540-1620) these inédite. Montpellier lll, 1980. Pp. 155-176.

2 - رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 91.

3 - قشتيليو، محمد، محنة الموريسكيون في الأندلس، ص 40.

Prescott, Philip II of Spain, P: 12-29.

ثالثاً: الثورة الموريسكية الكبرى 975هـ/1568م:

اندلعت الثورة في أواخر 975ه/1568م ولعل هذا التوقيت كان مخططاً له مسبقاً، إذ أن إسبانيا كانت منشغلة بثورة الأراضي المنخفضة، والسواحل الأندلسية مقفرة بسبب الحرب والخوف من الغارات البحرية الإسلامية[1].

ويتحدث «مارمول كارباخال» عن تفاصيل كثيرة متعلقة بالفظائع التي ارتكبها الجنود المسيحيون ضد القرى الموريسكية، ويعرض لنا جهود دوق «أركوس» لإقناع الموريسكيين المسالمين بعدم الثورة وقبول شروط فيليب الثاني المعقولة[2]. ويذكر أحد المؤرخين عن فيليب الثاني أنه: اضطهد المغاربة، وضيق عليهم حتى التزموا الثورة، فقد أوقدوا نيرانهم على الجبال إيذاناً بالخروج، وكان يمكنهم بما أمسكوه من مخانق حبالهم الثبات طويلاً لو امتدت إليهم يد معونة من إخوانهم أهل افريقيا، ولكن فيليب إستطاع تفريق شملهم، وشتتهم في مقاطعته، ولم تمض سنون عشر حتى صاروا كلهم أرقاء[3]. (وردت مع الثورات)

رابعاً: أثر الثورة على الموريسكيين:

ظل صدى الثورة سنوات يلازم أذان محققي محاكم التفتيش، فكثيرة هي المحاضر التي أوردت ذكر هذا الحدث، إذ كان الموريسكيون يذكرون هذه الحرب باستمرار ويعتبرونها رمزاً إيجابياً لقدرتهم على الثورة. لكن محاكم التفتيش كانت دائماً لهم بالمرصاد، فمجرد ذكر الثورة يؤدي بصاحبه إلى السقوط بين أيدي جلادي محاكم التفتيش، وهذا ما حدث بالفعل لأندرس لوباز Andrés Lopez أحد موريسكيي Yepes والذي أثار أثناء استراحة في الحقل: حوادث بلاده غرناطة والسنوات التي قضاها بها وحرب البشرات الأخيرة، وقد ختم

---

1 - الصباغ، ليلى، ثورة مسلمي غرناطة، مجلة الاصالة الجزائرية، ا1975م، العدد 27،ص 147.

2 - عبد الرحمن، دراسات موريسكية، ص 207.

3 - أرسلان، شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، ص 303.

كلامه «معبراً عن أمله في استرجاع هويته العربية قبل أن يموت»[1].

وكان عدد كبير من النواب قد عرضوا على الملك الأخطار التي يمثلها الموريسكيون ، ويتأسفون أنه خلال عشرين سنة لم يستطيعوا حلّ هذه المشكلة: «ففي أثناء الاجتماعات الأخيرة، رجونا من سموكم السعي للعثور على علاج شامل للمرض الذي يمثله هذا العدد الكبير من موريسكيي غرناطة، وأنه حتى يومنا هذا لم نعالج الموضوع، وان الوضعية ما فتئت تستفحل». غير أنه وجدت طائفة من الشخصيات الإسبانية التي لم تكن راضية على الطريقة التي يتصرف بها الجيش الإسباني أثناء الثورة، وظلت تردد هذا النقد الصريح بإستمرار[2].

وأمام هذه الوضعية ازدادت وحشية محاكم التفتيش، فاستخدمت مختلف وسائل القمع ضدهم، إنها كما يذكر «رفائيل كراسكو»: «تهدف، بكل بساطة، إلى التصفية النهائية للموريسكيين بالمنطقة» خاصة أن فكرة الطرد بدأت تفرض نفسها منذ الثمانينات، فقد اجتمع مجلس الشورى الإسباني في لشبونة سنة 990هـ/1582م، وقرر أن أي حل ممكن في هذا الشأن[3]. كما ذكر الشهاب المجري أيضاً ما يأتي: «.... وهذا فيليب الثاني أمر في بلاده كلها قبل خروجي منها أن يذمموا[4]جميع الاندلسيين صغاراً أو كباراً، حتى التي في رحم النساء، بظهور الحمل، ولا علم لأحد ما السر في ذلك، ثم بعد ذلك بنحو السبع عشرة سنة عملوا زماماً[5] آخر مثل الأول، كما أعلمونا بمراكش، ولم يدر أحد السر في ذلك حقيقة، ولكن قال لسان الحال أنهم أرادوا ان يعلموا إن كانوا في زيادة أم لا؟ ولما

1 - Cardaillac, Louis, Morisques et chrétiens, un Affrontement polémique (1492-1640) Paris, 1977, P16

2 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 98.

3 - رزوق، المرجع نفسه، ص 99.

4 - يذمموا: يسجلون

5 - زماماً: إحصاء

وجدوا زيادة كثيرة أمروا بقرب ذلك بإخراجهم»[1].

وعلى كل، وإن لم تنفذ فكرة الطرد في عهد فيليب الثاني إلا أنه سار خطوات في رسم القرار النهائي الذي سيصدر في عهد فيليب الثالث سنة 1018هـ/1609م.

1 - الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، 1987م، ص 106.



الفصل الثالث

طرد الموريسكيين من الأندلس وأماكن انتشارهم

أ ـ الموريسكيون في عهد فيليب الثالث

ب ـ الموريسكيون وأماكن انتشارهم

1 ـ المغرب

2 ـ الجزائر

3 ـ تونس

4 ـ مصر

5 ـ تركيا

6 ـ أميركا

7 ـ ايطاليا

8 ـ فرنسا

9 ـ لبنان

ج ـ أثر الموريسكيين في الأندلس خلال فترة الاضطهاد في مجال:

1 ـ الزراعة

2 ـ التجارة والحرف والنقل

3 ـ الطب

د- الأثر العمراني في مجال:

1 - القصور في غرناطة

2 - الدور

3 - الحمامات

أ-الموريسكيون في عهد فيليب الثالث
(1006-1030هـ/1598-1621م)

جاءت وفاة فيليب الثاني في مرحلة لم يكن فيها الملك فيليب الثالث راغباً في الحكم، فعهد إلى الدوق «دي ليرما» إدارة دفة السلطات، وبعض كبار رجال الكنيسة الذين عملوا على تنفيذ قرار الطرد [1]، عام 1018هـ/1609م، وأخذوا يتحدثون عن شبكة تجسس تُدار في القسطنطينية، وان الموريسكيين يقضون أوقاتهم في «التآمر وتحدي طبقة الأشراف من المسيحيين القدامى».

أ - البدء بطرد العرب:

إن اضطهاد الإسبان للعرب فاق كل تصوّر، فالملك والكنيسة والجيش والقضاة والموظفون والشعب، كلهم يلاحقون العرب، ويبتزون أموالهم. وكانت السلطة الملكية تسن القوانين الجائرة، بحق العرب ليلجأوا إليها، ويقدموا لها الرشاوى، لتوقف العمل بها، أو تبطلها، ولكنها لا تلبث بعد حين أن تعود إلى اصدار أوامر أخرى، وفي نيتها أن تقبض مبالغ أخرى من المال لتوقف العمل بها من جديد[2]. وقد اعترف المؤرخ الإسباني «دانفيلا اي كويادو»: «أن كل شيء في إسبانيا، في ذلك الحين، كان يباع: القضاء والشرف والاخلاق، حتى أصبح يمكن الاعتراف بشرعية أبناء الاكليروس. وكان تطبيق القوانين والأنظمة مصدر إثراء وربح للقضاة والموظفين والحكام»[3].

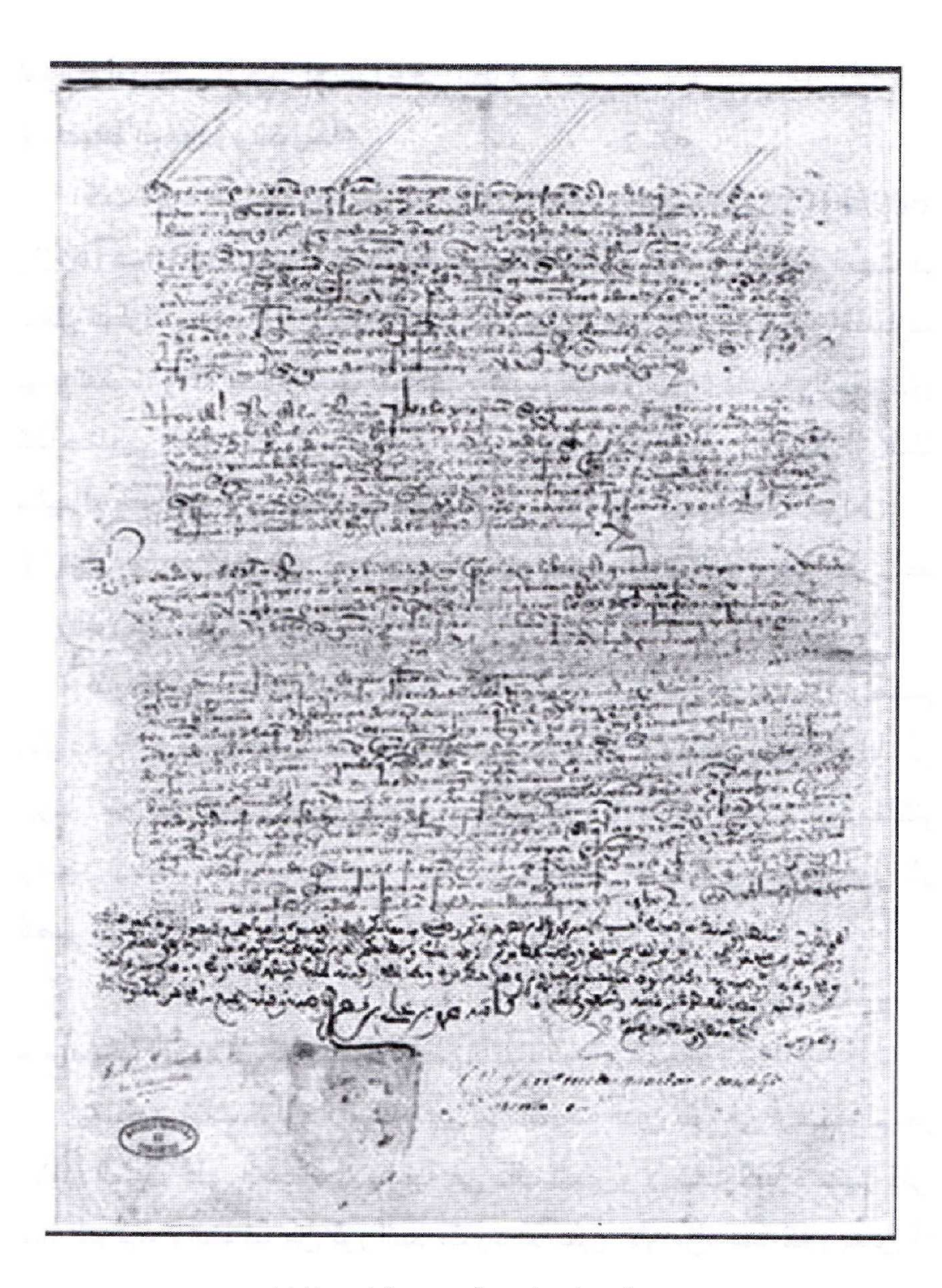
1 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون، حياة ومأساة اقلية، ص 180.

2 - حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 350.

3 - Danvilla Y COLLADO, D. Manuel, la expulsion des Moriscos Espagnoles, Madrid, 1882, P. 155

ولكن جميع هذه المعاملات غير الإنسانية، والملاحقات الجائرة والمصادرات، لم تستطع كلها أن تخضع العرب من الأندلس، ولم تستطع حملهم على التخلي عن الأرض التي ترعرعوا عليها، وشهدت حضارتهم ومجدهم. لذلك اتجهت السياسة الإسبانية، بمباركة من الفاتيكان والكنيسة إلى الأخذ بفكرة التخلص من العرب، وطردهم من البلاد. ولكن طرد مئات الألوف من الناس المستقرين، المتمسكين بالأرض، ليس بالأمر السهل الإقدام عليه، وهكذا بقيت فكرة الطرد تظهر وتخبو، إلى أن تم اتخاذ القرار النهائي، ونفذ عام 1018هـ/1609م، بعد أن اتخذت الاحتياطات القوية لضمان نجاحه. ولكن السلطة لم تستطع أن تقدم عليه إلا بعد ملاحقات ديوان التفتيش التي جعلت ذلك الشعب المسكين يتطلع للرحيل خلاصاً من العذاب والاسترقاق[1].

1 - كردعلي، محمد، غابر الأندلس وحاضرها، المكتبة الأهلية، مصر، 1923م، ط1، ص 140.



مرسوم طرد المسلمين في عهد فيليب الثالث 1609م.

طارق سويدان، الأندلس التاريخ المصور، ج1، ص: 490.

أما العوامل التي تدخلت للإسراع في الطرد هي:

1 ـ ضغط البابوية والكنيسة:

نفذت فكرة طرد العرب من إسبانيا على نطاق واسع عامي 1018هـ/1609 و1019هـ/1610م، في عهد الملك فيليب الثالث، وهي فكرة قديمة لمعت في اذهان الملوك والفاتيكان والكنيسة منذ زمن بعيد. فرحب البورجوازيون القساوسة بهذه الفكرة، وعارضها النبلاء لما تجره عليهم من خراب[1]. فالبابا والملك خاييم كانا صاحبي الفكرة منذ القرن الثالث عشر. ويعترف المؤرخون الإسبان أن الملك خاييم لم يقدم على وضع سياسته لطرد العرب إلا تحت ضغط ثلاثة عوامل:

1 ـ أولها ضغط الفاتيكان. 2- وثانيها ثورات العرب 3- وثالثها رغبة الطرد عند البورجوازية والأكليروس[2].

وتتابعت ضغوط الفاتيكان على ملوك إسبانيا لإخراج العرب من أرضهم، وطردهم[3]. وفي 30 ذي القعدة 940هـ/11 حزيران 1534م، أصدر البابا أمراً بابوياً يأمر فيه الأمبراطور شارل الخامس بأن لا يترك العرب في مملكتي أراغون وبلنسية، وأن يطرد من المملكتين جميع من لا يقبلون منهم التحول إلى النصرانية[4].

ب ـ أسباب التردد في تنفيذ الطرد:

إن طرد مئات الألوف أو الملايين من العرب الذين بقوا في أرضهم لم يكن بالأمر السهل على الممالك الإسبانية في ذلك الحين، لأسباب كثيرة منها: كثرة عدد العرب، والخوف من ثوراتهم وتمردهم على الأوامر، مما كان يمكن أن

1 ـ قشتيليو، محمد، حياة المورسيكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ص 23.

2 ـ التواني، عبد الكريم، مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، نشر وتوزيع مكتبة الرشاد، الدار البيضاء، 1967م، ص 589.

3 ـ يوسف اشباخ، تاريخ الأندلس، ترجمة عبد الله عنان، 1940م، ص 362-373.

Comte de Circourt sous la domination des chrétiens, 1846, P. 150.

4 - D. Manuel Danvilla Y COLLADO, P 116

يهدد أمن الممالك وسلامتها بأفدح الأخطار، لا سيما وأن الممالك الإسلامية في المغرب والجزائر ومصر وتركيا، كانت تهدد الممالك الإسبانية بالتدخل لحماية العرب المقيمين فيها. وكان هناك أيضاً مصلحة النبلاء الإسبان الذين كان العرب يعملون في أراضيهم. إذ أن طرد العرب سيخلي أراضيهم تماماً من اليد العاملة النشيطة القادرة على الإنتاج، وبالتالي فإنه سيؤدي إلى إفقار السادة الاقطاعيين. وكان الإسبان يعتبرون عمّال العرب مصدراً للثراء لمن يعملون لديه، لذلك كانوا يقولون في أمثالهم في ذلك الحين: (من عنده عرب عنده ذهب Qulen tiene moro tiene oro). وكان نفوذ النبلاء كبيراً في الممالك الاقطاعية في تلك الأزمنة إذ حملوا الملك فرناندو، على أن يقسم على احترام حقوق العرب، وعدم إزعاجهم، والسماح لهم بممارسة عاداتهم ودينهم ولغتهم، ثم أصبح هذا القسم صيغة متوارثة يلتزم بها ملوك إسبانيا[1].

والملكية نفسها كسلطة ذات مصالح اقطاعية، كانت لها مصلحة في بقاء العرب كيد عاملة تنتج في أرضها وأملاكها. إذ كانت ترى أن المصلحة تقضي ببقاء العرب، ولو إلى حين، كي لا تخرب البلاد، وتخلو من السكان إذا خرجوا منها.

ج - نضوج الفكرة:

إستطاع الفاتيكان بما له من سلطة وتأثير على الملوك الكاثوليك، أن يحث ملوك إسبانيا على تطبيق الطرد، لإرضاء الله في زعمهم، مهما كانت النتائج المادية لذلك العمل. ونقلت الكنيسة رغبتها في تحويل العرب إلى النصرانية، وطرد من لا يتنصر منهم. فوجدها الفقراء، ومن لا يملكون شيئاً، فرصة يمكنهم بها الحصول على ملكيات واستثمارات، إذا ما أُخرج العرب، واحتاجت الدولة إلى من يحل محلهم، فتكوّن رأي عام يطالب بإخراج العرب[2].

---

1 - D. Manuel Danvilla Y COLLADO, P 117

2 - رائف، أحمد، وتذكروا من الأندلس الإبادة، ص 355.

Defournaux, Marcelin, Daily life In Spain In the colden age, P. 18-19.

د ـ بداية الهجرة الطوعية قبل صدور القرار:

إن ترجيح فكرة الطرد قد وصل للأسماع، فبدأ بعض الموريسكيين القيام بهجرة إرادية، وقد اقتنعوا، أنهم بهذه الطريقة يخرجون بظروف أفضل من تلك التي ستحدث بتطبيق قرار الطرد الإجباري، وكان الذين قاموا بهذا العمل من الأغنياء الذين يستطيعون دفع تكاليف رحلة طويلة، وهم يعلمون أنهم سيفقدون الكثير عند إعلان قرار الطرد مع حرمانهم من حمل أموالهم بصورة نقود معدنية، فقد كان إخراج الذهب والفضة جريمة لها عقوبة كبرى في القانون حينذاك[1].

وبدأت تصل أخبار هذا التيار من المهاجرين، الذين قصدوا الشمال لأن الهروب إلى الدول المحمدية كانت تمثل جريمة في نظر القانون، بينما يمكنهم أن يذهبوا عن طريق فرنسا إلى شمال أفريقيا بدون حرج[2]. بهذه الطريقة هرب جزء كبير من البورجوازيين الموريسكيين من فظائع الطرد الإجباري، الذي لم يكن قد قرر حتى بداية عام 1018هـ/1609م[3].

هـ ـ فيليب الثالث ينفذ خطة الطرد:

عندما استلم فيليب الثالث العرش عام 1006هـ/1598م، وضع ثقته في شخص يدعى فرنسيسكو دوسان دوفال – مركيز دانية – فأخذ يتصرف في أمور الدولة كما يشاء، ويطبق سياسته الشخصية. وبناء على جهده حمل مجلس الدولة على الأخذ برأيه في أمر مصير العرب. وفي محرم 1007هـ/ كانون الأول 1599م عقد مجلس الدولة (الكورتس) جلسة بحث فيها مسألة طرد العرب من المملكة وتوصل المجتمعون إلى صوغ اقتراحاتهم المتعلقة بمصير العرب وهي:

1 ـ الحكم على الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و 60 سنة بالعمل في السفن مدى الحياة، وتصادر أموالهم.

---

1 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية، ص 198-197.

2 - Plaidy, Jean, the end of the Spanish inquisition, P 65.

3 - عنان، نهاية الأندلس، ص 398.

2 - إرسال الرجال الذين تزيد أعمارهم عن الستين والنساء إلى افريقيا. ولكن هذا الاقتراح استبعد لعدم واقعيته.

3 - اقتراح يقضي بتحريم الزواج على العرب. واستبعد هذا الاقتراح لمخالفته قوانين الطبيعة.

4 - اقتراح يقول بترك العرب في أماكنهم يعيشون على دينهم وعاداتهم، بعد مصادرة أموالهم وفرض ضريبة ثقيلة عليهم. ولكن هذا الاقتراح لم يؤخذ به أيضاً[1].

و - اتخاذ قرار الطرد:

وفي 17 ذي القعدة 1017هـ/ 21 شباط 1609م، كتب المحققون في مملكة أراغون إلى كاردينال طليطلة، يسألونه عما تقرر بشأن العرب. فكتب الكاردينال إلى مجلس الدولة يسأله بدوره، واقترح أن يبقى الأمر سراً مكتوماً، إلى حين تنفيذه، وأن لا يثار العرب ومباغتتهم بالأمر. واقترح على المجلس أن يعطي تعليماته سراً إلى ديوان التحقيق في أراغون وبلنسية وقطالونيا[2].

ز - توفر الظروف الملائمة:

رأى المجلس أن سنة 1017هـ/ 1609م، هي أفضل السنين لاتخاذ قرار حاسم بحق العرب، نظراً للخلافات الحادة بين زعماء العالم الإسلامي، وانشغالهم بهذه الخلافات عن كل شيء آخر. فسلطان الترك كان مشغولاً في صراع مع ملك فارس، وفي صراع آخر مع ملك مراكش. وملك مراكش مشغول بثورة مولاي زيدان، بالإضافة إلى انشغاله في صراعه مع سلطات الجزائر التركية. ولذلك لم يكن من أمل للتدخل في شؤون عرب إسبانيا. وبعد مداولات، قرر المجلس طرد العرب من إسبانيا، والتدابير التي يجب اتخاذها. ولكن الملك أبقى الموضوع سراً،

1 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 268.

2 - العبادي، عبد الحميد، المجمل في تاريخ الأندلس، ص 183.

وسافر إلى شقوبية، وبقي فيها إلى 3 أيلول[1].

ح - إعلان قرار الطرد:

اتخذ الملك احتياطات أمن مشددة، وحشد قوات تقارب 13000 جندي، ووضع الحصون والقلاع على أهبة الاستعداد الكامل، وشحنها بالمؤن والذخائر، واستدعى قوات الأسطول لتساهم كلها في العملية، ثم أمر بإذاعة الأمر في 23 جمادي الآخرة 1018هـ/ 22 أيلول عام 1609م، وهو يقضي بطرد عرب مملكة بلنسية[2].

ط - محاولة النبلاء أيقاف القرار:

وقّع الملك أمر الطرد في 11 أيلول، ولكنه لم يعلنه إلا في 22 منه، وقد علم النبلاء بالأمر بعد توقيع القرار، وقبل نشره، توجهوا إلى الملك، للمرة الأخيرة، يشرحون له الأضرار التي تلحق بالمملكة من جراء تنفيذ قرار الطرد فرد عليهم الملك شارحاً وجهة نظره، وعرض عليهم أن يعوضهم عن الأضرار التي تلحق بهم، فقال لهم إن أوان المراجعة قد فات لأن أمر الطرد قد أذيع في ذلك الحين في بلنسية، وأنه في طريق التنفيذ[3].

وفي نفس الوقت الذي تم فيه مسعى النبلاء لدى الملك، اجتمع مجلس الدولة بكامل أعضائه وحضر الملك الاجتماع، وكان مما قرره المجلس:

1 - يجب الاستمرار في تنفيذ أمر طرد العرب من بلنسية، وقشتالة، تحقيقاً لخدمة المسيح، ولأمن إسبانيا.

2 - تأليف لجنة من رجال الدين والقانون لتنظر في أمر الأبناء.

3 - اتخاذ اجراءات مشددة لمراقبة كل حركة.

---

1 - عنان، نهاية الأندلس، ص 397.

2 - الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 161.

3 - حتاملة، التهجير القسري، ص 113.

4 ـ تؤخذ الثمار والأموال المنقولة لتنفق في تربية الأولاد.

5 ـ تبقى النساء المسيحيات المتزوجات من عرب مع أولادهن في المملكة.

6 ـ لا يطرد من أصبحوا مسيحيين فعلاً[1].

وعندما عرف النبلاء مواد القرار غيّر المحتجون موقفهم، فقد ورد في إحدى الوثائق ما يلي: «في الحقيقة أن النبلاء البلنسيين الذين كانوا قد حصلوا من مجالس مونثون على وعد بأن تتحول الأراضي المصادرة من الهراطقة والتابعة للأرض الملكية كي تصبح تابعة للنبلاء وتضاف إلى أرضهم مباشرة، وحصل النبلاء كذلك على وعد ملكي بأن الأموال والأشياء التي لا يستطيع الموريسكيون حملها معهم ستتحول إلى النبلاء أيضاً كتعويض لهم عما فقدوه، وبذلك فقد غير السادة والنبلاء موقفهم، بينما كانوا في فترة سابقة يحاكمون ويدانون لدفاعهم عن الموريسكيين، فقد تركوهم وانحازوا إلى السلطة الملكية»[2].

ي ـ تأليف لجنة لدراسة وضع الأولاد:

لم يقرر مجلس الدولة مصير الأولاد فوراً، لذلك أوصى بتأليف لجنة من رجال اللاهوت والقانون للتشاور. ولما درست اللجنة الأمر اقترحت الحلول التالية:

1 ـ الأطفال الذي تقلُّ أعمارهم عن 4 سنوات، ويرى أباؤهم تركهم في البلاد، يجب أن يبقوا، على أن يتم البحث عن أشخاص يقبلون تسلّمهم للعناية بتربيتهم.

2 ـ الأولاد الذين عاشوا منذ زمن بعيد بين المسيحيين، وتعمدوا يمكن بقاؤهم في البلاد.

3 ـ أولاد المسيحيين والمسيحيات، يبقون في البلاد إذا كانت أعمارهم تقل عن ست سنين.

---

1 ـ الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 111، حتاملة، الأندلس التاريخ الحضارة والمحنة، ص 827.

2 ـ هورتز وبنثنت، الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية، ص 201.

4 ـ أما غير هؤلاء من الأولاد، فيجب أن يخرجوا من إسبانيا مع أهلهم، ثم عدلت السن فجُعلت سبع سنين[1].

ك ـ موقف المغرب من مسألة الطرد:

كان المغرب دائماً أملاً وسنداً لإخوانه أبناء الأندلس، وقد تحمل في ذلك أكبر التضحيات وأعظمها، وكان لتدخله عام 479هـ/1086م، الفضل في منع انهيار الدولة العربية في الأندلس، في ذلك الحين، ومد بذلك عمر الحكم العربي 400 سنة أخرى. وفي الوقت الذي أذيع فيه أمر طرد العرب من الأندلس، كانت في المغرب دولة قوية موحدة تضم مراكش وفاس، تحت امرة السلطان محمد الشيخ، وكان من المنتظر، أن تقوم الدولة المغربية بعمل ما في هذا السبيل إذ كانت فعلاً هي الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تحدث أثراً في السياسة الإسبانية. ولكن السلطان كان يواجه خطرين يهددان كيان دولته، أولهما خطر الغزو التركي، من جانب الحكم التركي المستقر في الجزائر. وثانيهما خطر انشقاق داخلي، أحدثته ثورة مولاي زيدان, فاضطر السلطان أن يقترض من إسبانيا عشرين ألف دينار، كما حصل منها على ستة الأف بندقية، وقدم ضمانات للملك فيليب الثالث على الوفاء بالدين[2]. ولما تأكد الملك فيليب من أن السلطان في شغل عنه، وأنه لن يتمكن من فعل شيء، قرر المضي في تنفيذ مخططه. وقد صح تقديره لأن السلطان المغربي لم يتحرك، كما أن الأتراك لم يقوموا بعمل ما[3].

ل- التنفيذ:

قبل أن يذاع أمر الطرد اتخذت الدولة الإسبانية الاحتياطات التالية:

أ ـ أُذيعَ أمر ملكي في بلنسية، يقضي بفرض عقوبات بحق من يسيء معاملة العرب في مملكة بلنسية.

---

1 - هورتر وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 202.

2 - Abdellah, laroui, l'historie du Maghreb, Maspero, Paris, 1970, pp 240-241.

3 - عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 385.

ب - بعدها احتلت السفن الإيطالية والإسبانية، التي اجتمعت تحت إمرة أمير البحر الإسباني بيدرو دو توليدو، بعض الموانىء، وتولت قواتها حراسة المعابر والممرات الموصلة بين مملكتي أراغون وبلنسية.

ج- دعوة أعضاء مجلس الدولة (النواب)، وأمراء الإقطاع وأصحاب الرتب العليا في الدولة للإجتماع مع الملك الذي قرأ عليهم الأمر الملكي الصادر في 23 رجب 1324هـ/11 أيلول 1609م، فرّد عليه ممثلو النبلاء أنهم وإن كانوا يرون خراب أملاكهم، إذ ما خرج العرب منها، إلا أنهم لن يبالوا بذلك، لأن كل همهم منحصر في خدمة الملك، ورفعة الدين، وأمن المملكة[1]، وحل مشكلة التنافر بين الدولة والأقلية المنشقة[2].

وبعد ذلك كتب الملك إلى نبلاء بلنسية يطلب إليهم التعاون معه لإنفاذ مضمون أمر الطرد. كما قام الكاردينال بإذكاء روح الحماسة في القسس، وحثهم على تقديم أكبر عون لانجاح المهمة.

م - تعليمات الطرد:

وأشارت التعليمات الملكية التي أذاعها «المركيز دو كارسينا» إلى الجهود الكبيرة التي بذلت عبثاً لتحويل العرب في مملكتي بلنسية وقشتالة إلى النصرانية، لذلك فإنه سيصار إلى الانتهاء من مشكلتهم كما يلي:

1 - إخراجهم جميعاً من المملكة رجالاً ونساء وأطفالا، خلال ثلاثة أيام. وإذا وجدوا بعد هذه المهلة في الطرق، أو في أماكن أخرى، فيمكن القبض عليهم وتجريدهم مما يحملون من أمتعتهم، وإذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم جاز قتلهم.

2 - وعليهم خلال الأيام الثلاثة الممنوحة لهم أن يلزموا بيوتهم وأن لا يخرجوا منها حتى يأتي إليهم مفوضو الدولة المكلفون بتنفيذ الأوامر.

---

1 - قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش، ص 67، بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 312.

2 - إيبارا، ميغيل انخل، دراسات أندلسية ، ص 81، قشتيليو، محنة الموريسكوس بإسبانيا، ص 81.

3 ـ إذا قبل الجيران أن يخفوا أموالا للعرب، تعرضوا لعقوبة الإعدام.

4 ـ يسمح لهم فقط بأن يحملوا معهم أموالهم المنقولة التي يستطيعون حملها معهم شخصياً، تحت طائلة عقوبة الموت.

5 ـ أما ما لا يستطيعون حمله من أموال ومنقولات وأثاث، فإن الملك أمر بأن تُسلّم للسيد الاقطاعي التابعين له.

6 ـ سمح لستة أشخاص فقط من كل مئة شخص أن يبقوا لتسوية أمور الآخرين المعلقة، على أن يكونوا أكبرهم سناً.

7 ـ بعد انقضاء المهلة المحددة، يلغى الأمر الصادر بتحريم إساءة معاملة العرب[1].

8 ـ يسمح لعشرة من العرب الذين يسافرون في الفوج الأول، بالعودة إلى البلاد لإخبار إخوانهم بالمعاملة التي لاقوها في الطريق من قبل موظفي الدولة المكلفين بمرافقتهم.

9 ـ الأولاد الذين تقل أعمارهم عن أربع سنوات، والذين يرغبون في البقاء، ويوافق آباؤهم أو أولياؤهم على بقائهم يمكنهم ذلك[2].

10 ـ الأولاد الذين تقل أعمارهم عن سبع سنوات والذين هم من أب نصراني، أو أم نصرانية أصلاً، يمكنهم البقاء، وتبقى معهم أمهم، وإن كانت عربية. ولكن إذا كان الأب عربياً والأم نصرانية فيطرد هو مع الأم الأولاد الذين تقل اعمارهم عن سبع سنوات.

11 ـ أما الأشخاص الذين يعيشون مع المسيحيين أصلاً، ويثبت أنهم لم يذهبوا إلى رابطة الجوامع منذ أكثر من سنتين فيسمح لهم بالبقاء.

واتخذت إثر إذاعة هذه التعليمات الاحتياطات المشددة لحراسة المدينة، والأحياء الواقعة خارج الأسوار. وشرع المفوضون بالتطواف على القرى،

---

1 ـ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 398.

2 ـ قشتيليو، محمد، محنة المورسيكوس في إسبانيا، ص 83.

.Dr. Lea: History of he Inquisition in Spain, Vol. III, P. 399

والضياع، والأحياء، لحمل الناس على الإبحار، وترك إسبانيا. وفي 27 أيلول قدم المركيز «دو كارسينا» كشفاً للملك بالعمليات التي تمت، وبأعداد الذين أُخرجوا فعلا. وأبدى بعض النبلاء تعاوناً مع الملك في تنفيذ أمر الطرد.

وخرجت أول دفعة من ثغر «دانية» والثغور القريبة منها، وقد بلغ عددهم نحو ثمانية وعشرين ألفاً، حملتهم السفن إلى وهران، ثم نقلوا إلى تلمسان، وتعددت الرحلات، بعد ذلك من بلنسية ولقنت وغيرها[1].

ن ـ رحلة الموت أثناء الطرد:

لقد رافق تنفيذ عمليات الطرد مآسٍ، وإساءات لا توصف من ظلم، ونهب أموال، واضطهاد من جميع فئات الشعب الإسباني، فقد تعرضوا أثناء عمليات الطرد إلى ما لا يحصى من الجرائم الفظيعة التي ارتكبت بحقهم[2] ومن ذلك:

1 ـ أمرت الدولة بألا يحملوا معهم غير ما يستطيعون حمله شخصياً من متاعهم، أي ما يستطيعون هم حمله بأنفسهم، لا ما يستعان لحمله بدابة أو واسطة نقل أخرى. لقد تركوا أغلب ما يملكون من متاع وأثاث وماشية ومؤن[3]. ويذكر راهب من «بليدة» مدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة، كانت مؤلفة من مائة وأربعين ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى افريقيا، للهرب من الأندلس»[4]، وهذا قول الحق جل وعلا: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴿١٢٠﴾﴾[5]، خير دليل على رفض التسامح الديني.

2 ـ إن الذين لم يأت دورهم في الإبحار راحوا يستعدون للرحلة، فصاروا يبيعون ما لا يستطيعون حمله كي يستعيضوا بحمل النقود عن حمل

---

1 ـ طقوش، محمد سهيل، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 618.

2 ـ قشتيليو، محمد، محنة الموريسكوس في الأندلس، ص 84.

3 ـ بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 312.

4 ـ ا بن سليمان العمر، أحمد، سقوط الأندلس، دروس وعبر، ص 22

5 ـ سورة البقرة، آية 120.

المتاع، فأخذ الاسبان يتربصون للعرب في الطرقات والمسالك التي يمرون فيها ذاهبين إلى المدن لبيع ما معهم، ويسلبونهم إياها، تحت سمع الحكومة وبصرها[1].

3 ـ ثم رأت الحكومة أن بعض الناس كانوا يتمكنون من الوصول إلى المدن وبيع ما معهم، فأرادت أن تقطع هي عليهم الطريق فأصدرت أمراً تحرّم فيه على العرب أن يبيعوا، ما يملكون من حبوب وزيوت، ومواشٍ، وأمرت بأن تصادر منهم، وتسلم للسادة الاقطاعيين.

4 ـ أخذ الشعب الإسباني ينتظم في عصابات تقوم بمهاجمة قوافل النازحين في الطرقات، وتسلبهم ما معهم من قليل المتاع، وتقتل من تقتل منهم، تحت سمع القوات المرافقة للنازحين وبصرها[2].

ولما تزايدت الفظائع المرتكبة، وبلغت حداً لا يطاق، ضج العرب في كل مكان في إسبانيا، بالشكوى، وتوتر الجو، وبدت علائم الثورة والتمرد عليهم، فخافت الحكومة أن يعرقل ذلك الجهود التي بذلتها لإنجاح مخططها، فأمرت بوضع حراسة على جميع طرق المملكة لضمان سلامة النازحين، ولكن ذلك لم يبدل من الأمر شيئاً، إذ أخذت هذه القوات التي كلفت بالحراسة والسهر على أمن النازحين تشارك هي نفسها في عمليات الإغارة عليهم، فأدرك المسؤولون أن ثورة العرب أصبحت وشيكة الوقوع لما حل بهم من ظلم وعسف. وقد كتب المركيز «دو كارسينا» للملك يخبره بأن الجرائم التي يرتكبها النصارى بحق العرب من قتل ونهب وسطو واختطاف تتزايد كل يوم، وان النقمة في أوساط العرب تتزايد بسبب هذه الجرائم[3].

وتقول الروايات الإسبانية إن الملك استاء من هذه التعسفات التي تجاوزت كل حد، وإنه قال لمساعده، إن التدابير التي اتخذتها الحكومة لم تكن كافية لردع المجرمين، ولا بد من إنزال عقاب صارم بهم، أو ببعضهم على الأقل، ليرتدع

---

1 ـ قشتيليو، محمد، محنة الموريسكس في الأندلس، ص 85.

2 ـ المرجع نفسه، ص 96.

3 ـ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 400، حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 367.

الأخرون[1]. ولكن الحكومة لم تقدم حماية جدية للنازحين فانفجرت ثورات في بعض المناطق العربية، ومنها ثورة في «مويلا» و«الأغوار»، واستمرت من 24 أيلول حتى 29 تشرين الثاني، فأسرعت القوات الحكومية لمقاتلة الثائرين، وقطعت الماء عن الوادي الذي احتله الثائرون، وعندئذ أعلنوا استعدادهم لوضع السلاح والنزوح. وتقول الرواية الإسبانية إن الناس تدافعوا إلى الماء وكانوا قرابة سبعة عشر ألف إنسان، ومات كثيرون منهم لكثرة ما شربوا.

وكان الآباء يتركون أولادهم لمن يعرفونهم من النصارى بسبب الجوع، بل وصل الأمر أنهم كانوا يبيعونهم مقابل قطعة من الخبز أو حفنة من التين، وكانوا يمشون في الطريق إلى الرحيل وقد سادهم الضعف، وقد أُخذ منهم ابناؤهم ونساؤهم، وحتى الثياب التي كانوا يحملونها نزعوها عنهم، لدرجة أن أحدهم يصل إلى السفينة نصف عار أو عار تماماً. وكذلك بقي آخرون عبيداً وذلك على أثر البيان الشنيع والفظيع الذي أعلنه الماركيز «دي كارسينا» في صفر 1020هـ/ أيار 1611م ونصه: «نفرض لكل الأشخاص الذين يخرجون في مطاردة أولئك المسلمين 60 ريالاً مقابل كل شخص يحضرونه حياً، وثلاثين في حالة إحضار رأسه، أي في حال قتله»[2].



ازدياد الظلم مما أجبر العديد من سكان الأندلس المسلمين إلى الرحيل إلى المغرب العربي

1 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 204.

2 - المرجع نفسه، ص 206.

المناطق الأخرى التي طرد منها الموريسكيون:

بعد أن نجحت عمليات السلطات الإسبانية في مملكة «بلنسية»، التفتت هذه السلطات إلى تنظيم عمليات طردهم من المناطق الأخرى: غرناطة ومرسية وجيان والأندلس.

أذاع «خوان دو ميندوسا»، في أشبيلية، الإرادة الملكية التي تقضي على العرب المقيمين في مناطق غرناطة ومرسية وجيان والأندلس، بالخروج من المملكة خلال 30 يوماً مع أولادهم ونسائهم، تحت طائلة عقوبة الموت ومصادرة أملاكهم وأموالهم. وسمح لهم الأمر ببيع منقولاتهم على أن يحملوا بدلاً عنها بضائع يشترونها. كذلك سُمح لهم بأن يحملوا من النقود ما يكفيهم للرحلة الى المنطقة التي يريدون الخروج منها. وحرم الأمر الملكي على اهل المناطق المراد إخراجهم، التوجه إلى موانىء أراغون وبلنسية[1].

س ـ طرد عرب قشتالة والاستريمادورا:

إن عرب قشتالة كانوا أقلية مشتتة، ولم يكونوا قادرين على جمع ثروات، فقد كانوا يعرفون نهايتهم واستقبلوها بصبر[2]. وتذكر الرواية الإسبانية أن «كونت سالازار»، قال إن عرب قشتالة والاستريمادورا قد أعربوا له عن قلقهم، وعن رغبتهم في الخروج من البلاد، لذلك صدر أمر ملكي يقضي بالسماح لهم بالخروج إلى حيث يشاؤون خلال 30 يوماً، وسمح لهم بإخراج منقولاتهم، فاختار بعضهم الخروج إلى الأراضي الفرنسية، فسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقود ما يكفيهم للرحلة. وفي عام 1019هـ/1610م خرج من «بورغوس» إلى فرنسا قرابة 16713 شخصاً أكثرهم من أهالي غرناطة[3]. وفي 18 صفر 1019هـ/10 تموز

---

1 - المقري، نفح الطيب، ج2، 617، قطب، محمد علي، محاكم التفتيش، ص 69.

2 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 208.

3 - حومد، اسعد، محنة مسلمي الأندلس، ص 368.

Dr. Lea, the Moriscos, P 364.

1610م، أذيع أمر ملكي يقضي بطرد كل من بقي في البلاد من العرب، بإستثناء النساء العربيات المتزوجات من نصارى وأولادهن، وبلغ عدد الذين اخرجوا من قشتالة أكثر من مئة ألف شخص[1].

أما «استرامادورا» فقد كان عددهم غير قليل يمثلون مجموعة متماسكة، تدفع الضرائب الباهظة، وقد وصلت إلى ستة الآف دوقية في العام، وقد كتب «سلازار دي ميندوسا» بعد طردهم بقليل يقول: «كانوا يتصرفون كما لو كانوا دولة، حيث كان يجتمع مجلس دولتهم في كهف في الجبل، حيث يصكون العملة، وكان أغلبهم بغالين، وكانوا يعرفون كل ما يجري في إسبانيا وربما خارجها، وكان لديهم اتصالات مع المسلمين والأتراك»[2].

ف ـ طرد عرب أراغون:

أصدر الملك في 24 محرم 1019هـ/17 نيسان 1610م، أمراً بطرد العرب المقيمين في مملكة أراغون، ولكن هؤلاء كانوا قد شرعوا في التسلل من البلاد إلى فرنسا، منذ أن أدركوا أن دورهم آت لا محالة. فباعوا ما استطاعوا بيعه من أموالهم وأمتعتهم، وخرج الكثيرون منهم قبل صدور الأمر الملكي[3].

وفي 7 ربيع الأول 1019ه/29 أيار 1610م، اذاع المركيز «دي ايتونا»، أمراً في سرقسطة يقضي باخراج جميع عرب المنطقة، فخرج منهم بناء على هذا الأمر حوالي 22 ألفاً من الموانىء، ولكن الحاكم لم يترك هذه المناسبة تفوت دون أن يستفيد منها، فأجبر كل فرد على أن يدفع له عشرة ريالات (مرابطي). وتقدر الروايات الإسبانية عدد الذين طردوا من أراغون بحوالي 64 ألفا، أما الذين خرجوا من كتالونيا فكانوا بحدود خمسين ألفاً[4].

---

1 ـ حتاملة، الأندلس، التاريخ والحضارة والمحنة، ص 834.

2 ـ هورتز وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 215.

3 ـ حتاملة، الأندلس، التاريخ الحضارة والمحنة، ص 843.

4 ـ الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 168.

ق ـ طرد الموريسكيين من مملكة غرناطة:

وفي 8 محرم 1020ها/22 آذار 1611م، صدر مرسوم ملكي، يذكر الملك فيه أنه قد بقي في إسبانيا عدد من العرب، وأن بعضهم عاد بعد إخراجه. ويأمر المرسوم بأن يخرج من البلاد خلال سنتين، جميع العرب الموجودين في مملكة غرناطة، بدون استثناء. حتى العبيد العرب الموجودون لدى السادة الإسبان، فقد طلب الأمر تحريرهم ليخرجوا مع الآخرين خلال هذه المهلة أيضاً.[1]

ش ـ عرب مرسية:

صدر أمر إخراج عرب مرسية ولكنه لم ينفذ حينما نفذ بحق عرب المناطق الأخرى. ففي 1 شعبان 1020هـ/ 8 تشرين الأول 1611م، صدر أمر بإخراجهم من ميناء قرطاجنة، على ان يشمل الأمر اخراج العرب من موريسكيين متنصرين، ومدجنين. ولكن الأمر لم يذع في مرسية إلا في 19 تشرين الثاني. وخرج من البلاد تطبيقاً لهذا الأمر قرابة 15000 شخص. أما الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ثماني سنوات فقد تركوا في البلاد، وسلموا للمسيحيين لتنشئتهم.

ويبدو أن الأندلسيين استأجروا سفناً بأنفسهم لنقلهم، وفي بعض المعلومات أن 1050 أندلسياً خرجوا من بلنسية بعد سنة التغريب 1018هـ/ 1609م، وأن السلطات نقلت 416 أندلسياً عام 1019هـ/ 1610م[2]، فيما يقول الكاتب الفرنسي «لابيير» إن السلطات رحلّت 33 أندلسياً فقط بين 1020هـ/ 1611م و1021هـ/ 1612م.[3] وفي عام 1023هـ/ 1614م، بعث الدوق دي «ليريما El Duque de Lerma» إلى مستشار أراغون سلسلة تعليمات تتعلق بتنفيذ قرارات الملك

1 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية، ص 210.

2 - وات، مونتغمري، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط2، 1998م، ص 163.

3 - Lapeyre, Henri, Géographie de L'Espagne morisque, SEVPEN, 1959, PP, 180-187.

فيليب الثالث ضد الموريسكيين الذين كانوا ما يزالون في البلاد والذين عادوا إليها بعد التهجير. ووجدت إشارة في دليل عن إسبانيا إلى أن آخر الاندلسيين المرحلين من الساحل الشرقي كانوا من وادي شقورة Valle de Sequra المعروف أيضاً بإسم Valle de Ricote الذي يقع إلى الشمال الشرقي من مرسية إذ بقوا هناك حتى عام 1023ه/ 1614م، أي بعد خمس سنوات من بدء التغريب[1].

وبالرغم من جميع هذه الأوامر فإنه بقي عدد لا بأس به من العرب في إسبانيا. وتقول الرواية الإسبانية إن الدولة تلقت معلومات عام 1032ه/ 1623م، عن وجود عرب بقوا في إسبانيا. وفي عام 1083ه/ 1769م، تلقى ديوان التحقيق معلومات عن وجود مسجد في قرطاجنة يحتفظ به العرب المقيمون فيها. ولكن برغم وجود أعداد قليلة من العرب في نواح متفرقة من شبه الجزيرة الإسبانية، فإنهم لم يبق لهم كيان وأثر في الحياة العامة. وهكذا تمكن الجهل والظلم والارهاب، من طي عَلَم تلك الحضارة المشرقة، التي أنارت لأوروبا سبيل العلم والمعرفة، وأيقظتها من سباتها العميق، وانتزعتها من تخلفها، وأنطوى بانطواء العلم العربي علم الإسلام الذي دخل الفاتحون العرب تحت ظله إلى الأندلس[2].

ص ـ موقف الأندلسيين من النفي:

خلال الشهور القليلة التي سبقت بدء التغريب كان المارّة في أحياء الأندلسيين في المدن الأراغونية والقشتالية وفي المزارع والمصانع التي يعملون فيها يسمعون أغنية حزينة بالقشتالية لم يعرف مؤلفها وترجمتها كالآتي:

يقولون إنّ علينا الرحيل
تباعاً إلى أرضنا الطيبة
هناك الجبال وراء الجبال

---

1 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 319، الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 173.

2 - حومد، محنة مسلمي الأندلس، ص 370.

من التبر والفضة الخالصة

لقد ذلّ من يبتغي طردنـا

لنذهب معـاً إخوتــــي

لنذهب معــاً كلّنـــا

إلى الخير والوفر ياأخوتي

إلى أمة من العُرب مثلنا[1]

وتوضح هذه الأغنية الموجهة في شكل رسالة من الأندلسيين في أراغون إلى إخوانهم في قشتالة أن الأندلسيين كانوا يعرفون أن الحكومة تخطط لطردهم من بلادهم لكنهم لم يعرفوا تماماً تفاصيل الخطة. وهكذا عند نزول الجنود في بلنسية أصاب معظم الأندلسيين الفزع وظنّوا أنهم جاؤوا لإفنائهم. ولا شك في أن معظم الأندلسيين واجه في تلك الفترة وضعاً نفسياً صعباً. وفكّر بالمصاعب التي يمكن أن تعترضه في الخارج، إلا أن معظم الأندلسيين استنتجوا في النهاية أنهم وصلوا مع الإسبان إلى طريق مسدود ولم يعد التنازل ممكناً. ويبدو أن السلطات فوجئت بتوصل معظم الأندلسيين إلى هذه القناعة وفي وقت مبكر، فتجددت مساعي بعض رجالات الكنيسة والنبلاء لإقناعهم بالبقاء وقبول التعميد[2].

ويروي لاجىء تونسي في نص الخميادي: «الحمد لله الذي أخرجنا من بين أولئك الملحدين، فقد كان من الضروري أن نتظاهر بما يريدون لأن من لا يفعل ذلك يقدمونه إلى محاكم التفتيش التي كنا نفقد فيها حياتنا بسبب التمسك بالحقيقة .... لقد كنا في سجن مظلم أسود حيث كانوا يتركوننا لعدة سنوات نفقد فيها أموالنا وبالإضافة إلى ذلك كان هناك من يرى قتلنا جميعاً. وكان هناك من يرى إشعال النار في جزء من جسدنا حتى لا نستطيع الإنجاب»[3].

---

1 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 314، كارادياك، لوي، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ص 83.

2 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 288.

3 - عبد الرحمن، جمال، دراسات اندلسية وموريسكية، ص 159.

وقال ابن عبد الرفيع: «ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ومحال عادة، لما كنا فيه ومعه من الشدة والضيق في الدين والنفس والمال. فسبحان رب السموات والأرض الذي أراد أمراً قال له كن فيكون، فيا لها من أعجوبة وما أعظمها، ومن فضيلة وما أشرفها»[1].

ويروي القس «داميانو فونسيكا» موقف الأندلسيين خلال اجتماع لهم بالقول: «كان اجتماعاً عاماً للفقهاء والرؤساء، ونُصح الموريسكيون بعدم القيام بانتفاضة مسلحة. وأقر الاجتماع ذاك أن الطرد سيكون شاملاً، ورفضوا حتى الإبقاء على الستة في المئة منهم ليلقّنوا المسيحيين فنون الزراعة»[2]. ووصف الأب فونسيكا، الذي كان شاهد عيان لخروج الأندلسيين، ما حدث بعدها فيقول: «لقد رفضوا ليس فقط العمل وجمع العنب وقطع قصب السكر بل اعترفوا صراحة أنهم جميعاً مسلمون. وأكد أحدهم أن كل الأندلسيين في مملكة بلنسية عرب أيضاً شأنهم في ذلك شأن عرب الجزائر... وكانوا يعترفون، إذا دُفعوا إلى ذلك، بأنهم عرب، وأنهم بقوا عربا دائماً، وأنهم مستعدون للدفاع عن دينهم ومحاججتنا به».

وعندما تجاوز الأندلسيون ترددهم ومخاوفهم الأولية أقبل قسم مهم منهم على الاستعداد للرحيل برغبة. وحلّ محل الشعور بالقلق شعور معين بالارتياح إذ سيكون في مقدورهم أن يعودوا عرباً ومسلمين في العلن وعندما يشاؤون، وسيكون في استطاعتهم ارتداء الملابس التي يفضلونها، والاغتسال عندما يشعرون برغبة في الاغتسال، ومراقبة أولادهم يكبرون معهم بلا خوف من أن تأمر محاكم التحقيق انتزاعهم منهم لتربيتهم على المسيحية، والتخاطب بالعربية لا خوف من حرقهم أو تعذيبهم في أقبية محاكم التحقيق.

وكتب «دي ربيره» إلى الملك فيليب الثالث في 17 محرم 1017ه/ 23 من كانون الأول عام 1609م يقول: «تجري عملية التهجير في صورة ممتازة

1 - الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام بالأندلس، ص 164.

2 - Fonseca, Padre Daminano de. Reelacion de lo que paso en la expulsion de los Moriscos del, reyno de Valencia, (Roma 1612) P 89.

فالظروف مواتية بما يشبه المعجزة لأن الموريسكيين يظهرون فرحتهم وسرورهم بالهجرة، والنبلاء برهنوا كذلك أنهم مغتبطون، والجميع اقتنع أن قراراتكم هي الأصوب». ويسرد المأمور القضائي «كالوسا Callosa» في رسالة إلى فيليب الثالث في وقت لاحق حالة مثيرة للدهشة تخص أندلسياً كان منعزلاً عن باقي الأندلسيين فلم يشاركهم أفراحهم ولا أتراحهم. وكان هذا الأندلسي غنياً جداً ويملك مجموعة حواكير مزروعة بالقنب والزيتون وبيتاً كبيراً. ونظراً إلى سلوكه الجيد طوال 12 عاماً أبلغه مسؤولو التغريب أنه يستطيع البقاء لكنه رفض العرض وانضم إلى المُغرّبين وتخلى عن كل ممتلكاته التي قُدرت قيمتها بنحو 4000 بيزته ذهبية»[1].

وعلى هذا الشكل المأساوي اختتمت حياة الشعب الموريسكي بعد أكثر من مائة عام على سقوط غرناطة. وخرجت إسبانيا من معركتها العسكرية معهم بانتصار كبير، لكنها خرجت من معركتها الدينية والحضارية معهم بخسارة كبيرة[2]. هذا ويمكن القول أن الكاردينال «خوان دي ريبيرا» كان الرجل الأول وراء قرار الطرد. وقد ألقى خطاب "شكر لله" في كاتدرائية بلنسية عند إعلان القرار، وقال بأن كل المصاعب تهون أمام القضاء على هذه البذرة الخبيثة الموجودة بيننا. ولم يعش بعد إنجاز رغبته، فمات غماً في أوائل عام 1019ه/ 1611م لعدم تمكنه من الاحتفاظ بكل الأطفال وتنشئتهم على الدين النصراني[3].

1 - حومد، محنة مسلمي الأندلس، ص 316.

2 - طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص 618.

3 - إيبارا، ميغيل انخيل، الموريسكيون في الفكر التاريخي، ص 26.

تهجير موريسكيي مملكة غرناطة وتوزيعهم

في شبه جزيرة إيبيريا ومصادرة ممتلكاتهم

لم يستقر وضع سكان شبه جزيرة إيبيريا في عهد فيليب الثاني وأثناء حكمه ظل الموريسكيون يتحينون الفرصة للتململ إذا سنحت، وقد كان لثورة عام 975هـ/1568م. التي تمخضت عن إخراج الموريسكيين من مملكة غرناطة أكبر الأثر على مصير وحياة السكان.

وهؤلاء كانوا على النقيض بالنسبة إلى مناطق الشمال وبقية شبه الجزيرة. فالنبلاء يشكلون طبقة قليلة العدد وكانت أهم الطبقات في غرناطة طبقة التجار والصناع والفنانين والخدم والنصارى الذين كانوا يستغلون الأرض مقابل الضرائب التي كانت تزيد كثيراً عما كان يدفعه الموريسكيون من جزية وضرائب[1]، يقول كارو باروخا[2]: «نظراً لهذه التركيبة الاجتماعية المختلطة فقد اختلفت نسبة عدد السكان باختلاف المناطق فكان الموريسكيون يقيمون في المناطق الريفية وكانت نسبتهم في مدن بسطة ووادي آش والمرية تتراوح بين 40-30٪ من نسبة السكان». وتصل نسبة الموريسكيين في غرناطة إلى 50٪ وقد كان عددهم قليلاً جداً في المنطقة الساحلية التي تمتد من فيرا إلى استيبونا Estepona، حيث حظر على الموريسكيين سكنى السواحل حفظاً لسلامة النصارى. وكانت الفكرة السائدة هي أن الموريسكيين كانوا يشكلون

1 - Caro Baroja,Julio, Los Moriscos del Reino de Granada. Mardrid 1976. 2 edicion. Capt. 3 P: 91-93.

2 - Caro Baroja: Capt. 3, P: 91-93.

أغلبية السكان في مملكة غرناطة حتى ثورة 975هـ/1568م[1].

وتشير المراجع الإسبانية إلى أنه كان في مملكة غرناطة 85.000 بيت مسلم حسب سجلات الاحصاء، يضاف إلى ذلك 15.000 بيت لم تكن مسجلة هرباً من الضرائب[2]. وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول عام 1568م أرسل فيليب الثاني إلى دون خوان النمساوي يكرر أمره بإخراج الموريسكيين من مملكة غرناطة سواء من اشترك منهم أم من لم يشترك في الثورة[3]. ويروي لين – بول نهاية الثورة الأندلسية الكبرى فيقول: «كان السبي والنفي المصير الذي آل إليه من بقي حياً بعد الثورة، .... أولئك الذين أُسِروا والثورة مشتعلة أصبحوا عبيداً، وسيق الباقون إلى النفي تحت حراسة الجنود .... وكثير من المنفيين التعساء ماتوا في الطريق جوعاً أو تعباً أو من الحر والبرد، وتمكن آخرون من الوصول إلى افريقيا حيث عانوا من الفاقة، ولم يجدوا أرضاً يحرثونها»[4]. إن نفي موريسكيي غرناطة إلى قشتالة لم يسفر عن شيء سوى نشر المشكلة في مناطق لم تكن قد تأثرت بها[5].

جُمِعَ الموريسكيون عنوة في قرية، حيث أجبروا على الهجرة نفياً بمراقبة حراسة مشددة إلى خارج مملكة غرناطة، وأصبح هذا الحل هو الوحيد من أجل إنهاء الثورة، وأمكن بهذه الطريقة عزل الذين لم يقبلوا الهزيمة واندفعوا إلى الجبال لمواصلة القتال. أما طريقة التهجير فقد تمت على الشكل التالي: قسمت المملكة إلى سبع مناطق، وضع كل منها تحت رعاية مسؤول أو أكثر، ليقودوا

---

1 - حتاملة، التهجير القسري ، ص 87.

2 - Marmol Carvajal, Louis del, Historia de la rebelion, Madrid, 1946, Capt IV, P. 174.

3 - بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 167.

4 - Stanley, Lane – Poole, the moors in Spain, P 279.

5 - إيبارا، ميغيل انخيل، الموريسكيون في الفكر التاريخي، ص 24.

عمليات الترحيل من مراكز التجميع[1].

وليس من الغريب أن تكون النتيجة النهائية للعملية سلبية، ونسبة الموت الحاصل من جمادي الآخرة 978ه/ تشرين الثاني 1570م حتى ربيع عام 979ه/1571م حوالي 20,7٪، وهذا الرقم أقل من الإحصاء الذي حصل في استرامادورا حيث وصلت النسبة إلى 30٪، وهذا بالإضافة إلى أن الذين بقوا على قيد الحياة كانوا في حالة يرثى لها، فقد انتشر بينهم التيفوئيد وأدخل عدد كبير منهم المصحات، فقد حاولت بعض المدن رفض السكان الجدد ولكن بدون جدوى[2].

إن طرد جمادي الآخرة 978ه/ تشرين الثاني عام 1570م لم يكن الطرد الوحيد، لكنه الأكثر أهمية الذي عانى منه الموريسكيون فهو الطرد المركزي من عملية تتكون من ثلاث مراحل.

هذا وقد تحولت طليطلة إلى مركز لأستقبال الموريسكيين الغرناطيين حيث استقبلت مجموعة كبيرة في رمضان 980ه/ حزيران عام 1571م.

وشهداء المراحل الثلاث هو 80.000 شخص، ويمكن الحصول عليه بجمع الأرقام الجزئية التي تبلغ عشرين الفاً في المرحلة الأولى، وخمسين ألفاً من المرحلة الثانية، وعشرة الأف من المرحلة الثالثة[3].

---

1 - هورتز، انطونيو دومينقير، بنثنت، برنارد، الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية، دار الاشراق، الدوحة، 2002م، ط2، ص 59-58.

2 - الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 125.

3 - هورتر و بنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 64.

وقد نقل الموريسكيون في الدفعة الأولى حسب الجدول التالي: (1)

الوطن قبل التهجير		المكان الذي هجروا إليه	
جيان	Jaén	وادي الحجارة	Guadalajara
اندوخر	Andujar	وادي الحجارة	
ابده	Ubeda		
بياسة	Baeza	أوكانيا وجبس	Ocana Y Yepes
كاثورله	Cazorla		
مرتش	Martos	طليطلة	Toledo
استجه	Ecija	بلاسنثيا	Plasencia

وتلت ذلك دفعة أخرى من التهجير حسب الجدول التالي: (2)

الوطن قبل التهجير		المكان الذي هجروا إليه	
طليطلة	Toledo	ميدينة ديل كامبو وتورديسياس	Medina del Campo Y Tordesillas
بلاسنثيا	Plasencia	مدينة لذريق	Ciudad Rodrigo

وفي نهاية عام 979هـ/1571م، تم توزيع موريسكيي مملكة غرناطة إلى جميع أنحاء شبه جزيرة ايبيريا.

1 - شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، ص 299.

2 - حتاملة، محمد عبده، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 802، رائف، وتذكروا في الأندلس الإبادة، ص 341.

De fourneaux, Marcelin, Daily life in Spain In the colden age, unkhnown LTD, London, 1970, P 17.

شكل الموريسكيون في مدن قشتالة جماعات غريبة بالنسبة إلى السكان وكانوا غالباً أيدي عاملة رخيصة للقيام بالأعمال الوضيعة كالزراعة أو التجارة قليلة الأهمية كبيع الفضة والماء والمأكولات وصناعة الأحذية كما كان يقوم قليل منهم بالحرف الحرة البسيطة أو يحتلون وظائف ذات قيمة متوسطة[1]، رغم كل محاولات التشتيت التي قام بها الملك فيليب الثاني فقد ظلت بين الموريسكيين علاقات عائلية في مختلف أنحاء قشتالة. وظل الموريسكيون يعتزون بأصلهم ويحافظون على هويتهم بالوسائل المتاحة رغم ملاحقتهم واضطهادهم وجعلهم يعيشون على الهامش من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فظلوا يحافظون على روح التضامن[2].

الكاثوليك في غرناطة مكان الموريسكيين

(1571 – 1587م)

بعد هجرة الكثير من موريسكيي مملكة غرناطة، صدر مرسوم ملكي يقضي بمصادرة ممتلكات الموريسكيين في 30 رمضان 978ه/الرابع والعشرين من شباط عام 1571م. وكانت المصادرة في البدء عقوبة على الموريسكيين الذين أسهموا بالثورة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ونظراً لشمول التهجير الإلزامي الثائرين وغير الثائرين فقد تعذر على أولئك المهجرين أن يراعوا أملاكهم وهم بعيدون عنها وقد شملت المصادرة جميع الأملاك المنقولة وغير المنقولة والأسهم وجميع الحقوق دون استثناء. ونص المرسوم الملكي الخاص بالمصادرة «على أن تصبح جميع الممتلكات التي كانت للموريسكيين في مملكة غرناطة مهما كان

1 -Garcia Arenal, Mercedes, Inquisicion y moriscos. Los procesos del tribunal de Cuenca, Madrid, 1978, P: 14-16

2 - Garcia Arenal, Mercedes, les morisos, Madrid, 1975, Capt, IV, P: 89-86.

نوعها وحالتها ملكاً لجلالة الملك»[1] وقد تم إرسال موظفين ينفذون الاستيلاء على تلك الممتلكات بإسم الملك. وعندما سمع الموريسكيون بهذا القرار شرع كثير منهم بإخفاء أمواله في الجدران والكهوف البعيدة ودفنها تحت الأرض[2].

ولكن مع خروج الموريسكيون من أراضيهم برزت مشكلات سياسة واقتصادية فقد كانت تلك الأراضي الواسعة تشكل خطراً. إذ يهاجم منها الأتراك وغيرهم من المسلمين. وكادت الحقول التي تركت بلا زراعة تحدث كارثة اقتصادية لإسبانيا. فاضطر لذلك الملك فيليب الثاني إلى العمل الجاد لإعادة توطين اناس في هذه الأراضي، فتم تعيين مجلس لهذه الغاية تألف من «بيدرو ديسا Don Pedro de Deza» رئيساً لمحكمة التفتيش العليا في غرناطة و«خوان رودريغز دي فيافورتي مالدونادو Juan Rodriguez de Villafuerte Maldonado» و«اريفالو دي ثواثو Arévalo de Zuazo» ونظمت أحكام من أجل تلك الأراضي التي صودرت من الموريسكيين ونظمت كتب لتحديد الادارة ووضعت شروط استلام الأملاك باسم الملك[3].

كما تم ارسال موظفين آخرين إلى جليقية وبرغش وليون لجلب السكان الجدد. فجلبوا مجموعة من السكان قام مجلس الاسكان بتوزيعهم وكان يفرض عليهم أن يدفعوا سنوياً مبلغاً معيناً للاحصاء العام وسلسلة أخرى من الشروط والالتزامات في أثناء استغلال الأراضي حتى لا يلحق أي ضرر باقتصاد البلاد. وقد نشرت تلك الشروط في كل من: جليقية، اشتريس، ليون، برغش ومناطق أخرى من شبه الجزيرة الايبيرية واستوطن زهاء 12500 عائلة في مائتين

1 - Oriol Catena, Francisco, la repoblation del reino de Granada despues de la expulsion de los moriscos, Madrid, 1935, Capt. II, Pags. 499-500

2 - حتاملة، الأندلس، التاريخ والحضارة والمحنة، ص 804.

CARDAILLAC (Louis): Moriscos y cristianos, un enfrentamiento polemico (1492-1640), Madrid, Pag, 131.

3 - طه، عبد الواحد ذنون، دراسات اندلسية، ص 239، الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 128.

وستين مستوطنة. وفي 15 شعبان 980ه/ 31 أيار عام 1572م[1] أصدر الملك فيليب الثاني أوامره بتوزيع الأملاك التي كانت للموريسكيين في مملكة غرناطة على الأسبان كما أمر بتأجير الأملاك التي حول غرناطة وفي الأودية والسهول التابعة للمملكة وبيعها لهم.

وبعد هذا الاستيطان ضاق المستوطنون الجدد ذرعا بالضريبة الباهظة التي كانت تجبى من انتاجهم الزراعي، فأخذ عدد المستوطنين بالنقصان ذلك ان اكتشاف امريكا أغرى كثيراً منهم ومن الموريسكيين بالهجرة إليها بعد ان تم تنصيرهم بالإكراه.

ويبدو أن الملك أرسل مفتشين إلى مملكة غرناطة لوضع تقرير عن المستوطنات، ولما لم تكن الأحوال جيدة، صدر فرمان يقضي بوجوب عودة كل الغائبين إلى أراضيهم خلال أربعة أشهر وسمح لسكان غرناطة بشراء الأملاك من السكان الجدد، وحاولت السلطات إصلاح بعض المراسيم التي فرضها رجال الدين وبعض القادة والمسؤولين السياسيين والنبلاء لعل ذلك يؤمن للمستوطنين وضعاً اقتصادياً معقولاً[2].

التهجير الجماعي للموريسكيين

منذ عام 929هـ/1523م

قبل ثورة البشرات التي بدأت عام 975ه/1568م تم تشتيت موريسكيي مملكة غرناطة وإسكان النصارى مكانهم بعد ان جلبوا من قشتالة وجليقية واشتريس، ولم يبق من الموريسكيين في غرناطة سوى القليل الذين قدروا بعشرة الأف نسمة تقريباً. وكانت تلك ضربة قاسية لسكان غرناطة الموريسكيين الذين نفوا وشُتتوا

1 - Lea Charles, History of the Inquisation P. 330.

2 - حتاملة، الأندلس، التاريخ الحضارة والمحنة، ص 806.

بالأندلس الغربي قرطبة واشبيلية وقشتالة[1].

ومنذ عام 977هـ/1570م بدأت تحدث تغيرات سكانية مهمة من حيث تقسيم الموريسكيين إلى جماعات صغيرة تسكن بين النصارى ولكن الموريسكيين حاولوا التجمع في المدن وقد استقر فيها أعداد لا بأس بها منهم وحاول بعضهم العودة إلى مسقط رأسه فقد أصبح الموريسكي مخلوقاً بائساً هائماً على وجهه يتنقل دائماً من مكان إلى آخر. ولا بد أن عددا من هؤلاء الموريسكيين قد نجح في العودة إلى مسقط رأسه فقد لوحظ ان عدد مسلمي غرناطة قد تزايد بشكل فعلي بعد تهجير الموريسكيين وسرعان ما أجرت السلطات الإسبانية تفتيشاً عن اولئك المنفيين العائدين وكانت تقدم المقبوض عليه منهم إلى محاكم التفتيش لينال نصيبه من العذاب[2].

وقد خرج من مملكة غرناطة في عام 922هـ/1584م ما مجموعه 3000-4000 مسلم وأخرج 500 موريسكي آخر إلى استرامادورا عام 933هـ/1585م[3]. وكانت مملكة قشتالة في عهد الملك فيليب الثاني تشتمل على الأقاليم التالية: قشتالة الجديدة، قشتالة القديمة، استرامادورا، مرسية والأندلس الغربي. والحقيقة لا تُوفّر لنا المصادر احصائيات لمسلمي قشتالة قبل نفيهم وقبل أن يصل إليهم الموريسكيون المهجرون من مملكة غرناطة، والتي كان يقطنها مجموعة من المدجنين القدامى الذين اعتادوا على أن يعيشوا في مجموعات صغيرة لها طابع المدينة[4].

نتيجة هذه الاجراءات عمّ التنصر، وتحوّل المسلمون إلى نصارى يشهدون

---

1 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 98.

2 -Ortiz, A. Dominguez y Vincent, Bernard, Historia de los moriscos, vida y tragedia de una minoria, Madrid, 1978, PP. 86-87.

بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 175

3 - حتاملة، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 796.

4 - طه، عبد الواحد ذنون، دراسات اندلسية، ص 237.

القداس في الكنائس، ويتكلمون ويكتبون القشتالية، غير أنهم لبثوا مع ذلك في معزل، وأبت إسبانيا النصرانية، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها، أن تضمهم إلى حظيرتها القومية. وكانت ما تزال ثمة منهم جموعاً كبيرة في بلنسية ومرسية وغرناطة، وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة، والذين شكلوا رغم الذل والهوان والاضطهاد والتشريد قوة أدبية واجتماعية خطيرة، وعنصراً بارزاً في إنتاج إسبانيا القومي، ولا سيما في الصناعات والفنون. ولكن السياسة الإسبانية بعد أن فشلت بوسائلها الهمجية في كسب محبتهم وولائهم. دفعت ديوان التحقيق ومن ورائه الأحبار والكنيسة إلى الاقتصاص منهم، باعتبارهم وصمة في نقاء النصرانية[1].

وقد تضاربت آراء الساسة الإسبان، في شأن الخطوة الحاسمة التي يجب اتخاذها، للقضاء على خطر الموريسكيين. ورأى بعض أكابر الأحبار أن خطر الموريسكيين لا يزول إلا بالقضاء على الموريسكيين أنفسهم. وكان مما اقترحه المطران ريبرا أن يقضي عليهم بالرق، وان يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل في السفن ومناجم الهند، حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة، وذهب البعض الآخر إلى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة، أو قتل البالغين منهم، واسترقاق الباقين وبيعهم عبيداً، وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثاني أن يجمع الموريسكيون، ويحملوا على السفن ثم يغرقوا في عرض البحر[2]. واستمرت السياسة الإسبانية تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية، حتى توفي فيليب الثاني سنة 1006هـ/ 1598م وخلفه ولده فيليب الثالث[3].

---

1 - Dr. Lea: History of the moriscos of Spain, their conversion and expulsion, London, 1901, P. 296-299.

2 - مؤنس، حسين، نهاية الأندلس، ص 394.

3 - حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 173.

ب- الموريسكيون وأماكن انتشارهم

أخرجت الحكومة الإسبانية من أرضها ما بين سنة 1609م و 1614م حوالي 327,000 مسلم أندلسي ومدجن. استقر العدد الأكبر منهم في المغرب والجزائر وتونس. وانتقل آخرون إلى فرنسا، ومنها إلى البلاد الإسلامية. كما انتقل البعض الآخر، إما مباشرة أو عبر فرنسا، إلى موانىء الدولة العثمانية[1].

1 - الموريسكيون في المغرب

كانت علاقة المغرب بالأندلس وثيقة، لدرجة كان البلدان يسميان العدوتين: عدوة الأندلس وعدوة المغرب، كما لو أن البلدان دولة واحدة أيام الدولة المرابطية والموحدية. وكادت الطبقة المثقفة في البلدين أن تكون واحدة، إذ كان ينتقل كثير من الأفراد والعائلات المغربية إلى الأندلس، وبالعكس، بينما هاجر الأندلسيون في كل الحقب إلى مدن المغرب المختلفة، وظلت ثلاث مدن، فاس والرباط وتطوان، تحتفظ بالتراث الأندلسي في أبنائها وثقافتها أكثر من غيرها من المدن والبوادي[2]. إن مغادرة الموريسكيين لإسبانيا جعلتهم يفقدون هذا اللقب الذي ألصقه الإسبان بهم، والذين تقبلوه على مضض، لأنه يحط من قيمتهم، كما أن هذا اللقب كان يعد وصمة عار على جبين حامله.

لم يُعامل الموريسكيون عند قدومهم إلى المغرب معاملة واحدة من طرف المغاربة، بل اختلفت بحسب الأزمنة والظروف التي قدموا فيها إلى المغرب. ففي البداية بعد سقوط غرناطة كانوا يعاملون معاملة حسنة، لكن بعد مرور السنين، واثناء عملية الطرد الكبرى على يد فيليب الثالث[3]، تغيرت النظرة، حيث بدأوا ينظرون إليهم كشبه نصارى لأن أحوال القادمين تبدلت من حيث اللغة والهندام. وكذلك من حيث عاداتهم كإختلاط الرجال بالنساء أثناء الحفلات. ونظراً لهذه

---

1 - الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 177.

2 - الكتاني، علي المنتصر، المرجع نفسه، ص 389.

3 - وات، مونتغمري، تاريخ اسبانيا الاسلامية، ص 163.

الأسباب، أصبح المغاربة يشكون في إسلامهم، فاضحى التاريخ بذلك يعيد نفسه شأنهم شأن النصارى الذين شكك الكاثوليك في تنصيرهم[1].

أ - الانتقال إلى المغرب

وكان انتقال الموريسكيين إلى المغرب عن طريق المراكز التي يحتلها الإسبان: طنجة، سبتة، مليلة.... ومن هناك تسربوا إلى الداخل، وينتمي هؤلاء إلى بلنسية ومنطقة الأندلس وقشتالة، وغرناطة، ومرسية، وبعض العناصر من الأراغون وكتالونيا[2].

ولكن هذه الهجرة توالت خلال فترات متعددة يمكن أن نقسمها إلى ثلاث فترات قبل الطرد النهائي:

1 - **فترة العهد الوطاسي** (-873 960هـ/1470 - 1553م).
2 - **فترة العهد السعدي الأول**، وهي فترة كان المغرب يعيش فيها عيشة استقرار، فوجد الأندلسيون مجالات العمل مفتوحة أمامهم.
3 - **فترة العهد السعدي الثاني**، المتميزة باستقرار المهاجرين الأندلسيين في مصب ابي رقراق وتطوان، ومحاولتهم خلق كيان سياسي مستقل[3]. (907 - 1018هـ/1502 - 1609م)

أولاً: الجالية الأندلسية بمصب أبي رقراق وتطوان:

عاش الأندلسيون خلال بداية القرن السابع عشر آخر مراحل الصراع الذي خاضه طيلة قرن كامل ضد الجهاز القمعي الاسباني (محاكم التفتيش)، وانتهى ذلك الصراع بنفيهم. لكن الأندلسيين كانوا يشعرون أن نفيهم إلى شمال افريقيا

1 - قشتيليو، محمد، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ص 24

2 - PANELLA, JUAN, le transfert des morisques Espagnoles en Afrique du nord, Barcelona, 1971, P. 85.

3 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 130.

ماهو إلا مرحلة لتجميع قواهم، للإنتقام من الإسبان، والعودة إلى ديارهم. ولكن الإنقسام السياسي في المغرب، إتجه للإستعانة بهم في أعمال الجهاد، أو تسخيرهم لتثبيت نفوذ السلطات الحاكمة[1].

أ - مراكــز الاستـقــرار

تنوع استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب تنوعاً كبيراً، إذ لم يقتصر على مناطق معينة، بل شمل مناطق عدة من أقصى شمال المغرب إلى أقصى بلاد السوس.

1 - الرباط وسلا

يعود الصراع الذي كان قائماً بين الأندلسيين والمغاربة إلى عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية. وعلى كل فقد انتهت فصول هذا الصراع بعدم تحقيق الأندلسيين لطموحهم السياسي لكن وجودهم الحضاري استمر شاهداً على حضورهم بالمنطقة[2]، وهذا «بوجندار» يشير إلى هذا الحضور قائلاً: «أهل الرباط على العموم هم أهل مدينة لا يعادلهم فيها إلا أهل فاس وتطوان، نظراً لأصلهم الأندلسي الأصيل في العراقة والحضرية التي نشاهد في الرباط والرباطيين ما هو ظاهر، ظهور الشمس، في معارفهم وآدابهم وصنائعهم، لذا كان الرباط ولم يزل آهلاً بالأدباء والكتاب والشعراء، إلى ما فيه من الصناع المجيدين، والتجار الأذكياء ....» [3]. لم يستطع الأندلسيون أن يبرزوا في العهد السعدي، لضعف تكوينهم العربي الإسلامي، وجهلهم باللغة العربية، وانشغالهم بأمور الجهاد، فإنهم سرعان ما برزوا في العصر العلوي.

ومن بين العائلات الرباطية التي لها دور مهم في تاريخ الرباط عائلة

---

1 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى الأندلس، ص 13 i..

2 - فشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة، ص 31.

3 - حتاملة، محمد عبده، الأندلس التاريخ الحضارة والمحنة، ص 903.

«مرينو»، فمنهم الفقيه الأديب أحمد حجي بن محمد مرينو، عامل الرباط، ومنهم القاضي الأديب العالم الحاج محمد بن محمد مرينو، الذي ترك اشعاراً لو جمعت لكونت ديواناً كاملاً، ومنها عائلة بركاش، فمنهم القائد الحاج عبد الله بن الحاج علي بركاش، كان قائد الرباط في أواخر القرن الثاني عشر، ومنهم الفقيه القاضي حجي بن الغازي بركاش[1].

كذلك استقرت في القرن السابع عشر جالية أندلسية مهمة «بسلا» ودخلت في طاعة مولاي زيدان الذي كان يقدر إمكانياتها كافة، وجعلها تتمتع بامتيازات أعيان المنطقة نفسها، وترك لها عُشر الغنائم، بل كان يفكر في إعطائها مناصب قيادية. ولكن طموح الأندلسيين، اصطدم بسلطة الوصاية التي أراد مولاي زيدان فرضها على المهاجرين[2]. ولكن عندما طلب منهم مقاتلين لإخماد فتنة وقعت «بدرعة». رفض أندلسيو القصبة هذا العرض، خاصة أنهم يعلمون المصير الذي آل إليه 400 من مواطنيهم «إذا طالت غيبتهم في الصحراء فهرب أكثرهم»[3].

ومن أهم البيوتات الأندلسية بمدينة سلا: فنيش الذين أسهموا بدور قيادي في تاريخ المدينة، موجودة في لبنان وسوريا وأسوان، لعبوا دوراً قيادياً في تاريخ المدينة، قدموا من غرناطة، وحمدون، كان منهم عدد من رؤساء البحر، والعطار وغيرهم[4]. ويذكر المؤرخان «انطونيو هورتز» و«برنارد بنثنت» أن عدداً كبيراً من المهاجرين الأندلسيين استقروا في مصب نهر بو رقراق، حيث يوجد مدينتان قديمتان: مدينة سلا على اليمين، والرباط على الشمال. أما الرباط فقد عاشت فترة من الازدهار، حيث أنشأوا مئذنة شبيهة بالخيرالدا الأشبيلية وأسموها منارة حسان[5].

---

1 - بروفنسال، ليفي، حضارة العرب في الأندلس، ص 30.

2 - الافراني، محمد، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، منشورات بردي، الرباط، 1977م، ط2، ص 264.

3 - كولان، ج. س، الأندلس، ص 145.

4 - الكتاني، انبعاث الاسلام في الأندلس، ص 394.

5 - هورتز وبنثنت، تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيون "حياة – ومأساة أقلية"، ص 281.

2 - فـاس

شهدت فاس مواجهة اجتماعية بين الجالية الأندلسية وباقي العناصر ، فقد استأثرت فئة من هذه الجالية بالجاه والثروة والعلم، مفتخرة بأصلها الأندلسي[1]. وقد انكر جماعة من العلماء الفاسيين من أصل غير أندلسي هذا الافتخار الأعمى بالفردوس المفقود، ونسبوا أصحابه إلى التعصب والجهل بالتاريخ والأنساب .... [2]

ومثل ما حاولت الجالية الأندلسية أن تفرض نفسها كقوة اجتماعية بالمدينة حاولت أن تفرض نفسها أيضاً كقوة سياسية لها وزنها، إذ شاركت في العديد من الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة[3]. وفرضت هذه الجالية نفسها في الميدان العلمي، إذ ظهر من بينهم علماء أسهموا بنصيب وافر في الحياة العلمية بالمدينة نذكر من بينهم:

- أحمد بن محمد الدقون (ت: 921هـ / 1515م).

درس أول الأمر بغرناطة قبل سقوطها، وقد أخذ عنه طلبة فاس الفقه وقواعد اللغة العربية، ومن كتبه بداية التعريف في شرح شواهد الشريف[4].

- محمد بن علي العدي (ت: 9750هـ / 1567م)

ولد بغرناطة قبل أن يستولي عليها الإسبان بنحو 12 سنة، وفيها بدأ بعمله قبل أن ينتقل مع أهله إلى فاس، كان العدي مضرب مثل في علوم القرآن[5].

وهذه نماذج عن البيوتات الأندلسية بفاس: [6]

---

1 - ميارة، محمد، نصيحة المغتربين، وكفاية المضطرين، في التفريق بين المسلمين، مخطوط، خ. ح، الرباط، عدد 4248، ورقة 71 و 1230.

2 - حجي، محمد، الحركة الفكرية في عهد السعديين، دار المغرب، الرباط، 1977م، ص 273.

3 - القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ص 259 - 264.

4 - بن القاضي، أحمد، درة الحجال في أسماء الرجال، مطبعة الحضارة العربية السعودية، 1970م، ص 92.

5 - المرجع نفسه، ص 213.

6 - الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 390.

اسم العائـلـة	أعمالهم وصفاتهم
الأبـار	أهل تجارة وعلم، انقرضوا.
ابن الأزرق	نبغ فيهم عدد من الأطباء والقضاة، ما زالت موجودة.
الأموي	من بني أمية ملوك الأندلس، كان فيهم بعض العدول والفقهاء.
الأندلسي	ما زالت موجودة.
باسو	اشتهروا بحرفة البناء، مازالت موجودة .... الخ

3 ـ مكناس

عرفت مكناس استقرار عددٍ لا بأس به من أفراد الجالية الأندلسية، حيث كانت البيوت والقصور تقليداً للعمارة الأندلسية. وقد برز في الميدان العلمي عدة عائلات أندلسية بالمدينة، نذكر من بينها:

- **عائلة البجيري:** اشتهرت هذه الأسرة بالعلم خاصة في العهد العلوي، ومن بين علمائها، عبد السلام البجيري: «خطيب بليغ، مدرس، تولى القضاء في عهد السلطان مولاي عبد الله»[1].
- **عائلة غريط:** نذكر من بين أفرادها: محمد بن غريط طبيب مولاي عبد الرحمن بن هشام، ومحمد بن محمد غريط، استوزر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله[2].

ومن الجدير بالذكر أن السلطان مولاي اسماعيل أصدر 1121هـ/ 1710م إلى قائده العرائشي أمراً «بتحقيق أحساب وأنساب ساكني حضرته المكناسية ... وبتدوين ذلك في ديوان خاص» وقد خصص جامع هذا الديوان قسماً خاصاً للعلائلات الأندلسية بمكناس.

1 ـ ابن زيدان، عبد الرحمن، اتحاف أعلام الناس، بمجال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط، 1930م، ص 132.

2 ـ المرجع نفسه، ص 248-242.

ومن البيوتات الأندلسية بمكناس: [1]

اسم العائلـــة	أعمالهم وصفاتهم
ابن ابراهيم	إنقرضوا
بوارس	من غرناطة، إنقرضوا.
برقوق	يوجد بعض أفرادها بفاس.
المسطاسي	ما زالت موجودة.
الصغار	من غرناطة، مازالت موجودة.
هلال	بيت علم ورياسة، إنقرضوا.
الوقاد	يتواجدون في فاس ومراكش وبني ملال. .... إلخ

4 ـ مراكش

استقرت أول جالية أندلسية بمراكش في العهد السعدي وهي الجالية التي أمر عبدالله الغالب باستقرارها في حيّ رياض الزيتون[2]، واستمر توافد الموريسكيين حتى قرار الطرد من اسبانيا، إلى أن أصبحت اللغة الإسبانية توازي اللغة العربية في انتشارها.

وظل الوجود الأندلسي بارزاً في المدينة ويمكن تسجيله بسهولة، فالناصري يصف صلاة العيد التي ترأسها السلطان مولاي سليمان بمراكش: «..... جاء أهل الأندلس وبين ايديهم لواء أخضر، وامتازوا به عن غيرهم، وجعلوا يخرجون البارود.....».

1 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 316-317-318.

2 - الزياني، أبو القاسم، الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، مخطوط، خ. ع. بالرباط رقم 658د، ص 350.

وقد برز في الميدان العلمي عدد من أفراد هذه الجالية بالمدينة نذكر منهم:

- أحمد بن معيوب الأندلسي (ت:1022هـ - 1613م): برع في الحساب والهندسة والتنجيم، واشتغل بتدريسها للطلبة.
- علي بن ابراهيم الأندلسي (ت:1065هـ - 1655م): تفوق في ميدان الطب وعلّمه لطلبته[3].

5 - تطوان

أسسها المهاجرون الغرناطيون إبان سقوط غرناطة، فنقلوا إليها الحضارة الغرناطية برمتها قبل إضعافها من طرف الاستعمار القشتالي ومحاكم التفتيش. ولذا كانت تطوان شبيهة بفاس في كثير من مظاهرها فالفقيه داوود يقول: «كانت تطوان نسخة من أخريات المدن الإسلامية العربية في بلاد الأندلس». وهكذا حين قدم الأندلسيون إلى تطوان، وجدوا هناك جالية أندلسية مهمة كانت قد سبقتهم إلى المنطقة، فهيأت لهم ظروفاً ملائمة[4].

عمل أندلسيو تطوان تحت قيادة مغربية، فقد كانت قاعدة أساسية على البحر المتوسط للجهاد البحري ضد الأوروبيين[5]. كما توافرت في مدينة تطوان مجموعة من العناصر الموضوعية التي جعلت منها مركزاً للاستعلامات بالنسبة للموريسكيين وكذلك بالنسبة للمسيحيين. فإن قربها من مدينة سبتة وسهولة التوافد عليها جعل منها إحدى المحطات الأولى والمهمة التي تنتهي فيها الأشواط الأولى من مغامرات خروج الموريسكيين من اسبانيا نحو المغرب. فقد أخذت هجراتهم طريقين أساسيين هما:

- عبر جبل طارق ومالقا وما يسمى اليوم بالأندلس نحو الشواطىء المغربية في جنوب المضيق للذهاب بعد ذلك إلى تطوان.

---

3 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 319.

4 - الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الاسلام في الأندلس، ص 60.

5 - القادري، نشر المثاني، ص 48.

- وعبر مسلك آخر يتجه نحو جنوب فرنسا، عبر الطريق المؤدية إلى مدينة تولوز الفرنسية[1].

6 ـ شفشاون

استقرت بمدينة شفشاون جالية اندلسية مهمة، إتخذت حيّ ريف الأندلس شمال المدينة مقراً لها. ويبدو التأثير الأندلسي واضحاً فيما يختص بالبناء المسقوف بالقرميد الأخضر، وصحون المساجد، أو العناية بالزهور، والقنوات المائية.

وقد توارث بعض الأسر الأندلسية أنواعاً من المعارف، نذكر من بينها:

ـ أسرة المفرج: توارثت الطب والصيدلة.

ـ أسرة البيطار: توارثت فن البيطرة.

ـ أسرة العاقل: توارثت فن البناء.

وهناك عددٌ من الأسر التي توارثت فن الموسيقى الأندلسية بالمدينة[2].

7 ـ أسفي

حظيت اسفي كغيرها من مدن المغرب باستقرار جالية أندلسية بها، ومن بين البيوتات الأندلسية فيها نذكر[3]:

اسم العائلة	أعمالهم وصفاتهم
الرَّكُوشْ	من حصن أركش بأحواز اشبيلية، تولى عدد من أفرادها حفظ القضاء والحسبة، ما زالوا.
الغماز	تولى بعضهم خطة العدالة، ما زالوا.
القلعيين	ما زالوا. .... إلخ

1 ـ أبو زينب، حسين، طرق المهجرين الأندلسيين إلى المغرب، مجلة التاريخ العربي، عدد 85، ص 205.

2 ـ العافية، عبد القادر، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون، الدار المحمدية، المغرب، 1982م، ص 280.

3 ـ رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 325.

ذكر الشيخ م. داوود الأندلسي بشأن الجالية الأندلسية المستقرة بتطوان ما يلي: «.....أما هذه المدينة فيظهر أنه نظراً لوقوعها في حدود الرباط والدفاع، وقربها من ميدان الجهاد والقتال، كان المهاجرون إليها من رجال الحرب مع من إنضم إليهم من الصناع والمزارعين»[1].

ولكنه أكد أيضاً على تأثير هذه الجالية في الحياة الاجتماعية بالمدينة: «.... أن جل الوافدين عليها من الأندلس كانوا من غرناطة ... عرفنا مبلغ سكان تطوان من الرقي وأساليب الحياة ومظاهرها من سكن وملبس، ومطعم ومشرب، ومتجر ومصنع، كان للحياة الاجتماعية بتطوان طابع خاص امتاز بالرقة واللطف ... ، والمرونة في حل المشاكل والأزمات»[2].

من الشخصيات الأندلسية البارزة بالمنطقة نذكر:

- أبا الحسن علي منوصة الأندلسي.
- أحمد بن محمد طانبة (ت: 1063هـ / 1623م).

أما البيوتات الأندلسية بتطوان فمنها: [3]

اسم العائلة	أعمالهم وصفاتهم
ابن الأحمر	ما زالت موجودة.
البركة	ما زالت موجودة.
الحضري	ما زالت موجودة.
الخطيب	ما زالت موجودة.
داوود	ما زالت موجودة.
القرطبي	انقرضت
	.... الخ

1 - داوود، محمد، تاريخ تطوان، المطبعة المهدية، تطوان، المغرب، 1955م، ط2، ص 168.
2 - المرجع نفسه، ص 431.
3 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 322.

ومن بين أندلسيي تطوان عائلات تحمل أسماء أعجمية مثل: البانزي Ponce والرويز Ruiz وغارسيا Garcia ولوقاش Lucas، الخ...

ومنها ما هو نسبة إلى منطقة أو بلدة: الغرناطي (غرناطة)، والقرطبي (قرطبة)، ومنها ما هو نعوت: اللب ومولاطو ومرينو ... ومنها ما هو عربي: ابن الأحمر، والخطيب والرفاعي والعطار والقطان ....الخ[1].

ويمكن تقدير عدد المغاربة من أصل أندلسي بحوالي عشر سكان المغرب أو 2,5 مليون نسمة على الأقل، معظمهم نسي أصله الأندلسي، ولم يعد يتذكرها سوى عشرهم، أو حوالي 250,000 نسمة على أقل تقدير[2].

أهم الهجرات من حيث العدد تلك التي وقعت بعد سقوط غرناطة ثم تليها عملية الطرد التي اعقبت أمر فيليب الثالث بالطرد بين سنتي 1018هـ/ 1609م و1023هـ/ 1614م. ويقدر عدد من لجأ للمغرب بحوالي أربعين ألف شخصٍ[3].

ومن المهم تسليط الضوء على الكلمات ذات الأصل الاسباني في اللهجات المغربية، خصوصاً في المناطق التي استوطنها الموريسكيون، وقد جمع هذه الكلمات كل من «بن عزوز» و«رحومي» ومن بينها: توماتيكس، رابا، طرمبة، غالون، كافاتيرا، كوتشينيا، لاستيك، ماكينة، بابور، برنيطة، ريال...الخ[4].

وتقول الرواية أن الأسر الأندلسية في المغرب لا تزال حتى الآن تتحسر على فردوس أجدادها في الأندلس، وأن الأندلسيين يرفعون أيديهم بالدعاء إلى الله في كل يوم جمعة بعد الصلاة، يتضرعون إليه أن يعجل الوقت الذي تعود غرناطة إلى أيدي المسلمين.

---

1 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 335.

2 - الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 395.

3 - قشتيليو، حياة الموريسكون الأخيرة، ص 28.

4 - غريماو، رودولفو خيل، دراسات أندلسية وموريسكية، ترجمة جمال عبد الرحمن، المشروع القومي للترجمة، 2008م، ط1، ص 267.

وتمضي الرواية فتقول إن بعض الأسر الأندلسية في المغرب لا تزال تحتفظ بالخرائط القديمة وعقود الملكية لبساتين أجدادهم ومنازلهم ويعتبرونها أدلة شرعية أمام المحاكم لاسترجاع أملاكهم عند عودتهم إلى بلدهم[1].

2 - الموريسكيون في الجزائر

اختلف وضع الموريسكيون في الجزائر عن وضعهم في المغرب، وذلك بسبب اختلاف الأوضاع السياسية في كلا البلدين. فرغم الشعور الأخوي نحو الموريسكيين من الناحية الدينية إلاّ أن تأثير المناخ السياسي كان أقوى على اعتبار أن المغرب كان بلداً مستقلاً، يتمتع بسيادة كاملة، ويتصرف في شؤونه كما تمليه عليه الظروف. بينما كانت الجزائر لا تستطيع التصرف بحرية في شؤونها. ذلك أن السلطنة العثمانية كانت تعتبر الجزائر ولاية تابعة للباب العالي بإسطنبول، وشمال الجزائر محتلاً من طرف الإسبان كمدينة وهران والمرسى الكبير.

لقد انعكست هذه الوضعية السياسية سلباً على هجرة الموريسكيين من حيث العدد، حيث كان عدد المهاجرين إلى الجزائر أقل بكثير من المغرب[2].

بدأت هذه هجرة إلى الجزائر مع بداية سقوط الممالك الإسلامية في يد النصارى. حيث استقر من هاجر آنذاك في بعض المدن التي كانت خاضعة للسلطة المغربية الموحدية كتلمسان ونواحيها، ثم عند نهاية الحكم الإسلامي بسقوط غرناطة عام 897هـ/1492م تقاطر على الجزائر عدد كبير من المهاجرين وخاصة إلى الشواطئ المقابلة لإسبانيا، كما تدفق عدد كبير من الموريسكيين على الجزائر إبان ثورة غرناطة عام 908هـ/1502م. حتى بلغ عددهم في العاصمة وحدها 25,000 موريسكي. ويبدو أن استقبالهم على العموم كان حسناً بفضل

---

1 - واشنطن، ايرفنغ، قصر الحمراء، ص 141.

2 - قشتيليو، محمد، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ص 48.

وجود جالية موريسكية مهمة مقيمة بها قبل الطرد[1].

استقر أغلب الموريسكيين في الحواضر، أما في البوادي فكان وجودهم غير مرغوب فيه من أهاليها. نظراً للمضايقة التي كانوا يحسون بها في الميدان الفلاحي من طرف الموريسكيين. وهناك عامل آخر جعل الموريسكيين يفضلون الاستقرار بالحواضر هو كونها محصنة ومراقبة من طرف السلطة المركزية بخلاف البوادي التي كانت شبه منفصلة عن السلطة، وحتى في الحواضر كانت تحصل نزاعات بينهم وبين الأتراك[2].

استقبلت وهران حوالي 22,000 موريسكي لكنها لم تستطع أن تأوي هذا العدد الضخم، فاضطر فريق منهم مكوّن من 500 إلى 600 موريسكي على التوجه إلى تلمسان لكن الأعراب نهبوهم، واتجهت جماعة أخرى إلى «مستغانم» لكن مصيرها هو مصير الجماعة الأولى[3]وقد وصف المقري هذا الحادث في عبارته البليغة: « فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم»[4].

وقد أثار هذا استنكار وغضب الفقهاء والعلماء وشيوخ القبائل الذين طلبوا معاقبة هؤلاء الأعراب ونصرة الموريسكيين، وكان في طليعتهم الشيخ «محمد أقدار التوجيني»[5].

فالحظ العاثر طاردهم حتى في فرنسا إذ اعتبر سكان Narbonne أن الموريسكيين هم الذين يتحملون مسؤولية عدم سقوط المطر بهذه المنطقة وطالبوا بطردهم، أما الأتراك فقد حمّلوهم مسؤولية الجفاف الذي حصل وأمر قائد الشرطة

---

1 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 131.

2 - قشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا، ص 49.

3 - Lapeyre, (H), géographie de L'Espagne morisque, Paris, 1966, P 207.

4 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص 528.

5 - السعيدوني، ناصر الدين، الجالية الأندلسية بالجزائر، مقال بمجلة أوراق، مدريد، 1981م، عدد 4، ص 117.

التركي بطردهم من العاصمة بظرف ثلاثة أيام[1]. وأمام هذه الوضعية حاول العديد منهم العودة إلى اسبانيا، وقاموا بمحاولة أولى سنة 1019هـ/1610م بمساعدة القبطان Garett، ومحاولة أخرى في السنة نفسها بمساعدة القبطان Barret.

هذا ويلاحظ أن الكثير من الموريسكيين انحدروا من طبقة ارستقراطية وكانوا يرفضون السيطرة. أما الأتراك فكانوا يعتبرون أنفسهم مستعمرين، إضافة إلى عامل اللغة والعادات الشيء الذي أدى إلى حدوث اصطدامات متكررة حتى أن بعض الموريسكيين اضطروا للعودة إلى اسبانيا متظاهرين بالولاء والتمسك بالدين المسيحي[2].

ويبدو أن جل النازحين إلى الجزائر كانوا من نواحي أراغون، وبلنسية، وكاتالونيا، وكانوا يتقنون عدة حِرَف، فكان منهم صانع المسدسات والبارود، والعارف بالحدادة، والنجارة والبناء والخياطة وصناعة الأحذية، إلى غير ذلك. وكذلك بعض المهن الفنية كصناعة الحرير والخياطة والتطريز والحياكة. وصار هؤلاء تدريجياً يندمجون في المجتمع التركي بالجزائر ويتحلّون بأخلاقه ويلبسون لباسه في شكله وهندامه، وفي هذا السياق نذكر ما قاله الرحالة الفرنسي «روجير دي طاسي» فقد قال: «إن أغلب الأندلسيين استقروا بالمدن حيث اكتسبوا عقارات وأملاكا، وصار المرء لا يرى إلاّ سحنات أهل الأندلس على الوجوه»، وقد كوّن هؤلاء الأندلسيون مجتمعاً غنياً وطبقة أرستقراطية إلى جانب الطبقة التركية الحاكمة. وكان نشاطهم يتجلى أكثر في الجزائر العاصمة. هذا وقد تدفقت الخيرات على الجزائر في هذه الفترة بفضل نشاط أهل الأندلس التجاري إضافة إلى درايتهم بالقرصنة في البحر[3]. ويتضح أن هذا النشاط عمل على إحياء عدة

---

1 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 132.

2 - PANELLA, Juan, le transfert des Moriscos Espagnols en afrique du Nord, Barcelona, 1971, P. 85.

3 - الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 400.

مدن بعد أن كانت في حكم الاندثار مثل شرشيل، وبليدة. وقد أدخل الموريسكيون بعض الزراعات الجديدة كالقطن بمستغانم والكروم بعناية. واستصلحوا مساحات كبيرة من الأراضي، كما زرعوا السهول المحيطة بالمدن الجزائرية[1].

أما في مجال هندسة المياه فقد عمل الموريسكيون بإتقان، وجلبوا الماء للجزائر العاصمة بواسطة قنوات خاصة بقيت من عهد الرومان تشبه القناطر في هندستها، فسخروها بمعرفتهم وخبرتهم في جرّ مياه الشرب للعاصمة. وقد بقيت طريقة توزيع الماء بهذا الشكل إلى حدود القرن الثامن عشر، حيث قام كذلك مهندس موريسكي يدعى «كاستيو» باكتشاف منبع للماء في هضبة قرب حصن يدعى حصن الإمبراطور، في ضواحي المدينة، فعمل المهندس «كاستيو» على إيصال الماء إلى المدينة بواسطة نحو مائة نافورة، داخل المدار الحضري. فحصد مشروعه الاستحسان والموافقة من طرف حاكم المدينة. وتم تنفيذ المشروع فعلا حيث وصلت المياه إلى ضواحي المدينة والتي كان يقطنها الأندلسيون بعدما كانوا يستعملون أواني الفخار «الخوابي» لجلب وادخار الماء[2].

إزدهرت حركة القرصنة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فكان البحر الأبيض المتوسط عبارة عن حد فاصل بين الإسلام والمسيحية. ويذكر المؤرخون أن الجزائر في هذا العصر اتخذت لأول مرة صفة دولة مستقلة يديرها خير الدين المدعو عند الأوروبين آنذاك «باربا روسا» أي اللحية الحمراء، والذي كلّفه السلطان العثماني رسميا من خلال خطاب موجّه إلى الأندلسيين بالجزائر بتاريخ 11 ذي القعدة 977هـ/16 نيسان 1570م يحثهم فيه على الدفاع عن الإسلام ونورد هنا بعض ما جاء فيه: «بمشيئة الله شرعنا في إرسال قوتنا المنتصرة نحو شواطئكم، فإن هذه القوات نراها ضرورية وهي من الآن على أهبة، وقد وجهنا أيضاً أوامرنا الأميرية صارمة إلى حاكمنا بالجزائر ليمدكم بكل ما تحتاجون من إعانة لأنكم برهنتم على إخلاصكم في الدفاع عن الإسلام ولم تتركوا دينكم

1 - سعيدوني، دراسات وأبحاث، ص 142-139.

2 - قشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة باسبانيا، ص 51.

رغم معارك الكفار التي واجهتكم، فالله يعينكم وقد برهنتم بحضوركم على شجاعتكم»[1].

لقد كان الأندلسيون يشكلون العمود الفقري للجيش الجزائري، وقد كانوا فنيين في الشؤون الحربية وخاصة في سلاح البارود. كما كان الأندلسيون خبراء في الملاحة التجارية. وقد سهل عليهم ذلك معرفتهم الجيدة بجغرافية الأندلس وأحوال البحر. أما في الميدان الزراعي كان للموريسكيين دور كبير في الجزائر، حيث أدخلوا إليها أنواعاً كثيرة من الفواكه والخضار. وأقاموا مزارع عدة بالقرب من المدن قصد فيها مدها بالمواد الغذائية الضرورية وعملوا على سقي تلك المزارع بخبرتهم في هندسة وتوزيع المياه التي أتوا بها من الأندلس[2].

لقد كان الموريسكيون في الجزائر ممسكين بجل قطاعات الاقتصاد، وكانوا يتقنون عدة صناعات وكثيراً من الحرف، فاشتهروا على الخصوص في صناعة النسيج والحرير. وقد انتقلت صناعة الحرير من غرناطة إلى الجزائر ويقال إنها انتقلت من الجزائر إلى إيطاليا، كما امتهنت هذه الصناعة النساء الموريسكيات المهاجرات إلى الجزائر[3]. كما كان الموريسكيون خبراء في الطب والجراحة، فنقلوا خبرتهم إلى الجزائر، ومنهم المدعو «خافيير»، والجراح «غارسيا دياس» فأصله من مدينة طليطلة.

ويبدو أن الأسر الموريسكية كانت متحدة فيما بينها مؤازرة لبعضها البعض. تمد يد المساعدة لمن أراد أداء فريضة الحج، فرغم وجود صعوبات في أول الأمر للاندماج مع الأسر الجزائرية، تمكنوا من التأقلم، فقد كانت لديهم في أول الأمر بعض العادات التي لم تلق تفهماً من طرف الجزائريين الذين كانوا يعتبرونها عادات نصرانية. رغم أنهم كانوا يقومون بشعائرهم الدينية الإسلامية على

1 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 259.

2 - قتشتيلو، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا، ص 52.

3 - هورتز ونبثنت، المرجع السابق، ص 262.

مايرام، ويشيدون المساجد والحمامات ويؤدون المناسك كلها على أحسن وجه[1].

ومن الأسر الأندلسية في الجزائر: رامول، بني هني، برحال، بن تشيكو، بن بكير، ابن الأمين، العادل، الخياط، سوسان، وغيرها[2].

وهذا وقد وصلت إلى الجزائر أعداد كبيرة من الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، ويمكن تقدير عدد الجزائريين من أصل أندلسي بعشر السكان على الأقل. كما أن الهجرة الأندلسية إلى الجزائر تركت آثاراً واضحة في اللباس والطبخ واللهجة، خاصة في تلمسان والمدن المجاورة لها[3].

3 - الموريسكيون في تونس

إتجه الأندلسيون إلى تونس من شرق الأندلس بالكثافة نفسها التي اتجهوا بها إلى المغرب، واستقر عدد منهم في العاصمة ومحيطها. وظل الأندلسيون التونسيون يحتفظون بشخصية مميزة أيام الحكم العثماني الذي أعطاهم الحكم الذاتي بزعامة شخص يسمى شيخ الأندلس[4]. وعَمِلَ جوّ العاصمة على صهر السكان أكثر من باقي المناطق التونسية[5].

ولم يتعرض الموريسكيون القادمون إلى تونس لحملة أسلمة إجبارية ، فالكتاب المعاصرون للموريسكيين ذكروا أنهم كانوا مسلمين كأهل الجزائر، ولم يتحدث أحد عن عملية تثقيف إجبارية في تونس[6]. أكد الشهاب الحجري أن جل الموريسكيين الذين انتقلوا إلى تونس: «بلغ نهاية جميع الأندلسيين بصغارهم لثمانمئة ألف مخلوق، أكثرهم خرج بتونس...»، كما يذكر المقري نفس الملاحظة بقوله: «...فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم

1 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 262.
2 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 338.
3 - الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 401.
4 - كولان، ج، س، الأندلس، ص 143.
5 - الكتاني، المرجع السابق، ص 395.
6 - عبد الرحمن، جمال، دراسات أندلسية وموريسكية، ص 108.

خرج بتونس....»[1]، وسارت على نفس المنهج المصادر الاسبانية إذ اعتبرت تونس البلد الذي استقبل أكبر عدد من الموريسكيين، أكبر من العدد الذي استقبله المغرب نفسه، صرح القبطان الانجليزي Robert Elliott ان عدد الموريسكيين بتونس بلغ سنة 1615م حوالي 8000 عائلة[2].

ويبدو أن الموريسكيين كانوا يتقاطرون إلى تونس باستمرار، ففي سنة 1019هـ/1610م وجد بميناء Agde الفرنسي حوالي 30 ألف موريسكي من الأراغونيين وكان القنصل التركي ينصحهم بالتوجه إلى تونس لأنها أضمن لهم[3]. ولكن مصادر أخرى تعطي صورة مغايرة حيث وصفت هجرة الموريسكيين إلى تونس إنها لم تكن بالكثافة نفسها التي كانت عليها في اتجاه المغرب والجزائر. وكان هذا الأمر راجعاً إلى عدة عوامل:

1 ـ لم يكن أمر إقامة دولة موريسكية سهلاً بتونس، بسبب الهجمات المتكررة للبحرية الإسبانية على شواطئها، وكانت السلطنة التركية عاجزة عن صدها نظراً للهزيمة التي منيت بها البحرية مع نظيرتها الإسبانية في معركة «لبانتو» عام 980هـ/1572م قرب جزر البليار.

2 ـ قرب المسافة بين الأندلس والمغرب والجزائر جعل الموريسكيين يتقاطرون بكثرة على هذين القطرين، خاصة بعد معركة البشرات عام[4]976هـ/1568، والتي انهزم فيها الموريسكيون.

3 ـ لم يتقبل التونسيون آنذاك الموريسكيين الوافدين على بلادهم بسهولة، فقد كانت عاداتهم ومظهرهم أقرب إلى النصارى منه إلى المسلمين. الشيء الذي جعل التونسيين يرفضونهم، بخلاف الموريسكيين الذين دخلوا إلى

---

1 - الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 41.

2 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص 528.

3 - Latham (J.D), Etude sur les Moriscos Andalous en tunisie, Leyden, 1960, P 30.

4 - قشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، منتديات أهل الحديث، تطوان، 2001م، ص 54.

تونس قادمين إليها من الجزائر والمغرب. فقد كانت أحوالهم لا تختلف عن أحوال أهالي هذين القطرين نظراً للمدة الطويلة التي قضوها بين ظهرانيهم. وكان هؤلاء هم الموريسكيون الأوائل الذين هاجروا من الأندلس بعد سقوط غرناطة، فكونوا جيلاً أو جيلين بالجزائر والمغرب، فكان التونسيون ينظرون إليهم على أنهم مغاربة أو جزائريون[1]. واعتباراً من عام 1018ه/1609م تعين على الفقهاء التونسيين بذل الكثير من الجهد حتى يتمكنوا من الرد على تساؤلات القادمين الجدد، وكان هؤلاء يجهلون جوانب كثيرة في أمور الدين الإسلامي، وكانت بعض الأسئلة التي يطرحونها جديدة تماماً[2].

4 ـ كان للنفوذ العثماني بتونس نظرة خاصة عن الموريسكيين ولم تكن تونس تتمتع باستقلالية في التصرف كما كان الشأن في المغرب بل كان الحاكم بحاجة إلى تفويض من إسطنبول في كثير من الحالات.

كانت هجرة الموريسكيين إلى تونس تتم غالباً عبر مدينة مارسيليا بفرنسا، وقد كان تجار من الموريسكيين أنفسهم يتعاطون تجارة هذه الرحلات من مرسى مارسيليا إلى تونس ويكون هذا غالباً في بواخر فرنسية لتجنب أعمال القرصنة[3].

أما عن ظروف انتقال الموريسكيين إلى تونس على يد ربابنة السفن الفرنسية، فقد عرضته القضية التي عرفت في المحاكم الفرنسية بقضية Estienne، إذ استولى هذا القبطان على ممتلكات الموريسكيين وانزلهم على شاطىء فارغ قرب بنزرت، فتقدموا بشكوى إلى محكمة Montpellier، وبعد فترة أصدرت حكماً قضى بإعدام هذا القبطان وحجز سفينته وممتلكاته لتعويض الخسائر التي سببها

1 ـ حتاملة، محمد عبده، الأندلس التاريخ الحضارة والمحنة، ص 914.

2 ـ قتشتليو، محنة الموريسكوس في اسبانيا، ص 100.

3 ـ إيبالثا، ميغيل دي، الموريسكيون في اسبانيا وفي المنفى، ترجمة جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، 2005م، ص 311.

للموريسكيين[1].

وقد أاستُقبل الموريسكيون استقبالاً حسناً سواءً على المستوى العام أو المستوى الرسمي. فالداي عثمان (1019-1002هـ/1593م – 1610م) ذكر أنه: «...كان أميراً في تونس، وتكفل أمورهم بالسكنى في المدينة وغيرها من القرى، وأحسن إليهم غاية الإحسان، أحسن الله إليه.....» [2]، كما أشار إلى ذلك المؤرخ التونسي ابن ابي دينار قائلاً: «..... وفي هذه السنة (1017هـ / 1608م) والتي تليها، جاءت الأندلس من بلاد النصارى، نفاهم صاحب اسبانية، وكانوا خلقاً كثيراً، فأوسع لهم داي عثمان في البلاد، وفرق ضعفاءهم على الناس، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا.....» [3].

وكانت ثغور تونس في ذلك الوقت، في أيام حاكمها عثمان داي، لطائفة من البحارة المغامرين، كانت تتكرر غاراتهم على الشواطىء الاسبانية بلا انقطاع. وكان من أشهر أولئك البحارة يومئذ، «عمر محمد باي» الذي اشتهر بجرأته وبراعته، وقد قام بعدة غارات على شواطىء اسبانيا الجنوبية[4].

ولم يقتصر الأمر على السلطات الرسمية، فقد بادر التونسيون أيضاً إلى تقديم كافة المساعدات لهؤلاء الموريسكيين، وهذا ما سجلته المصادر الموريسكية نفسها. فقد كان الوالي الشهير «سيدي أبو الغيث القشاش» يعطيهم في كل يوم نحو ألف وخمسمائة قرصة من الخبز صدقة. ورددت المصادر التونسية صدى هذا الاستقبال أيضاً: «ولما جاء أهل الأندلس إلى تونس ضاقت بهم الطرقات والأسواق والمساجد والديار والمخازن والحوانيت وصاروا يأتون إلى الشيخ والي سماطة وجرى معهم الشيخ رضي الله عنه، كالريح المرسلة في إطعام وكسوة العريان،

---

1 - Epalza (Miguel de), Moriscos et Andalous en tunisie au XVII siècle, in Etude sur les Moriscos Andalus en tunisie, Madrid, 1973, P. 185.

2 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 134.

3 - ابن أبي دينار، المؤسس في أخبار افريقيا وتونس، ص 193.

4 - عنان، دولة الاسلام في الأندلس، ص 389.

حتى أني أحصيت ما يخرج لمؤنتهم اثني عشر ماية خبزة....»[1].

وبعد موت «أبي الغيث القشاش» و«عثمان داي» واجهت العامة هؤلاء بقساوة، فقد انتقدوا عاداتهم ولباسهم وتقاليدهم وكانوا يغارون من ثرواتهم الطائلة التي نقلوها معهم، ووصل البعض منهم إلى حالة من اليأس أصبحوا خلالها نادمين على فردوسهم المفقود[2]. كذلك كانوا يصطدمون ببعض العقبات كجهلهم للغة العربية خاصة عند أدائهم لشعائرهم الدينية كالصلاة.

إذا كان الموريسكيون قد اندمجوا في المجتمع التونسي، فإنهم لم يفقدوا عوائدهم الإسبانية التي كانت لا تخلو من بعض الطقوس المسيحية لكونهم كانوا قد تعايشوا مع النصارى لمدة طويلة تربو عن القرن ونيف من الزمن، من سقوط غرناطة إلى أواخر أيامهم في القرن السابع عشر. ورغم ذلك التضارب في العوائد والتقاليد، استطاعوا أن يتكيفوا مع الوسط الجديد في تونس[3]. وقد ورد عن المؤرخين الإسبان أن أغلب الموريسكيين الذين هاجروا إلى تونس كانوا ينتمون إلى نواحي أراغون، وكاتالونيا، وقشتالة، وكان جلهم لا يعرفون العربية. فقد كان العهد متقادما بينهم وبين لغتهم الأصلية، بسبب عيشهم بين النصارى لأكثر من قرن من الزمن. وتوجد بتونس مخطوطات موريسكية باللغة الرومانثية (وهي إسبانية ذلك العصر).

لقد كان جل الموريسكيين القادمين إلى تونس لا يعرفون اللغة العربية لأنهم كانوا من الأواخر الذين بقوا في إسبانيا مختفين متظاهرين بالمسيحية وخاصة في أواخر القرن السابع عشر. وكان من ضمن هؤلاء من كان أصلهم من قشتالة وقد بقوا بها مدة طويلة، وكان يطلق عليهم لقب «المدجنون»[4] Almodajares.

---

1 - الحجري، العز والمنافع، للمجاهدين بالمدافع، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، 1987م، ص 41.

2 - القفصي، المنتصر، نور الارماش في مناقب القشاش، تحقيق عبد المجيد التركي، حوليات الجامعة التونسية، 1967م، العدد4، ص 70.

3 - قشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا، ص 56.

4 - قشتيليو، تأثير الفن العربي المدجن في حياة الإسبان، ص 50.

وكان المدجنون لا يعرفون إلا اللغة الإسبانية بسبب طول مدة خضوعهم لحكومة النصارى لعدة قرون قبل سقوط غرناطة بل حتى الذين انحدروا من أصل غرناطي كانوا قد أضاعوا اللغة العربية وصاروا يجهلون معرفتها وخاصة في أواسط القرن السادس عشر، إلا النادر منهم والذين كانوا يتكلمون العربية بصعوبة وبصيغة مشوهة. وقد بقي هؤلاء يكتبون في تونس بالإسبانية، وسمح لهم بذلك من قبل المسؤولين حتى أنه قد عثر على بعض المخطوطات في هذا الشأن حسب بعض الباحثين الإسبان أمثال أليفيراس Oliveras وأنريكي كاليس وغيرهم[1].

لقد أسهم الموريسكيون في تونس في كافة ميادين الحياة الاقتصادية والفنية والعسكرية، وغيرها. أما المجال الثقافي فقد عرف في أيامهم ازدهاراً كبيراً، لكونهم أتوا بثقافة إيبيرية أسهمت في النهضة الثقافية آنذاك في عصر العثمانيين.

كذلك إزدهر الميدان الاقتصادي بفضل اتصالهم بإسبانيا، وايضاً شهد الميدان الصناعي نمواً كبيراً خاصة مع الموجة الكبرى لمهاجريهم في القرن السابع عشر. ومما اشتهر به الموريسكيزن الصناعات اليدوية التي أتوا بها من الأندلس سواء في الجلد أو الخشب أو النحاس إلى غير ذلك من المواد، كما تفننوا في صناعة ما يسمى بالشاشية المشهورة بشمال افريقيا خاصة بالمغرب وتونس[2]. وكان من بين الموريسكيون في تونس شعراءً وكتاباً نذكر من بينهم المسمى «عبد الرزاق كاراباكا»، كما ترك الموريسكيين بتونس آثاراً مهمة في فن البناء والزخرفة في الفيسفساء. وأتقنوا كذلك صناعة النسيج وخاصة الحرير على يد النساء الموريسكيات[3].

أما الزراعة فقد أسهموا في ازدهارها لإتقانهم ودرايتهم الكبيرة بميدان ري

---

1 - ايبالثا، الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ص 8.

2 - كولان، ج. س، الأندلس، ص 144، الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 181.

3 - الشريف، محمد، تاريخ تونس، دار سراس، تونس، 2001م، ط3، ص 75.

الأراضي[1]. وقد تعاطوا كذلك تجارة الجلود التي كانوا يأخذونها من الماشية التي كانوا يربونها في الأراضي الفلاحية، وقد كانت هذه التجارة في يد اليهود التونسيين. كذلك اهتم الموريسكيون ببناء الحصون العسكرية، وعبدوا الطرق بالأحجار حتى تتمكن العربات من السير بسهولة. وشيدوا المساجد ومن بينها المسجد الشهير بمدينة «تستور»، وكذلك مسجد سليمان الذي يحتوي على كتابات موريسكية فوق جدرانه.

ويتبين أن السمة البارزة في هذا الوجود الموريسكي بتونس أنهم «انصرفوا عن السياسة انصرافاً كاملاً ولم يسعوا من قريب أو بعيد للتدخل في ما يمت بصلة إلى مجالات الحكم وميادين الوظائف السامية، فلا تجد منهم من نشبت على يديه نار ثورة أو أعان عليها، كما لا تجد من بينهم طامعاً في وظيفة هامة أو ساعياً إليها، وإنما اتجهوا فور وصولهم البلاد إلى نقل المظاهر الحضارية الأندلسية في شتى الميادين، علمية وصناعية وزراعية[2].

ويمكن تصنيف الموريسكيين بتونس إلى ثلاث فئات أثرت في أماكن انتشارهم في تونس على النحو التالي:

الفئة الأولى: فئة الأعيان

استقرت بالعاصمة وانشأت لها أحياء خاصة مثل «حومة الأندلس» و«زقاق الأندلس»، وهي تضم الأغنياء والوجهاء والمثقفين.

الفئة الثانية: الفئة المتوسطة

استقرت بالقرب من العاصمة، وتضم الصناع والحرفيين ومنتجي الخضار والفواكه الذين نجحوا في تصريف منتجاتهم، كما أنشأ الصناع أسواقاً للصناعات التي جلبوها معهم.

---

1 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 337.

2 - قشتيليو، حياة الموريسكوس الأخيرة، ص 59.

الفئة الثالثة:

وتتكون من الفلاحين، وهي أكبر عدد من باقي الفئتين السابقتين، وقد استقرت في الأراضي الخالية أو القليلة السكان، وكانوا يبحثون باستمرار عن الأراضي الخصبة القريبة من المياه[1].

وبقيت هناك فئة أخرى آثرت الاستمرار في جهادها ضد من طردها من أرضها، وهذه الفئة وجدت لدى «عثمان داي» كل التفهم والمساعدة، يقول ابراهيم مرباش في هذا الصدد: «.... ركبنا البحر وسافرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم ونحن بقرب مدينة مالقة ... والتقينا بأحد عشر مركباً ... ووقعت الحرب الشديدة ومات من الجانبين خلق كثير....»[2].

وتوجد اليوم أعداد مهمة من العائلات الأندلسية في كل مدن تونس الكبرى، كبنزرت وسوسة ومونستير وصفاقس، خارج مناطق هجرتهم الأولى، وأصبحت الأندلس ذكرى فقط وعادات يتوارثها الابناء عن الأباء.

ومن العائلات الأندلسية التي يمكن التعرف عليها في المدن التونسية المختلفة: كونكة (Cuenca) ومانوشو والصوردو (Sordo) وكرانديي (Grande) وحجاج والسراج وداوود ورحال والسباعي، الخ....[3]

4 ـ الوجود الأندلسي في مصر العثمانية

يروي المقري وهو نفسه موريسكي هاجر إلى مصر أن عدداً منهم هاجر إلى مصر فيقول: «وصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام».

---

1 - رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى الأندلس، ص 134.
2 - الحجري، العز والمنافع، ص 10.
3 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 336.

وعلى الرغم من قلة المصادر التي تتحدث عن هذا الموضوع، إلاّ أن الوثائق تشير إلى أن مصر كانت واحدة من أهم الأقاليم التي استقبلت الهجرة الموريسكية، وهي تشير إليهم بلقبين هما الأندلسي والقطوري، وكلمة القطوري من المصدر يقطر أي يتبع أو يلحق، فالمقري مؤلف نفح الطيب، تلقب الوثائق عائلته بالقطوري حيث اقامت عائلة المقري فترة طويلة بالاسكندرية إلى أن انتقل عدد من أفرادها إلى القاهرة، ولكن عند تسجيل تركة الشيخ المقري تلقبه الوثائق بالتلسماني، وهو ما يعكس المحاولات المستمرة من جانب الموريسكيين للتخلص من الماضي الذي كان يعتبره العامة نوعاً من الكفر أو التنصر[1].

وفي طولون أنشأ الموريسكيون درباً عرف بدرب القطوري، وفي بولاق حوش القطرية. إن المنطقة الشمالية (محافظة كفر الشيخ الحالية) كانت أكثر المناطق التي تركز فيها الموريسكيون، ويمكن ذكر أسماء بعض القرى التي على الأرجح أن مؤسسيها هم الموريسكيون: الحمراء، إسحاقة، أريمون، محلة موسى، سد الخميس، الناصرية، المنيل... وفي الإسكندرية استقر الموريسكيون شمال المدينة... وكان الوجود القطوري مهماً في رشيد أيضاً، كما شهدت مدينة طنطا هجرة واسعة من جانب الموريسكيين بوصفها معقلاً لأحد المشايخ المغاربة ألا وهو السيد البدوي.

وفي القاهرة تركز وجودهم في منطقة بين القصرين، وباب الشريعة[2].

و هذه بعض أسماء العائلات الأندلسية المهاجرة إلى مصر: العليج، الشاطبي، ومنهم أحد الأئمة العلماء وتوجد منطقة بإسمه في الإسكندرية، الصباغ، ميزون، جبريل، الهجان، العنابي، العبادي.... [3].

1 - عبد المعطي، حسام، العائلة، والثروة والبيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م، ط1، ص 18 - 19.

2 - المرجع نفسه، ص 20 - 21.

3 - المرجع نفسه، ص 113.

5 - الموريسكيون في تركيـا

لم تقتصر هجرة الموريسكيين على بلدان شمال إفريقيا بل شملت كذلك أقطاراً أخرى إسلامية وغير إسلامية وخاصة أثناء الطرد الكبير للموريسكيين بين (1018 - 1023هـ/1609 - 1614م) حيث كانت جحافل من الموريسكيين تغادر إسبانيا مستعملة مختلف الطرق والوسائل، وبما أن عدداً كبيراً منهم كان قد استقر بالمغرب، كان على المتأخرين منهم أن يبحثوا عن ملجأ آخر غير شمال إفريقيا، لذلك توجهوا إلى البلاد التي كانت تحت نفوذ العثمانيين ليكونوا في مأمن من كل سوء قد يأتي من عدوهم نظراً لعظمة الدولة العثمانية آنذاك. فشد الموريسكيون الرحال إلى تركيا وأراضي البلقان التي كانت ولاية عثمانية حيث كانت توجد مدن وقرى زاهرة ومأهولة بالمسلمين، فوجد الموريسكيون بها أمناً وطمأنينة. بينما كان من هاجر منهم إلى الشمال الإفريقي معرضين لبعض المتاعب وخاصة من أقام قرب الشواطىء التي كان بعضها محتلاً بأعدائهم من إسبان وبرتغاليين[1].

كان المسلمون في الأندلس أيام حربهم ضد النصارى، يعلقون آمالاً كبيرة على العثمانيين لمساعدتهم في كفاحهم. وخاصة مملكة غرناطة وذلك بعد انتصار العثمانيين على البيزنطيين واحتلالهم للقسطنطينية عام 857هـ/1453م على يد محمد الفاتح. كما اعتمد العثمانيون على الموريسكيين في ميدان التجسس على الإسبان سيما وأن تركيا وإسبانيا كانتا قويتين في ذلك العصر، الأولى في الشرق، والثانية في الغرب[2]، وقد وقعت معارك كبيرة بينهما وخاصة في البحر، ومنها المعركة التي حدثت أيام كارلوس الخامس قرب الجزائر العاصمة عام 948هـ/1541م، كما قامت تركيا بمساعدة مجاهدي الأندلس سنة 978هـ/1570م في حرب البشرات التي تزعمها «فرناندو دي فالور محمد بن أمية»، لكن مساعدة

---

1 - ايبالثا، ميغيل دي، الموريسكيون في اسبانيا وفي المنفى، ص 12.

2 - قشتيليو ،محمد، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ص 60.

تركيا للموريسكوس لم تكن بالشكل الذي يمكن أن يقلب موازين القوى لصالحهم، وبالتالي لم تحقق النتائج التي كانت متوخاة من مساندة العثمانيين[1]. ساعد الأتراك الموريسكيين على الإقامة بإمبراطوريتهم مادياً ومعنوياً حيث منحوهم حرية العمل والتنقل. وقد جعل الموريسكيون اسطمبول طريقاً للهجرة إلى داخل أوروبا كفرنسا وإيطاليا.

وقد قام الموريسكيون في بعض الأحيان بإيفاد بعثة منهم لبعض ملوك أوروبا يستعطفونهم للسماح لهم بالمرور بأراضيهم ومن هؤلاء الملوك: جاكوب الأول ملك إنجلترا وايرلندا وأسكوتلندا، والوصية على عرش فرنسا ماريا دي مرثديس.

ويبدو الأميرال العثماني جليل باشا قام بزيارة إلى المغرب للتفاوض مع المسؤولين حول موضوع هجرة الموريسكيين. كما أرسلت بعثة برئاسة علي سليمان بزيارة إلى بلغراد فاستقبلها الوزير مراد باشا وبحثا موضوع هجرة الموريسكيين في اتجاه بلاد البلقان التي كانت تحت النفوذ العثماني[2].

وهكذا فقد نزح كثير من الموريسكيين إلى تركيا حيث منحتهم الدولة العثمانية أراضيَ للإقامة والفلاحة، فأسسوا قرى ازدهرت فيها الحركة التجارية والاقتصادية والفلاحية، إلاّ أن دور الموريسكيين لم يكن أساسياً في أراضي البلقان وتركيا كما كان الشأن في شمال إفريقيا حيث أسهموا في شتى الميادين. أما في البلقان وتركيا فقد اكتفوا بالعمل الفلاحي والتجاري وكذلك السمسرة بين أوروبا والشرق مبتعدين كل البعد عن العمل السياسي[3].

ونجد أصداء ذلك في تقارير السفير الفرنسي بارون دي ساليقناك، والهولندي كورنليس هاقا ويصفونهم: «بأقلية كبيرة ونشيطة ومؤثرة»[4].

---

1 - قشتيليو، محمد، محنة الموريسكوس في اسبانيا، مطابع الشويخ، تطوان، 1999م، ط2، ص 48.

2 - بشناوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، 348.

3 - ايبالثا، ميغيل دي، الموريسكيون في المنفى، ص 14.

4 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 250.

6 ـ الموريسكيون في أميركا

بعد سقوط غرناطة، وسيطرة النصارى على بلاد الأندلس كلها ونقضهم العهد تجاه المسلمين، اضطر هؤلاء للهجرة إلى خارج إسبانيا. ومن المناطق التي قصدها الموريسكيون أميركا وخاصة أميركا الوسطى والجنوبية التي كان الإسبان والبرتغال مسيطرين عليها مباشرة بعد اكتشاف العالم الجديد من طرف كريستوف كولمبس عام 897هـ/1492م (وهي سنة سقوط غرناطة).

فبعد هذا الاكتشاف اضطر المكتشفون إلى تعمير الأرض الجديدة وذلك لكون السكان الأصليين لم يتأقلموا مع المكتشفين، ولم يقبلوهم لأنهم كانوا بعيدين عنهم في كل شيء، وكانوا يرونهم أعداء لهم، فاضطر المعمرون لجلب اليد العاملة من خارج أميركا، فاستغل الموريسكيون هذه الفرصة، وصاروا يغادرون وطنهم تحت راية نشر المسيحية مع المسيحيين ظاهرياً، أما غرضهم الأساسي فكان هو الهروب من رقابة محاكم التفتيش.

استقر الموريسكيون بالعالم الجديد وأسهموا في تعميره وازدهاره بخبرتهم في إصلاح الأراضي وزراعتها. ففي القرنين السادس والسابع عشر ذهب الكثير من المهاجرين إلى المستعمرات الإسبانية بالمكسيك وبوليفيا وكولومبيا وغواتيمالا وكوبا وكان هؤلاء المهاجرون متعددي المهن والحرف من مزارعين وبنائين ونجارين، فحملوا معهم فنهم وعملهم وتركوا في تلك الديار بصمات في البناء والزخرفة والنقش على الخشب والحديد، ولا زالت إلى يومنا هذا بنايات في عدة أماكن من دول أميركا تشهد على تأثير فن الموريسكيين، وتوجد بعض الآثار في ولايات أميركا الشمالية كفلوريدا وكاليفورنيا اللتين كانتا تابعتين لإسبانيا فيما قبل[1].

وأول من وصل إلى شمال أميركا من الموريسكيين «رودريكو دي لوبي»، «زميل كولومبس»، الذي أعلن إسلامه بعد رجوعه إلى إسبانيا، واستبانيكو دي

1 - قشتيليو، محنة الموريسكوس في إسبانيا، ص 63.

آزمور، الجنرال الإسباني الذي احتل أريزونا، وهو في الحقيقة موريسكي[1].

7 - الموريسكيون في إيطاليـا

مر الكثير من الموريسكيين بإيطاليا في طريقهم إلى تركيا وتونس، وبعضهم بقي فيها، وكان العاهل الكاثوليكي، قد حرم إقامتهم بأي أرض تقع داخل أملاكه في الأراضي الإيطالية.

أما الملك الوحيد الذي أعلن استعداده لقبولهم فهو الدوق الكبير لتوسكانا وقد حاول أن يقنع ثلاثة آلاف بالبقاء في ليورنا، وفشلت المحاولة، ربما لأنهم أرادوا أن يجبروهم على بعض الأعمال غير المناسبة لهم أو التي لا تعجبهم، ولهذا فإن الاستقبال الطيب تحول إلى تضييق ومعاناة وسوء معاملة[2]، وفي خطاب مرسل من الجزائر من رجل يدعى «مولينا» إلى رجل من «تروخيجو»، يصف له المعاملة السيئة التي لاقوها في مرسيليا، ويضيف: «كنا هناك، ويزيد عددنا على الألف، قرر بعضنا الرحيل من تلك المملكة إلى مكان آخر أكثر راحة. أما نحن فقد ذهبنا إلى ليورنا، وقد حدث لنا مثل ما حدث في مارسيليا. ونظراً لأن السادة هناك يريدوننا من أجل استغلالنا واستخدامنا في الزراعة وغيرها من المهن الدنيئة، التي لا يريدها عامة الناس هناك، في حين أن أغلبهم من التجار والحرفيين.... اتفقنا أن نذهب إلى المكان الذي يقرره الملك، وهكذا أتينا إلى مدينة الجزائر حيث يوجد آخرون من استرامادورا، ومانشا وأراغون»[3].

وهكذا يكون مجموع الأندلسيين المهجرين من بلادهم قسراً والذين وصلوا إلى شمال افريقيا في الحقبة بين سنتي 1609م و 1614م حوالي مئة وثمانين ألف أندلسي، منهم ستون ألف أندلسي استقروا في المغرب، و خمسة وستون ألف أندلسي في الجزائر، و خمسون ألف أندلسي في تونس، وبضعة الآف منهم في ليبيا.

---

1 - الكتاني، إنبعاث الإسلام في الأندلس، ص 418.

2 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 248.

3 - المرجع نفسه، ص 249.

أما الباقون الذين تركوا اسبانيا عن طريق فرنسا بحوالي 50,000 أندلسي، ولم يبق بفرنسا سوى ألف موريسكي تقريباً. ودخل عدة آلاف من الأندلسيين إلى إيطاليا، ولم يستقر بها سوى ألف أندلسي، واتخذ الآخرون طريقاً للإتجاه إلى الدولة العثمانية.

فماذا حدث لـ 97,000 أندلسي الباقيين الذين أخرجوا من اسبانيا؟ يمكن تقدير عدد من مات منهم، غرقاً في البحار أو قتلاً في الطرقات أو بسبب المرض والجوع بحوالي عشرين في المائة من مجموع المطرودين، أو حوالي 65,000 أندلسي، بينما رجع 32,000 أندلسي الباقون إلى الأندلس بطريقة ما واندمجوا في أهاليها[1].

8 - الموريسكيون في فرنسا

اعتبر هنري الرابع نفسه أنه ملتزم سياسياً مع الموريسكيين، إذ يحاول دائماً خلق مصاعب لفيليب الثالث عن طريقهم، فكان أن أصدر مجلس الدولة في 29 ذي القعدة 1018ه/ 22 فبراير 1610م قراراً باستقبالهم شريطة اعتناقهم الكاثوليكية وشريطة أن يجتازوا La Garonne و La Dordogne. وكان يرمي بذلك إبعادهم عن الحدود الإسبانية خوفاً من تآمرهم مع الإسبان ضده.

وقد نشر «لوي كارديناك» وثيقة تتعلق بالوجود الموريسكي بفرنسا، وهي تضم القرارات الصادرة عن برلمان تولوز وبروفانس والقرارات الصادرة عن الملك في شأنهم، وكذلك الأحكام التي أصدرتها محاكم المنطقة في هذا الشأن[2]. وتلقى اسقف المناطق التي استقر بها الموريسكيون أمراً بمراقبة هؤلاء تحت طائلة حكم الإعدام. أما الذين يرفضون اعتناق المسيحية فيسمح لهم باجتياز جنوب فرنسا إلى شمال افريقيا وتعهدت الحكومة الفرنسية بسلامتهم أثناء وجودهم بالتراب الفرنسي أو أثناء تنقلاتهم البحرية، وأرغمت قبطان كل سفينة

1 - الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 184-183.
2 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 298-342.

تنقل الموريسكيين على تقديم شهادة عن هؤلاء[1].

ويعود التأثير الأندلسي في فرنسا إلى حقبة ما بعد سقوط غرناطة وطرد سنة 1017هـ/1609م. وفي سنة 1019هـ / 1616م زار الشهاب الحجري فرنسا على رأس سفارة لسلطان المغرب، من ميناء آسفي، وتحدث عن وجود قاض للأندلسيين في المجلس الملكي الفرنسي، مركزه في سان جان دولوس (ببلاد الباسك الفرنسية)، يختاره الملك من بين النصارى ليقضي بين الأندلسيين في نزاعاتهم ولأخذ خمس أملاك أغنيائهم لصرفها على فقرائهم. وتبين الوثائق الفرنسية تفاصيل عن الموريسكيين في فرنسا في القرن السابع عشر، منها رسائل حول موضوع إنجاز قرار برلمان «إكس البروفانس» بطرد اللاجئين الموريسكيين تظهر أنه سمح لعدد كبير منهم بالإقامة حول تولون، جنوب فرنسا، وإعفائهم من الطرد بحجة أنهم نصارى مخلصين[2]. وتبرهن أحداث القرن السابع عشر أن معظم موريسكيي فرنسا بقوا مسلمين سراً. وفي فرنسا عائلات كثيرة ذات أصول أندلسية واضحة ومعروفة منها: عائلة (Grandet) وجعفري (Jafari)، وبسطي (Basti)، و (Quiles).... الخ[3].

قبل الموريسكيون وهم في هذه الحالة من الحاجة والعوز كل أنواع الحماية التي عرضت عليهم، ولم يجدوا بأساً في التظاهر بإيمان لا يحسون حرارته، لأن ذلك كان قد فرض عليهم لمدة طويلة خلال وجودهم في إسبانيا من أجل البقاء. لكن هذه اللعبة لم تستمر طويلاً فالمجمع الكنسي البروتستانتي في «فيتري» حذر الجماعات الإصلاحية من المسلمين الذين طردوا من إسبانيا والذين ينتقلون من كنيسة إلى أخرى أن لا يستغلوا الكرم المقدم لهم[4].

---

1 - الكتاني، إنبعاث الإسلام في الأندلس، ص 415.

2 - المرجع نفسه ، ص 416.

3 - الكتاني، علي المنتصر، المسلمون في أوروبا وأميركا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ط1، ص 199-196.

4 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 247.

9 - الموريسكيون في لبنان

ابتدأت الهجرة المغربية الأندلسية إلى بلاد الشام قبل سقوط الأندلس 897هـ/1492م، وقد تزايدت بعد هذا الحدث، وتعود هذه الهجرة بجذورها إلى القرن الأول الهجري- السابع الميلادي – لا سيما بعد استقرار المسلمين في المغرب والأندلس، ويبدو أن الموجات المغربية الأندلسية قصدت بلاد الشام لأسباب عديدة:[1]

1 - مواسم الحج والعمرة.

2 - الرحلة في طلب العلم والجهاد

3 - الحروب الصليبية حيث أسهم المغاربة في ميادين الجهاد والرباط دفاعاً عن بيروت وبلاد الشام. كما شهدت هذه البلاد هجرات متتالية بعد سقوط الأندلس بيد الإسبان 897هـ/1492.

ومن بين تلك الأسر والقبائل التي توطنت بيروت على سبيل المثال لا الحصر:

- آل مدور: بعد سقوط الأندلس، توزّع أمراء آل المدوّر في مناطق عربية عديدة منها بلاد المغرب العربي ومصر وبلاد الشام بما فيها بيروت.
- آل الطيارة: هم في الأصل من الموريسكيين الذين هاجروا من الأندلس ووصلوا إلى سوريا ولبنان.
- الأحمر: استطاع أمراء بني الأحمر أو بني الحمراء من القيام بدور سياسي وعسكري بارز في الأندلس، ومن إقامة دولة عرفت بإسم دولة بني الأحمر قبل وبعد سقوط الأندلس انتشر أمراء بني الأحمر في مختلف الولايات والمدن العربية، ومن بينها المقاطعات اللبنانية، وقد توطن فرع من آل الأحمر في البقاع حوالي عام 539هـ/1145م[2].

---

1 - حلاق، حسان، موسوعة العائلات البيروتية، دار النهضة العربية، بيروت، 2010، ط1، ص، 29.

2 - المنجد في الأعلام، ص 26.

إضافة إلى عائلات كثيرة مثال: الأبيض، إدريس، بدر، بنيّ (البنا) نسبةً إلى مدينة بُنية الجزائرية، برغوث، بكداش، الحريري، الحشاش، حلاق، حمود، زيدان، سِراج، سلام، شقير، شبارو، شهاب الدين العربي، العيتاني (بيهم، الحص، العيتاني)، قباني، الداعوق، منيمنة، يموت، وسواها من العائلات المغربية[1].

وقد أسهمت هذه العائلات مع عائلات بيروتية بالوصول لبيروت إلى ما وصلت إليه كمدينة عربية وكعاصمة لبنانية، ومن بين الإنجازات المغاربية في بيروت على سبيل المثال:

1 ـ الإسهام في توسعة وترميم المساجد، وتشييدها في مرحلة لاحقة.

2 ـ إقامة الزوايا الإسلامية، ومنها زاوية الحمراء في باطن بيروت.

3 ـ الأبراج العسكرية وأبواب بيروت ومن أهم أبواب بيروت التي سميت باسم إحدى العائلات البيروتية المغربية: باب إدريس.

4 ـ الجبانات، نظراً لكثرة المغاربة في بيروت، فقد أقاموا لأنفسهم جبانات خاصة بموتاهم خارج سور بيروت[2].

ج- أثر الموريسكيين في الأندلس خلال فترة الاضطهاد

لقد كان الصراع بين الموريسكيين والنصارى القدامى كبيراً وقوياً، وعلى الرغم من تراجع دورهم في ظل ظروف قاهرة فالكتابات تشير إلى الإجتهاد الموريسكي أي قدرتهم الكبرى على العمل. وقد أشار إلى هذا الأب بيدرو دي ليون معتمداً على قول الموريسكيين: «عندما أخرج من منزلي إلى الحقل استقبل الشمس في وجهي، وعندما أعود تودعني في ظهري، وليس كالنصارى القدامى الذين يعملون على فترات»[3].

برع الشعب الموريسكي في مجال الزراعة، فالموريسكي لم يعمل مطلقاً

---

1 ـ حلاق، حسان، موسوعة العائلات البيروتية، ص، 32.

2 ـ المرجع نفسه، ص، 33.

3 ـ هورتز وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 122.

صياداً أو راعياً أو جامعاً للأخشاب أو الفحم، وفي المقام الثاني يأتي العمل بالحرف الفنية ومن ثم التجارة المحدودة والمواصلات[1].

1 - الفلاحة والزراعة:

كان معظمهم يعمل في الأراضي المروية حيث يستطيع الموريسكي أن يبرز مواهبه في الصبر والجد[2].

فالحاجة لزراعة مكثفة تستطيع مواجهة حاجات شعب كبير، وضرورات اقتصادية كبيرة تجبره على إخراج الحد الأقصى من الإنتاج، فالمصطلحات التقنية لهذه الزراعة كلها ذات أصل عربي، كذلك فإن أغلب المحاصيل المزروعة ذات أصل شرقي، وبعضها ذات أهمية كبيرة مثل: الأرز، والبرتقال، وقصب السكر[3]. والظاهرة التي تسترعي الانتباه استغلال الموريسكيين للمناطق الجبلية فحفروا الآبار والمجاري المائية الصغيرة، وذلك لاستخدامها في زراعة الأماكن الصالحة لها[4].

وعندما تم تشتيت الموريسكيين الغرناطيين فكرت بعض التجمعات الاستفادة من خبرتهم في زراعة البساتين، كما تم الاستفادة منهم في «باسترانا» في دعم صناعة الحرير.

ولقد أشار «توليو هلبرين» أنه في بلنسية كان الموريسكي إلى جانب كونه مزارعاً، كان يعمل حارساً لمراقبة اللصوص والرعاة، وهو عمل قد يسبب له عداوات. وكان يؤجر نفسه بسعر أرخص من النصارى، وهذا يكفي لقراءة نظرة البورجوازيين والنبلاء تجاه الطرد، والذي استقبل بفرحة عارمة من الشعب النصراني.

---

1 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص 123.

2 - قشتيليو، محمد، محنة الموريسكوس في اسبانيا، ص 56.

3 - قشتيليو، محمد، حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا، ص 16، هورتز وبنثنت، المرجع السابق، ص 126.

4 - قشتيليو، المرجع السابق، ص 112.

وكان اضطهاد الموريسكيين يؤدي إلى نقص في انتاجيتهم، وبالتالي في دخل السادة، فاستغل بعض النبلاء رغبة عمالهم في الحفاظ على الإسلام لأخذ ضرائب باهظة منهم مقابل عدم الوشاية بهم[1].

2 ـ نشاط الموريسكيين الزراعي:

- زراعة الأرز، كانت قاتلة تسبب حمى الملاريا، وقد انحط مستواها في بلنسية بعد طرد الموريسكيين. وكذلك زراعة قصب السكر عانت من نفس الظاهرة وقد كان ذلك عملاً تقليدياً للموريسكيين، فاختفت زراعته من بعض الأماكن لنقص اليد العاملة المدربة.
- أما النشاطات المتعلقة بتربية دودة القز فقد كانت حصراً موريسكية، لدرجة أنه بعد طرد الموريسكيين الغرناطيين ومنعهم من تغيير الإقامة، كان يسمح للكثير منهم بالهجرة مؤقتاً لمرسية للقيام بتلك الأعمال، وقد سجل الطرد انحطاطاً بذلك النشاط في كل من محافظات غرناطة وبلنسية ومرسية[2].
- زراعة القمح كانت منتشرة في ريف «تارازونا»، وبعد عام 1019هـ/1610م ساء حال تلك المناطق ولكن لم تختف.

في إقليمي قشتالة وأندلوتيا كان عدد الفلاحين الموريسكيين محدوداً، وفي تلك الأقاليم كان الموريسكي عادة أجيراً. وفي كثير من قرى استرامادورا كانوا كثيرين، هذا بجانب كونهم يمثلون كل السكان في هورناتشوس، وكانوا فلاحين لأرض تزرع بلا ري.

إن عملهم الزراعي كان مبنياً على أسس علمية وبرز علماء أندلسيون في عالم النبات والفلاحة منهم: «ابن العوام» الاشبيلي، مهندس في توزيع المياه، أول من ابتكر طريقة الري بالتنقيط، واستخدم الفخار في قنوات الريّ وتوزيع المياه

1 ـ الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص 140.

2 ـ بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 144.

على الأراضي،واعتمد الطريقة التجريبية في أبحاثه، واهتم بعمليات التطعيم (التهجين). واسبانيا تطعم الصنوبر بالصنوبر الحلبي كما كان يفعل ابن العوام الاشبيلي تماماً. ومن كتبه (الفلاحة الأندلسية)، ترجم إلى الفرنسية والإسبانية، و (غراسة الكرم)، و (عيون الحقائق وإيضاح الطرائق)[1].

فكل الأشياء الحيوية ضوعفت بمجهود الموريسكيين من زراعة السكر ومعاصر الزيت ومستودعات للعنب، فكان الزيت والنبيذ يصدران للأقطار البعيدة عن إسبانيا فضلاً عن القريبة منه[2].

ولدينا وصف ممتاز عن حال غرناطة قدمه نبيل بولندي يدعى جاك سوبيسكي Jacques Sobieski زار تلك المنطقة عام 1020هـ/1611م وكتب: «حين يصل المرء إلى أندلوثيا فإن العينين تتحيران من كثرة أشجار الزيتون والبرتقال ومساكب الرز المترامية في كل مكان كالغابات. وأجمل المناطق يقع حول غرناطة حيث أقام الأندلسيون طويلاً وجلبوا المياه من الجبال المغطاة بالثلوج مستخدمين القنوات والأنفاق لإخصاب السهول والتلال المحيطة بهم وتحويل تلك البقعة إلى واحدة من أجمل ما رأت العين في العالم. وتوقف كل هذا في غرناطة وغيرها بعد إتمام نفي معظم الاندلسيين وبعده[3].

3 - إبعادهم عن الحرف والتجارة:

رغم شهرة الشعب الموريسكي بأنه شعب ريفي إلاّ أنه من الممكن أن يوجد بينهم عدد من الحرفيين، والفونسو فيرنانديث يقول: «كانوا يعملون في التجارة، ولديهم محلات للأطعمة في أفضل الأماكن في المدن والقرى، ويعيش أغلبهم بكسب يده، والبعض الآخر كان يعمل بحرف ميكانيكية مثل: صانعي الغلايات،

---

1 - أبو خليل، شوقي، علماء الأندلس، ص50، دائرة المعارف الاسلامية، ترجمة أحمد الشفتاوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، 1933م، ج1، ص 145.

2 - قشتيليو، محمد، محنة الموريسكوس في اسبانيا، ص 58.

3 - بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 350.

.Defourneaux, Marcelin, Daily life in Spain In the colden age. P 17

الحدادين، صانعي النعال، والصّبانين، والبغّالين[1].

ومن البديهي أنهم اضطروا للقيام بالنشاطات التي لا يُستغنى عنها في الحياة الإنسانية، وحيثما كانوا أقلية، وكان لهم أهمية لتفوقهم التقليدي في بعض القطاعات، وتشتيت الموريسكيين الغرناطيين أعطت دفعة لمثل هذه الأعمال، لأن القليل منهم فقط هم الذين استطاعوا امتلاك أراضٍ زراعية.

وقد صدرت لوائح ليست قليلة يحرم بها إتخاذ معلمين من سلالات إجتماعية وضيعة فقط، بل يمنع من اتخاذهم كصبيان أو حرفيين[2]. فإن اللوائح الإشبيلية كانت تحرم على رؤساء صنعة النجارة اتخاذ معلمين «لا يكونون نصارى وأن يكونوا نصارى مخلصين».

والأسباب التي دفعت لاتخاذ مثل هذه الإجراءات حسب رأي نقابة صانعي الأحذية عندما منعوا السود والعبيد والمسلمين من الإنضمام لنقابتهم عام 1006هـ/1597م: إن مقداراً كبيراً من الانتاج الفني الصناعي كان في أيد موريسكية، وهذه الظاهرة تم إثباتها عن طريق كمية كبيرة من الوثائق العامة والخاصة، تبعاً لرأي أحد كبار العارفين الإشبيليين: «من قراءتنا للوثائق استنتجنا أن الموريسكيين كانوا يعملون صانعي مصابيح متخفين تحت أسماء نصرانية، كذلك كانوا هم الذين ينتجون أفضل أنواع القماش وأعمال الجلود، والمعادن مثل: النحاس والفضة والأسلحة وأسرجة الخيول وأدوات تزيين المعابد...» [3].

4 ـ الحرف الفنية والمعمارية:

كانت الحرف المفضلة، تلك المتعلقة بالإنشاءات.

فإن البناء الأكبر لقصور إشبيلية عام 911هـ/1505م كان موريسكياً، وفي هذا التاريخ نفسه بدأ بناء برج سرقسطة الجديد، وقد كان رائعاً، وللأسف فقد

1 ـ هورتز وبنثنت، المريسكيون حياة وماساة أقلية، ص 129.

2 ـ قشتيليو، محنة الموريسكيون في إسبانيا، ص 130.

3 ـ هورتز وبنثنت، المرجع السابق، ص 131.

اختفى، وهذه الجوهرة من الفن المدجن كان علامة أيضاً على عهد من التسامح ما لبث أن مضى في طريقه أيضاً للاختفاء.

وفي بعض الكنائس مثل كنائس «مالونيدا وتوبيد»، وقعوا على العمل وأضافوا إليه الشهادة الإسلامية «لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله». وفي القرن السادس عشر لم يكن يسمح بمثل هذه العلامات الظاهرية إلا أن عمال البناء كانوا يتمتعون بتسامح تشريفي ربما كان بسبب تفوقهم.

أغلبية هؤلاء المعماريين لا نعرف عنهم إلاّ أسماءهم، ونعرف أن أحدهم أدار عملية إنشاء سد «الإيبرو» في «تشبيرتا» عام 949هـ/1542م.

5 ـ أعمال المعادن وصناعات أخرى

وأما أعمال المعادن فيبدو أيضاً أنها حرفة موريسكية، تبعاً لرأي «غارثيا أرينال» كانوا يحتكرون هذه الشعبة من النشاطات، وعندما صدر قرار الطرد العام فإن مسؤول قرطبة طلب استثناء معلمي أسرجة الخيل[1]. وبين الموريسكيين في بلنسية وُجد موريسكيون يعملون في صناعة الغلايات، وحدادون، والمصابيح المضيئة يعود لهم الفضل في إنارتها حتى الفجر، بل إن أحدهم وهو خوان رودريغيث هو الذي صنع النقوش الجميلة التي تزين باب المغفرة في كاتدرائية إيسبالينا.

وكذلك عمل عدد كبير من الموريسكيين والمدجنين في أعمال الجلود، كما كانوا يصنعون سلالاً وحبالاً وأسرة يحملونها لبيعها في مدريد.

وأما صناعة الألعاب النارية فيبدو أنها كانت مهنة تقليدية موريسكية، ولا يمكن أن تكون كل من غرناطة وبلنسية ومرسية قد احتفظت بهذه الصناعة على سبيل المصادفة، وعمل الموريسكيون الأرغوانيون في صناعة الرصاص، وكان لديهم طواحين لصنع البارود، وصنعوا أيضاً البنادق[2].

1 ـ حتى، فيليب وآخرون، تاريخ العرب، ص 676.

2 ـ هورتز ونبثنت، الموريسكيون، حياة ومأسة أقلية، ص 134.

إن صناعة الموريسكيين لم تكن تضاهيها صناعة الإنكليز، ولا أية دولة أوروبية في إتقانها الروح الفنية التي تتجلى فيها، سواء في لمعان الألوان ومتانة النسيج وصناعة الأزهار المقلدة، أما الحلي ما زالت محفوظة لم يتلف من بهائها ورونقها الزمن شيئاً، وأواني الخزف والحفر على الخشب والنقش على الأحجار والجبص، وما إلى ذلك مما يدل على تقدم الشعب الموريسكي وبلوغه أرقى الحضارات في ذلك العصر[1].

6 ـ الأعمال التجارية والنقل:

كذلك فإن الأعمال التجارية الصغيرة والنقل كانت من بين الحرف التقليدية للموريسكيين، ويمارس هذه الحرف أولئك المطرودون من غرناطة، وقد اشتكت المجالس من هذا عدة مرات، ففي مجالس عام 1593م، مثلاً، يقولون: إنهم احترفوا التجارة والخبازة والجزارة والعمل في الحانات وسقاية الماء، وذلك يسمح لهم بأن يكسبوا كثيراً ويدخروا أموالاً طائلة[2].

وكان البغال مظهراً من مظاهر التجارة، نظراً لأنه لم يكن يوجد دوائر تجارية منظمة، فقد كان البغالون أنفسهم والذين كانوا يعملون في أغلب الأحيان لحسابهم الخاص ينقلون المنتجات حيث توجد بكثرة إلى أماكن أخرى تقل فيها وهكذا فإن ندرتها ترفع ثمنها، وكان يعوق تنقلهم مانع قانوني: وهو تحريم تغيير محل الإقامة بالنسبة للموريسكيين الغرناطيين. فإن الموريسكيين كان لهم سيطرة على حركة النقل في قشتالة لدرجة أن طردهم أثر في ذلك النشاط.

لم يكن الموريسكيون يجوبون الطرق البرية، فحسب، بل وُجد في أراغون نقابة للنقل المائي لهم، وقد وصل بهم الأمر إلى احتكار حركة النقل عبر نهر «الإيبرو»[3].

ولكن تراكم المراسيم والقوانين، أجبرتهم على التعايش مع القذارة، ومنعت

1 ـ قشتيليو، محنة الموريسكوس في اسبانيا، ص 59.

2 ـ بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 294.

3 ـ بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 144.

معظم الأندلسيين من مزاولة التجارة والأعمال الحرة فصاروا بغّالين وفلاحين بالسخرة في مزارع قشتالة[1].

7 - الطب:

رغم الموانع التي كانت توضع في طريق الأفراد ذوي النسب العربي، كان لديهم كفاءة أكثر ودرجة أكبر من الإعداد، وربما رغبة أكثر في الإندماج، ويعتبر مثال مهنة الطب هي الأكثر توضيحاً لهذا الوضع.

وعندما رأى الأطباء الموريسكيون أن المجتمع يعتبرهم أطباء دجالين على الرغم من تكوينهم المهني الذي لا يستهان به، حاول بعضهم الوصول إلى درجة الإحتراف التي يتمتع بها الأطباء النصارى، لكن عندئذٍ تدخلت الحواجز العنصرية[2].

ففي إحدى الجلسات البرلمانية لعام 1016هـ/1607م (وثيقة رقم 23/583) أعلن نائب طليطلة، أنه في جامعة تلك المدينة ومدن أخرى يوجد كثير من السامعين الموريسكيين»، وهذا سيؤدي إلى أن تفقد هذه المهنة الصيت والإعتبار، حيث أن النصارى القدامى لا يرغبون بإحترافها هي ومهنة الصيدلة، وسيصل اليوم الذي يكون فيه كل أطباء وصيادلة المملكة من الموريسكيين، وسيكون في أيديهم حياة الجميع[3].

فالأطباء الموريسكيون سواء كانوا أطباء أم دجالين (ليس في حوزته شهادة) كان لهم زبائن بين النصارى القدامى.

نجح أحد الموريسكيين، يدعى «خيرونيمو باتشيت»، من غانديا في شفاء الأمير فيليب الثالث، الذي طرد الموريسكيين، ولقد كان «لباتشيت» زبائن من أرقى طبقات المجتمع من بينهم تجار أغنياء ايطاليون، وقد أدى نجاحه الكبير إلى أن تتم دعوته للمجالس البرلمانية وأن يصطدم بزملائه النصارى القدامى[4].

---

1 - قشتيليو، محمد، محنة الموريسكوس في الأندلس، ص 56.

2 - بشتاوي، عادل، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 291.

3 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية، ص 137-136.

4 - المرجع نفسه، ص 139-138.

ويقول بعض المؤرخين الإسبان: «يرجع هذا الإزدهار وهذا التقدم في الصناعة والتجارة والزراعة وغيرها من العلوم إلى الدين الإسلامي، لأن الإسلام يحض على العمل ويجعله ركناً من أركان الدين، وكذلك لأنهم كانوا يريدون أن ينافسوا الشرق في حضارته ورفاهيته»[1].

د ـ الأثــر العمرانــي

ـ قصر الحمـراء

أن العصر الذهبي لدولة بني نصر يبدأ بعهد أبي الحجاج يوسف الأول، فأقام أول نواة لقصر الأساطير بما فيه من برج قمارش والبرج المعروف بقصر منشوكة والحمام الملكي وباب الشريعة وبرج الأسيرة ومصلى الرطل[2]، وتوالت الأحداث في العهد الأخير الذي سبق سقوط غرناطة، بين أفراد الأسرة المالكة، وكانت آخر حلقة في هذا الصراع بين الزغل وابن أخيه أبي عبد الله.

ويشهد قصر الحمراء بغرناطة على هذه الأحداث، وتعتبر حمراء غرناطة مقبرة الحضارة الإسلامية، ففيها وضع رجال الفن من مسلمي الأندلس خلاصة فنهم وعصارة ما وصلت إليه عبقريتهم[3]. ويعتبر قصر الحمراء وقصر البرطل وجنة العريف أكمل مجموعة للقصور الإسلامية، وأقدم آثار الحمراء حصن القصبة الذي ينسب إلى محمد الأول (1248-1272م) وكل ما بقي منه باب النبيذ Puerto del vino الذي ما يزال قائماً في معزل عن بقية الأبنية الأخرى داخل سياج أحدث منه. وكانت قلعة الحمراء في عهد المسلمين تتسع لجيش تعداده أربعون ألف جندي وضابط، ويلجأ إليها الملوك للتحصن وراء سورها في أزمنة

---

1 ـ هورتر وبنثنت، الأندلسيون ماساة وحياة أقلية، ص 61.

2 ـ ريسلر، جاك، الحضارة العربية، ص 274، عنان، محمد عبد الله، الآثار الاندلسية الباقية، ص 186.

3 ـ سالم، عبد العزيز، المغرب الكبير، ص 578.

الشغب والثورات[1]. وينسب إلى يوسف الأول وابنه محمد الخامس بناء القصور السلطانية بالحمراء وهي التي أقيمت حول صحني الريحان والسباع.

ومن أقدم قصور الحمراء قصر البرطل[2]ويعنون به في الأندلس الظلة التي تقوم على بائكة، وتتألف ظلة هذا القصر من خمسة عقود أوسطها أكثرها ارتفاعاً، ويطل هذا البرطل على بركة تزودها نافورة أسفل العقد الأوسط بالمياه. وراء هذا البرطل وفي ركن منه قاعة مربعة تشبه البرج يمكن الارتقاء منها إلى طبقة أعلى عن طريق درج إلى اليسار ويغطي الجدران التي تعلو عقود البائكة شبكات من زخرفة المعنيات، ويحيط بالجدران إزار من الزليج تتعدد فيه الرسوم الهندسية الملونة. وتقوم عقود البائكة على أربع أرجل من الآجر[3]. وإلى يمين البرطل من شرقة وعلى درب السور أو ممشاة مسجد صغير ملحق بالبرطل لصق دار قديمة.

ويتألف قصر الحمراء من ثلاث مجموعات: اثنتان منها ترجعان إلى عصر يوسف الأول، والثالثة ترجع إلى عصر محمد الخامس. وقد ضاعت معالم المجموعة الأولى[4]. وتضم المجموعة الثانية، التي ترجع أيضاً إلى عهد يوسف الأول قصر السلطان ومقر الحكم. ويعتبر هذا القصر أروع ما شيده السلطان يوسف الأول، ويتوسط هذا القصر بهو الريحان، وفي جهته الشمالية برج قمارش الذي يشتمل في داخله على قاعة السفراء. ومن قمريات هذه القاعة يمكن إمتاع البصر بمنظر من أروع مناظر الطبيعة الساحرة، وتنتقل العين من نهر حدرة الذي تندفع مياهه أدنى البرج إلى حي البيازين في المرتفع الآخر المقابل للحمراء[5].

وزخارف هذا القصر يعجز عنها الوصف، وتتألف من زخرفة جصية ملونة

---

1 - واشنطن، ايرفنغ، قصر الحمراء، دار الرائد، ترجمة اسماعيل العربي، بيروت، 1984م، ص 59، كردعلي، محمد، غابر الأندلس وحاضرها، ص 114، مولينا، لويس، الأندلس في التاريخ، ص 141.

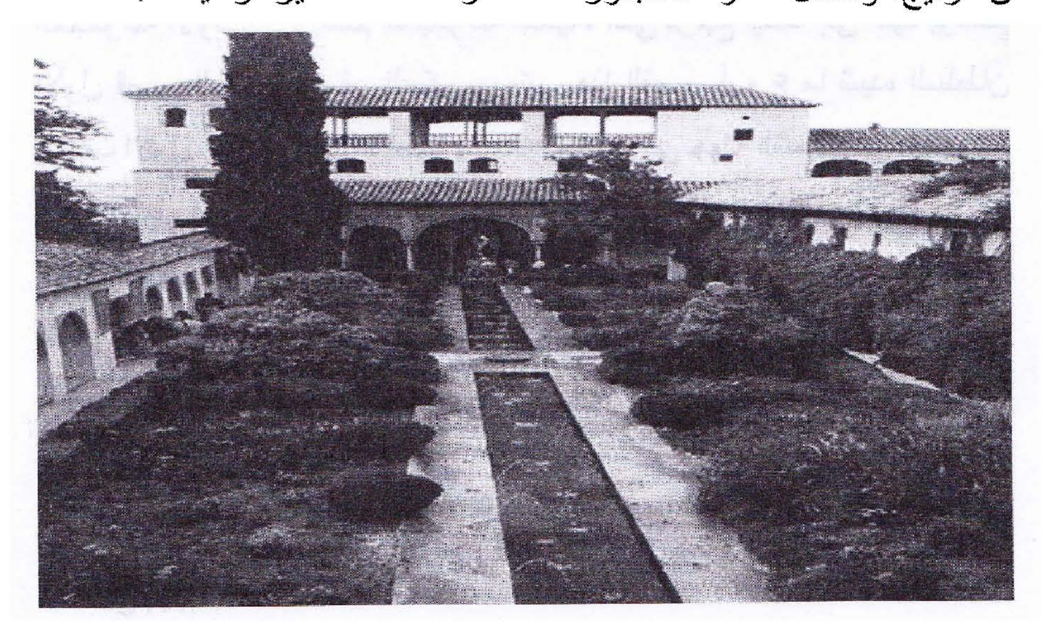
2 - سالم، عبد العزيز، المغرب الكبير، ص 583-582.

3 - العبادي، عبد الحميد، المجمل، ص 174-173.

4 - عنان، نهاية الأندلس، ص 422، وات، مونتغمري، في تاريخ اسبانيا الاسلامية، ص 172.

5 - عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص 196، الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، ص 79.

هندسية وبنائية وكتابية. ويعلوه سقف خشبي تكسوه زخرفة هندسية. ويسبق قاعة السفراء رواق مستطيل يعرف باسم «رواق البركة» Barca ويعزون ذلك إلى قبوته التي تشبه الزورق كما يعزوه آخرون إلى كلمة البركة العربية، ويطل على بهو الريحان بائكة مؤلفة من سبعة عقود أوسطها أكثرها ارتفاعاً. وهو أروع مثال للصحن الأندلسي، إذ تشغل وسطه بركة كبيرة مستطيلة الشكل تحف بها أشجار الريحان، ومن هنا سمّي أيضاً بإسم بهو البركة[1]، ويقابل هذه الواجهة جنوباً واجهة أخرى مماثلة في المحور نفسه، ويتألف هذا الجانب الجنوبي من طبقتين، وإلى شرقي مجلس قمارش بهو الريحان الحمامات السلطانية وهي من أقدم ابنية القصر. وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة من الأبنية، وترجع إلى عهد يوسف الأول الذي سجل اسمه في نقش كتابي. ويسبق الحمامات إلى الشمال قاعة يطلق عليها اسم قاعة الأسرة، وأسقف القاعة الاساسية في قبة الحمامات تخترقها مناور أو أشكال نجمية لإنفاذ الضوء، وتكسو الجزء الأدنى من الجدران تربيعات رائعة من الزليج، وتحمل العقود المتجاورة المنكسرة أعمدة صغيرة رشيقة[2].



حدائق جنة العريف الملحقة بقصور الحمراء

---

1 - حتى، فيليب، العرب تاريخ موجز، ص 211.

2 - كولان، الأندلس، ص 172.

ـ أعمال محمد الخامس:

توج محمد الخامس أعماله المعمارية بتشييده المجموعة الثالثة في قصور الحمراء، وهي مجموعة قصر السباع. والمحور الأساسي لهذا القصر الجديد يتعامد هو ومحور بهو الريحان، ونظامه جديد في تاريخ العمارة الغرناطية في القرن الرابع عشر ، إذ أنه بدلاً من القاعتين اللتين تقعان في الطرفين القصيرين للمستطيل في بهو قصر جنة العريف وبهو الريحان، أحاط بالصحن المركزي المعروف ببهو السباع في واجهاته الأربع. ويتوسط الصحن فوارة تتألف من ثلاثة أجزاء: النافورة، والحوض الأعلى، ثم الأدنى من الفوارة استدار نحتها اثنا عشر أسداً تمج الماء من أفواهها[1]. ويدور بالحوض طراز كتابي في مدح محمد الخامس. وتدور بالصحن أربع بوائك تقوم على عمدها الرفيعة الرشيقة عقود نصف اسطوانية مطولة تعلوها جدران مكسوة بالشبكات الزخرفية. وتُقرأ في جدران هذا القصر نقوش عربية منها: «عز لمولانا السلطان عبد الله الغني بالله»، كما تزخر الجدران بأشعار ابن زمرك في مدح هذا السلطان[2].

وصحن السباع على شكل مستطيل طوله 28,5م وعرضه 17,5 من المتر، على جانبيه الصغيرين جوسقا لبان تحملهما أعمدة رشيقة، ويتقاطع محورا الصحن وقد أخذا شكل قناتين للمياه، بحيث يؤلفان شكلاً صليبياً. يذكر الأستاذ «لامبير» أن الشكل العام لصحن السباع وما يحيط به من بوائك في جهاته الأربع يبدو متأثراً بنظام أبهاء الأديرة المسيحية[3].

أما القاعتان الجانبيتان للصحن شمالاً وجنوباً فهما أروع ما جاد به فن العمارة الإسلامية في الأندلس، فالقاعة الجنوبية وتعرف بقاعة بني سراج، وتعلو القاعة قبة رائعة بالجمال من المقرنصات الدقيقة نجمية الشكل، أما القاعة

1 - الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، ص 84، عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص 199.

2 - حتى، فيليب وآخرون، تاريخ العرب، ص 681، طه، عبد الواحد ذنون، دراسات في حضارة العرب وتاريخهم، ص 256.

3 - Lambert, l'alhambre de grenade revue de l'art IXII, pp. 144-146.

الشمالية المقابلة لها فأسمها قاعة الأختين[1] نسبة إلى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلتين في الشكل كانتا تكسوان الأرضية، وتعلو هذه القاعة بالمثل قبة نجمية من المقرنصات الدقيقة التي تشبه خلايا النحل. وتؤدي هذه القاعة إلى شرفة تطل على حي البيازين وجميع جدران هذه القاعات مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحتشدة تتخللها كتابات كوفية ونسخية وأدعية للسلطان. والأجزاء الدنيا منها مؤزرة بالزليج[2] والفسيفساء[3].

- قصر جنة العريف:

البناء الأساسي في مجموعة أبنية جنة العريف يتألف من صحن شديد الاستطالة تقوم في طرفيه أبنية، وفي وسطه قناة تنحدر فيها المياه، وتنتصب في الجهة الجنوبية مجموعة من العقود المتصلة، ونظام البناء يماثل نظام القصر السلطاني في مجموعه وإن كان يسبقه تاريخياً.

وقد أقام سلاطين غرناطة في هذا القصر وما يجاوره من القصور المرتفعة رغبة في التمتع بالهدوء والاتصال الوثيق بالطبيعة[4].

فإن النظام الرائع بقصر الريحان وقصر السباع والتناسق التام بين أجزائهما المختلفة، تبين أن فناني السلطان محمد الخامس على الأقل أحرزوا درجة عالية في فن العمارة والجمع بين توزيع الفراغ والكتل، كما وفقوا في الجمع بين العمارة والطبيعة[5].

ولا يزال قصر الحمراء في غرناطة، يمثل أبرز معالم العمارة العربية

---

1 - عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص 198.

2 - الزليج: يدخل الزليج من تزيين جدران معظم المساجد والمدارس، وانتقل هذا الفن الأمازيغي من المغرب إلى الأندلس.

3 - طه، دراسات في حضارة الأندلس وتاريخهم، ص 258، عويس، عبد الحليم، التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، ص 28.

4 - حتي، فيليب، العرب تاريخ موجز، ص 177-178.

5 - سالم، عبد العزيز، المغرب الكبير، ص 592.

الإسلامية في الأندلس، وهو ينسب إلى إبن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة[1].

بعد أيام من سقوط غرناطة، تجول الملكان بذهول في القاعات المزخرفة وساحات الحمراء التي لا تصدق، وفي قلعة مكسوار Mexuar، التي وصفها شاعر الأندلس في القرن الرابع عشر، ابن زمرك، فقال: «إنها مأوى المستشارين، والرحمة، والعطف». ونقش على قطعة رخام هناك، «ادخُل واطلب. ولا تخشَ أن تطلب العدل فسوف تجده هنا». فهل تستطيع إيزابيلا أن تنافس حكمة خيرة حكام المسلمين وتواضعهم وأناقتهم، الذين شغلوا هذا المكان قبلها؟[2]

فقد أسرت رومانسية المكان سكانه الجُدُد، وذكر أحد الرواة عظمة المشهد فقال: «لقد جهد الكهنة في طرد روح المسلمين من المكان. فأُقيم مذبح في قاعة العدل، وأقام كاردينال إسبانيا فيه قداساً كئيباً للغزاة الطائشين. وأقيمت على برج الساعة أجراس لتقرع احتفالاً بنصر النصرانية على الإسلام. وكان ذلك الصوت في أذان النصارى القادمين الجدد أعذب الأصوات

أريد أن أعيش في غرناطة

ولو لأسمع فقط

أصوات قرع الأجراس

عندما أذهب إلى النوم[3]

أما الاحتفال فأقيم في قاعة القضاء التي تمتد ظلال أقواسها عبر القسم الأعلى والنهائي من القاعة، حضرته ايزابيلا وفرديناند وحاشيتهما وأُجري قداس عقب انتصارهما على غرناطة. والصليب الذي استعمل في الاحتفال لا يزال موجوداً حتى الآن في المكان الذي أقيم فيه المذبح للقداس الذي أجراه الكاردينال مندوسا[4].

ويروى عن شارل الخامس عند وقوفه على إحدى شرفات قاعة السفراء صاح

---

1 - شبارو، عصام، الأندلس، ص 305.

2 - رستُن، جيمس، محاكم التحقيق في اسبانية، ص 21.

3 - المرجع نفسه، ص 22.

4 - ايرفنغ، واشنطن، قصر الحمراء، ص 137.

الامبراطور، بينما كان يمتع نظره بمباهج هذه المناظر قائلاً: «لقد كان حظه عاثراً ذلك الرجل الذي فقد كل هذا».![1]

ـ الدور أو البيوت

ـ البيت الموريسكي

إن المظهر الخارجي للبيوت الموريسكية كان فقيراً جداً في مبان بدائية من الخشب والطين، تخفي تحت مظهرها السيّىء ثروات حقيقية، فأحد سكان مرسية ويدعى «كاسكاليس» وهو يعرفهم جيداً يقول: «يبنون بيوتهم بمظاهر خارجية فقيرة، ذات باب منخفض لا يسمح بمرور قزم دون أن ينحني، وعندما يدخل يرفع رأسه فيكتشف صالتين مصنوعتين بمئات الأعاجيب، فالسقف مزين بأعمال فنية مذهبة، والجدران مزينة بالعديد من المناظر الطبيعية فهنا لوحة فيها فاكهة، وهناك أخرى فيها حيوانات، وثالثة ذات مناظر من البلاد الراقية، ورابعة جبل، وكل هذا مصنوع بفن راق وبأشكال معمارية تدهش بصر من يراها»[2].

وفي غرف النوم كانت الأسرة الخشبية أو الحديدية قليلة الارتفاع، ولكن شكلها تغير في القرن الخامس عشر إذ أصبحت شبيهة بما عند الاسبان. ولم يكن في غرف النوم خزانات بالمفهوم الحديث للكلمة. فالثياب كانت ترتب داخل صندوق من خشب الصنوبر أو في كوة بجدار الغرفة[3].

وفي جدران غرفة الأختين وجدت مجموعة كوى بقصر الحمراء وفي بعض ممرات قصر جنة العريف، أعدت لوضع أباريق المياه الباردة والشراب المنعش لزوار القصر.

أما بيوت الطبقة المتوسطة والغنية كان فيها مستودع لخزن جرار الزيت والطحين والخل والحبوب وغير ذلك مما يتعلق بمؤونة العائلة. وفي الأسر

---

1 - ايرفنغ، قصر الحمراء، ص 86.

2 - هورتز وبنثنت، الموريسكيون- حياة ومأساة أقلية، ص 140.

3 - Marcais, G, L'architecture Masalmane d'occident, Paris, 1954, pp 351-352.

المتواضعة كان المغزل وآلات الحياكة من الأشياء المألوفة داخل كل بيت.

وكان الأندلسيون يستعملون الشموع لإنارة منازلهم، كما اقتنوا القناديل النحاسية والفخارية التي تضاء بواسطة الزيت. وكانوا في الشتاء يشعلون الفحم في كوانين من حديد أو نحاس أو طين، واستعمل بعض الأغنياء كوانين حجرية ورخامية[1].

فالمطبخ الغرناطي كان غنياً ومتنوعاً إذ التقت فيه أطباق متنوعة عربية وبربرية وأوروبية. وكان الطعام بسيطاً عند الفقراء ومركباً عند الأغنياء. ووجود الأكل المحلّى والفواكه المتنوعة كان أمراً طبيعياً، كما كانوا يجففون الفاكهة لتقدم في غير أوانها.

المنزل العربي الأندلسي كانت له خصائصه المميزة، فشوارع المدن ضيقة والمنازل صغيرة الحجم. ويبدو الحائط الخارجي للبيت خالياً من النوافذ المطلة على الشوارع، وبعض البيوت يتخلل حيطانها نوافذ صغيرة عالية ومشبكة بحصيرة خشبية تسمح للمرأة أن تنظر إلى الخارج فترى ولا تُرى. أما في بيوت الطبقة المتوسطة والفقيرة فيفتح الباب المكون من مصراعين ومطرقة على رواق يؤدي إلى بهو أو فناء في وسطه بئر أو بركة ونافورة، والفناء، كما في القصور، يكون مربع الشكل ويساعد على تأمين النور والهواء لسائر الأقسام الموزعة حوله، كما أن الفسحة التي تخرج إليها النسوة في أوقات الفراغ لتنشق الهواء النقي وللنزهة بعيداً عن الأنظار، تحاط بأروقة ذات أعمدة رخامية أو قرميدية تصطف وراءها الغرف، وبين هذه الغرف واحدة لاستقبال الضيوف. وفي إحدى زوايا الفناء سلّم يؤدي إلى قسم علوي فيه غرفة أو أكثر وهو مخصص للنساء[2].

ثم إن المنازل بوجه عام تبدو من الخارج بسيطة متشابهة ويغلب على جدرانها اللون الأبيض، ولكنها بالمقابل غنية من الداخل إذ يظهر السخاء في زخرفة السقوف. واهتمام الأندلسيين بتزيين البيوت يعبر عن ميلهم إلى الزخرفة

1 - فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص 107.

2 - المرجع نفسه، ص 105

الدقيقة، فمنذ القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) بدأوا يرصفون البيوت بالخزف. والمربعات الخزفية حلت في عهد بني الأحمر مكان الرخام في زخرفة البيوت، فزينت الأحواض وعتبات الأبواب بأشكال نجمية رائعة الجمال[1].

والمنازل العربية في الأندلس، كما في سائر العالم الإسلامي، كانت تعتمد البساطة في الأثاث، فالغنى الذي نجده في البناء من الداخل لا نقع عليه في الأثاث الذي قلما تغير من منزل إلى آخر. ففي بيوت الأغنياء كانت جدران غرف الاستقبال والنوم تزين بستائر حريرية، والأرض تغطي بالسجاد الفاخر الذي غلبت عليه الألوان الزاهية، أما عند الفقراء فكانت الجدران عارية والأرض مفروشة بالبسط والحصر. وكانت غرف الاستقبال تحتوي على ديوان طويل ملتصق بالحائط وقليل الارتفاع، وفوقه المساند والطنافس، ولم تكن هناك غرف للطعام، فالمائدة كانت طاولة مستديرة صغيرة يوضع فوقها الطعام وتحمل إلى الديوان[2].

- الحمامات

في إحدى قاعات قصر الحمراء التي يسودها أسلوب معماري في غاية الأناقة، تقف نافورة من المرمر لا تزال المياه تتدفق منها عالياً وتنتشر الرطوبة المنعشة، كانت توضع الأرائك التي يستلقي عليها المستحمون بعد خروجهم من الحمام، ويستريحون وهم يتنعمون بالنسيم المعطر وبنغمات الموسيقى.

وراء هذه القاعة توجد غرف داخلية معدة لخلوة السيدات، وفي هذه الغرف ينتشر ضوء خفيف لطيف الألوان ينفذ إليها من فتحات في السقف مغطاة بألواح من الزجاج الملون لا تزال تحتفظ بصفائها ورونقها كما كانت منذ قرون[3].

والكثرة في عدد الحمامات تستدعي الاهتمام فقد تحدث الحميري في كتابه

---

1 - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 202.

2 - عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص 174.

3 - ايرفنغ، واشنطن، قصر الحمراء، ص 204، الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، ص 93.

«الروض المعطار في خبر الأقطار» عن الجلالقة فقال: «وبلد الجيليقيين سهل وأهلها أهل غدر ودناءة أخلاق لا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم». وما حديث الملكة ايزابيلا التي آلت على نفسها ألاّ تغتسل حتى تسترد الأندلس[1] وكانت تفاخر بأنها لم تغتسل سوى مرتين في حياتها، يوم ولادتها ويوم زواجها عام 1459م. ولم يكن في أوروبا حمام واحد[2]. وقد كانت الحمامات مثار انتقام الاسبان حينما استولوا على الأندلس فهدموها تعصباً لأنهم كانوا يرون في النظافة فرضاً من شعائر الإسلام[3].

- التقاليد العربية في الحياة الاسبانية

استمرت عادة الحمامات حتى بعد سقوط غرناطة، ووضعت البلديات القوانين التي تنظم الحمامات العامة.

إن القوانين البلدية المحلية «لزوريتا» و«كوينكا»، وهما قريتان قشتاليتان تزودنا بالمعلومات الآتية: على صاحب الحمام أن يزود الزبائن بالمواد التي يحتاجونها كالماء والضروريات الأخرى ويعاقب كل شخص يسرق أي شيء من أحواض الحمام بقطع أذنه. ويبدو أن العقوبة المفروضة على السرقة ترجع إلى عادة عربية قديمة، وكان المستحمون يزودون عادة بالماء الحار، والصابون، والزيت والمناشف لقاء مبالغ معينة من المال. ومن أجل الحفاظ على العزلة بين الجنسين، كانت الحمامات العامة تحجز للنساء أياماً معينة في الأسبوع، وعلى سبيل المثال فقرية Usagra في منطقة بطليوس كان لها حمامها الخاص الذي تقصده النساء للاستحمام أيام الآحاد والثلاثاء والخميس، والرجال في الأيام الباقية[4].

1 - الدغلي، الحياة الاجتماعية في الأندلس، ص 55..
2 - حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس، ص 408.
3 - الدغلي، المرجع السابق، ص 55.
4 - طه، عبد الواحد ذنون، دراسات اندلسية، ص 222-221.

- **فضل الحضارة العربية على الغرب**

لقد استوعبت أُمتنا الحضارات السالفة وهضمتها، لتبدع وتقدم حضارة إسلامية رفدت مسيرة نمو الحضارة الإنسانية بما هو رائع ونافع على أتمِّ وجه، وابهى صورة.

واعترف المنصفون بفضل الحضارة الإسلامية على النهضة الأوروبية، ففي المحاضرة التي ألقاها الأمير تشارلز وليّ عهد بريطانية في مركز أُكسفورد للدراسات الإسلامية في 23 من تشرين الأول 1993م تحت عنوان «الإسلام والغرب»، جاء فيها حرفيا: «إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم في الغرب لطبيعة الإسلام، فإن هناك أيضاً قدراً مساوياً من الجهل بالفضل الذي تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي... فإسبانية في عهد المسلمين لم تقم فقط بجمع وحفظ المحتوى الفكري للحضارة اليونانية والرومانية، بل فسرت تلك الحضارة وتوسعت بها...

كما أن كثيراً من المزايا التي تفخر بها أوروبا العصرية، جاءت أصلاً من إسبانية في أثناء الحكم الإسلامي[1]، فالدبلوماسية، وحرية التجارة، والحدود المفتوحة، وأساليب البحث الأكاديمي، وعلم الإنسان، وآداب السلوك، والطب البديل والمستشفيات جاءت كلها من تلك المدنية العظيمة[2].

1 - أبو خليل، شوقي، علماء الأندلس، ص 76-77.

2 - المرجع نفسه، ص 78.



الخاتمـة

إن ضياع الأندلس كان شاملاً وكأن العرب لم يعمروا شبه الجزيرة الايبيرية ولا فتحوا أجزاء شاسعة من فرنسا، ولا كانوا أعظم شعوب الأرض ذات يوم. فما حدث للأندلسيين يمكن أن يتكرر ثانية ليس في مكان ما من أطراف الوطن العربي وإنما في وسطه ومركزه.

بعد تسعة قرون من الانجازات الهائلة والهزائم انضم الأندلسيون إلى شعوب بائدة اخرى مثل الأزتك والأنكا، وخذلهم المماليك والعثمانيون والفرنسيون عندما خذلوا أنفسهم بادىء ذي بدء.

أما سيرة الأندلسيين الموريسكيين فهي سوداء قاتمة منذ استسلام غرناطة حتى القرن الثامن عشر. ولكنها ليست قصة استكانة وضعف بل قصة مقاومة استمرت عشرات السنين وتصدت لأعتى قوى الأرض في القرن التاسع عشر، وبطش بهم أهل قشتالة فاستعبدوهم وأذلوهم وأحرقوهم، وحين أخفق القشتاليون في قهرهم تماماً لجأوا إلى نفيهم فكان في ذلك سقوط الامبراطورية الاسبانية.

ويقول الكاتب الاسباني الكبير «بلاسكو إيبانييث» في كتابه «في ظل الكاتدرائية»، في اسبانيا لم تأت النهضة من الشمال مع الجحافل الهمجية. وإنما أتت من الجنوب مع الفاتحين العرب. لقد كانت حملة حضارية أكثر مما كانت غزواً، ومن هنا أتت إلينا هذه الثقافة الشابة القوية. سريعة التقدم بطريقة مذهلة، والتي ما تكاد تولد حتى تتفوق.....

وهكذا لم يسحق شعب قط ويمح محواً تاماً في التاريخ، كما سُحِقَ العرب في اسبانيا. فإن الذين أبقت عليهم القوة الغاشمة اندمجوا في شعوب المغرب ولم

يعد لهم وجود كامة، وعلى الرغم من أنهم كانوا مدة ثمانية قرون أمة متميزة عن سائر الأمم، فإن الوطن الذي كان وطنهم والأرض التي زاولوا فيها حرفهم، رفضت الاعتراف بهم إلاّ بوصفهم غزاة متعصبين، فلم تبق سوى آثار من الحجر لتشهد بمجدهم وسلطانهم.

فحينما شرع المسلمون في فتح الأندلس عام (92هـ/711م) كانوا يدركون دورهم ومغزى رسالتهم العالمية، التي تؤكد على حقوق البشر كافة، ولا تميز في هذه الحقوق إلاّ بمقدار ما يسمح به الشرع. ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [1]. هذه هي القاعدة التي وضعها حملة راية الاسلام نصب أعينهم وطبقوها بالتزام رائع ليكون نموذجاً لحرية الاعتقاد عند بني البشر. إذ اجتذب التسامح وحسن المعاملة، وسهولة فهم الدين، الملايين من أبناء تلك الأمم إلى الدين الإسلامي.

فالمسلمون حققوا أول نصر لهم في اسبانيا، وبدأوا بتطبيق قواعدهم العامة، فوجد الاسبان من المسلمين عدلاً ووفاء بالعهد، وحرمة تامة للمجتمع القائم وأعرافه، وعدم تدخل في شؤونه الدينية، فدخلت أفواج من الاسبان في الدين، وخصوصاً الطبقات الفقيرة والفلاحين الذين حررهم الإسلام من العبودية، ورفع شأنهم، وساواهم بمن كانوا في جيش الفتح من المسلمين السابقين، وهي أمور لم يكونوا يطمعون فيها، أو يحلمون بمثلها، إذ كانت غريبة عن روح العصر، وعن تقاليد المجتمع الغربي في ذلك الحين. أما الذين أرادوا الإقامة على دينهم فقد ترك لهم العرب الحرية التامة في ممارسة دينهم، وجعلوا لهم نوعاً من الاستقلال الإداري والقضائي مارسوه بإشراف كنيستهم وأعيانهم.

لقد وضع المسلمون قواعد في معاملة الأمم المغلوبة التي قبلت العيش في ظل الحكم الإسلامي.

---

1 - سورة البقرة، الآية 256.

حينما أراد المسلمون أن يتخذوا مسجداً في أول عاصمة لهم بالأندلس، اشبيلية، لم يحولوا أحد كنائسها إلى مسجد، بل اختار الوالي عبد العزيز بن موسى جزءاً قريباً من باب كنيسة رفينة Santa Raffina، ابتنى عليه مسجداً، وذلك لقربه من القصر الذي يسكن فيه. وظلت كنائس المدينة الأخرى دون أن يتعرض لها المسلمون.

أما الذين ظلوا على ديانتهم النصرانية، فكانوا يسمون بعجم الذمة، أو أهل الذمة، وقد تعلموا العربية واستخدموها إلى جانب لغتهم الأعجمية، فقد سمح المسلمون للنصارى باختيار رئيس منهم يدعى القومس Comes أو زعيم نصارى الذمة. وكانت هناك مناصب أخرى تولاها أهل الذمة، مثل: قاضي العجم، وصاحب المدينة، ومستخرج خراج أهل الذمة، والأمين الذي كان على رأس كل نقابة من نقابات العمال المختلفة. وأبقى المسلمون على كل المؤسسات النصرانية دون أن يمسوها بأذى، كالأديرة، والمصليات العامة والخاصة. كما احتفظ رجال الدين بملابسهم وأزيائهم، وظلت الكنائس تؤدي وظائفها الاجتماعية إلى جانب وظائفها الدينية، فتعقد فيها مراسم الزواج، ويعمد المواليد، وتسجل فيها المبايعات والعقود.

لم يقابلوا هذه السماحة بمثلها، وإنما اتبعوا مع المسلمين سياسة لئيمة جائرة، تنم عن الجهل والتعصب الذميم الأعمى. وأشد ما يدهش في هذا الموضوع هو أن يرى الإنسان رجال الدين في الفاتيكان والكنيسة، يحرضون الحكام الاسبان والشعب على إبادة المسلمين، ويغرونهم بأذاهم ونهب أموالهم، وإزعاجهم، ويحلّون لهم نقض العهود والمواثيق، التي قطعها الحكام للمسلمين، حين احتلوا أرضهم. وإذ كنا نعتقد أن الأديان جميعها – وخصوصاً السماوية منها – إنما جاءت لخير البشرية، وتحقيق الأخاء والمحبة والسلام بين البشر جميعاً، وأن الأديان تأمر بالخير والمعروف، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وترفض الغدر والمكر والخديعة، وأن رجال الدين من كل ملة مفروض فيهم، أكثر من غيرهم، التمسك بتعاليم دينهم، والسهر على عدم خرقها، والإساءة إليها، ليكونوا هم القدوة

الصالحة للآخرين، لذلك فإننا لا نجد تعليلاً مقبولاً يمكن تقديمه لتبرير مسلك أولئك الحاضين على إيذاء المسلمين، والنقض لعهودهم، والغدر بهم، إلا أن تعاليم الدين المسيحي، وروحه السمحة لم تكن مفهومة فهماً صحيحاً وواضحاً بالنسبة لهم، أو أن تعاليم الدين لم تصقل نفوسهم صقلاً كافياً، ولم تتشرب نفوسهم ما في الدين من خير ومحبة وإنسانية. وإذا كنا اليوم نشيد بالمواقف المشرفة، التي تدل على النبل والشهامة والوفاء بالعهد، التي وقفها ملوك ورجال سياسة في الأزمنة البعيدة، كموقف امبراطور القسطنطينية «باسيل»، حينما استنجد به أمير حلب الحمداني.

إن قصة الامبراطور باسيل هذه، تبدأ يوم استنجد به أبو الفضائل سعيد الدولة الحمداني عام 384هـ/994م، ليدفع عنه القائد الفاطمي بنجوتكين، فأسرع الأمبراطور بجيشه، ولما وصل ارتحل «بنجوتكين»، فخرج أبو الفضائل الحمداني للقاء الامبراطور وشكره، ومعه كثير من الهدايا، فقال قسطنطين لأخيه الامبراطور باسيل (خذ حلب والشام ما يمتنع عليك). فقال الامبراطور: «ما يسمع الملوك أني خرجت أعين قوماً فغدرت بهم»، فقال له بعض أصحابه «ليست حلب غالية بغدره» فرد عليهم: «بلى ولو أنها الدنيا». فأين هذا الموقف الشهم النبيل، من موقف أولئك الرجال الناذرين أنفسهم للدين، الذين يضغطون على الملوك والحكام الاسبان ليخرجوا العرب من أرضهم وديارهم، وهم الذين وثقوا بدين الحكام وذمتهم، واطمأنوا إلى عهودهم ومواثيقهم، فوضعوا السلاح، ولم يبق بيدهم وسيلة يدافعون بها عن أنفسهم. فإن الفاتيكان ورجال الدين الاسبان، ما زالوا مصرين على إلحاحهم حتى نجحوا في حمل الملوك على اضطهاد العرب، ووضع خطة كاملة للقضاء على كل ما هو عربي ومسلم في شبه الجزيرة، وقد وضعوا تحت تصرف الحكام الاسبان – في سبيل إنفاذ هذه السياسة وانجاحها- آلة جهنمية تعتبر من أفظع ما عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل، ألا وهي دواوين التحقيق (أو محاكم التفتيش)، وقد طبق زبانية هذه الدواوين بحق المخالفين للكنيسة الكاثوليكية بصورة عامة، وبحق المسلمين العرب بصورة خاصة، أساليب من التعذيب تقشعر لهولها الأبدان. وقد نجحت الكنيسة في إجبار كثير من المسلمين

على تلقي العماد، معتبرة إياهم من النصارى. ولكنها مع ذلك لم تتركهم وشأنهم، وإنما أخذت تنقب عن خفايا نفوسهم، وتطارد من تشك في صدق إيمانهم. وثار المسلمون الأندلسيون المرة تلو المرة، لدفع الضيم عنهم، وللتعبير عن سخطهم واستيائهم من خرق العهود المقطوعة لهم، ودامت إحدى ثوراتهم ثلاث سنين. ولكن خصمهم كان أقوى منهم فقهرهم واتخذ من ثورتهم حجة عليهم للتنكيل بهم، وأصبح السعيد من أولئك المساكين من تطرده السلطات الحاكمة، من شبه الجزيرة.

رغم محاولة بعض الكتاب الإسبان تبرير التصرف الذي استهدف العرب، تارة بضرورة البحث عن وحدة القومية والدين في اسبانيا، وتارة بالقول إن العرب الأندلسيين كانوا يتآمرون مع الفرنسيين والأتراك والجزائريين...الخ، على الحكومة الاسبانية. ولكن جميع هذه الأقوال لا تجد خارج اسبانيا من يقتنع بها، أو يعتقد بصحتها. حتى قال أحدهم: «لما مات الإسلام في الأندلس كان موته تسميماً لإسبانيا».

ولم يلبث فرديناند وإيزابيلا أن تجرعا هذا السم، بعد أن سيطرت عليهما النزعات الكنسية وميولها، حتى بلغت بهما أعلى درجات التعصب والسخف، واقتفى اثرهما من تبعهما من الملوك، وبذلك قضوا على زهرة الفكر الذي خلّفه الإسلام لإسبانيا.

تحدث الكونت «هنري دي كاسترى»، عن الحكم الإسلامي في الأندلس، فأبان تسامح المسلمين العظيم مع الاسبان، وكيف حاسنوهم حتى صاروا في ظلهم أهنأ عيشاً مما كانوا عليه أيام خضوعهم لحكامهم القدماء من «الجرمان». ويقول «دوزي»: إن الدولة الاسلامية ابقت السكان المسيحيين على دينهم وشرعهم وقضائهم، وقلدوهم بعض الوظائف.

كان من المفترض مقابلة الإحسان بالإحسان وتطبيق سياسة رحيمة بعد حصول تزاوج فيما بينهم واندماج ظاهر. حتى اليهود فروا إلى الأندلس عندما وجدوا في رحابها الأمان والسعة. لكن الملك «كارلوس» لما دخل سراقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين. ونحن نعلم أن النصارى ما

دخلوا بلداً في إبان الحروب الصليبية إلاّ أعملوا السيف في يهودها ومسلميها على السواء. وإذا كان الجنس اليهودي قد بقي في العالم إلى الآن فإن مرد ذلك إلى قيام الدولة الإسلامية في العصور الوسطى. ولو بقي النصارى يملكون السيطرة على العالم لقضوا على اليهود قضاءً مبرماً.

لهذا فقد وقف اليهود موقفاً إيجابياً مع الفتح العربي الإسلامي للأندلس واشتركوا مع المسلمين في حماية المدن التي سيطروا عليها بعد الفتح. ولقي اليهود بعد ذلك معاملة جيدة جداً وتسامحاً كبيراً من قبل المسلمين، في مختلف العصور حتى سقوط الخلافة الأموية في الأندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.

فقد كانت لهم قوانينهم الخاصة بهم، وقضاتهم الذين يفصلون في مشاكلهم، ولم يتدخل المسلمون في شؤونهم، وأماكن صلواتهم. ويبدو أنهم عاشوا في الأماكن المحصنة، بعد الفتح الإسلامي حينما ساعدوا الحاميات الإسلامية في حراسة المدن التي افتتحت. فكان من الطبيعي أن يتجمعوا في جزء معين من كل مدينة، حيث أصبح هذا المكان يعرف بحارة اليهود، وهو ما عُرف فيما بعد في اسبانيا النصرانية بإسم الخودرية.

ولكنهم واجهوا المصير ذاته الطرد مثل الموريسكيين، فاستقبلتهم الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني، وجعلتهم مواطنين في السلطنة إلاّ أن الجميل رد في عهد السلطان عبد الحميد بخلعه عن العرش، لأنه رفض أن يعطي اليهود وطناً قومياً في فلسطين لقاء خمسين مليون ليرة ذهبية ووعود بمساعدات أخرى.

استطاع الشعب الأندلسي، على الرغم من حياته المضطربة والحافلة بالصراع، أن يكتب صفحة من أكثر صفحات الحضارة الإنسانية مجداً فاستثمر موارد البلاد، وطوّر الزراعة والصناعة، ونشط الحياة التجارية، فانعكس ذلك على العمران الذي انتشر في كافة أرجاء البلاد، فظهرت المدن والقرى التي تحمل اسماء عربية، وهي تشهد على مدى تقدم المسلمين، تماماً كما تشهد لهم

تلك الآثار الرائعة التي خلفوها في العديد من المدن، في مختلف ميادين النشاط الإنساني، وقد عمل الاستشراق الأوروبي خلال أعوام طويلة، بدافع العصبيات الدينية والقومية، على إنكار فضل الثقافة الإسلامية، وتجاهل دور الأندلس التي كان لها الفضل الكبير في نقلها إلى أوروبا. «على أن النظرة التحاملية هذه تغيرت منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حينما وجد عدد من العلماء المنصفين ممن تحرروا من تلك العصبيات القديمة. وانعكس ذلك على مسيرة البحث العلمي في اسبانيا أيضاً، إذ عاد كثير من علمائها في أواخر القرن المذكور وأوائل القرن العشرين إلى الاهتمام بالثقافة الأندلسية، يبثونها بتجرد ونزاهة، ثم بشعور الإعتذار والتقدير بوصفها جزءاً من تاريخ اسبانيا العام.

في حديث لرسول الله r أنه قال لمن حوله: «توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها». فقال قائل: أمن قلة يومئذ يا رسول الله؟ فقال الرسول r: «لا، بل أنتم يومئذ كثر، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن». قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت». (صدق رسول الله)

وما أسهل ما يجد الإنسان صدق هذا الحديث الكريم، وفيما آل إليه حال المسلمين في الأندلس بالأمس، وفيما آل إليه حال المسلمين، عربهم وعجمهم اليوم، وما أشبه الليلة بالبارحة.

وظاهرة الوهن هذه نراها اليوم تسيطر على المسلمين عامة، وعلى العرب خاصة فتمزقهم، وتبدد قواهم، وتفرق جمعهم، وتدفعهم إلى الاقتتال فيما بينهم وتهددهم بالفناء والزوال. وهم جامدون مستسلمون لما يجري، وكأنه قدر محتوم لا يملكون له صرفاً ولا دفعاً.

ما أشبه اليوم بالأمس فالتاريخ يعيد نفسه في فلسطين، والمأساة تتوالى فصولها، وكأننا نشاهد ذات المصير المشؤوم. وإحساسنا بالخوف يتزايد مع الصراعات التي يشهدها العالم العربي، فالدسائس والمكائد التي تحاك تضع الأمة أمام مصير مشؤوم يصعب معه تصوّر النتيجة.



أولاً: المصادر العربية

القرآن الكريم

1 - ابن الآبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن القضاعي البلنسي، (ت: 658-595هـ) المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدقي، تحقيق ابراهيم الإبياري، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967م.

2 - ....، التكملة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، لبنان، 1960م، ط2.

3 - ....، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية، القاهرة، 1963م، ط1.

4 - الادريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى الحمودي، (1100-1165م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق دوزي ودي خويه، ليدن، 1894م.

5 - **ابن أبي اصبيعة** ، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين أبو العباس ابن أبي أصبيعة (596-668هـ/1200-1270م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، 1965م.

6 - **ابن بطوطة**، محمد بن عبد الله محمد الطنجي (703-779هـ/-1304 1377م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر للطباعة والنشر، 2005م، ط1.

7 - **ابن حزم**، علي بن حزم (384-456هـ/994-1064م)، الفصل في الملل

والأهواء والنحل، المطبعة الادبية، القاهرة، 1903م.
8 - **ابن حيان**، أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي (721-815م)،المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق ب. شالميتا واخرون، مدريد، 1979م.
9 - ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة (820-912م)، المسالك والممالك، ليدن، 1889م.
10 - ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب (713-779هـ/1313-1374م)، الإحاطة في اخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973م، ط2.
11 - ....، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والاديار، تحقيق محمد شبانة، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2010م.
12 - ....، اللمحة البدرية، منشورات دار الآفاق، بيروت، 1978م.
13 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (1332-1382م)، العبر في ديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال للطباعة، بيروت، 1979م.
14 - ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد ابن أبي دينار توفي 1698م، كتاب المؤنس في اخبار افريقيا وتونس، تحقيق محمد همام، المكتبة العتيقة، تونس، 1977م.
15 - ابن عذارى، أحمد بن محمد (ت: 695هـ/1295م)،كتاب البيان المغرب، نشره المستشرق اديشي ميرندا، دار الثقافة، بيروت، 1961م.
16 - ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي (ت: 6هـ)، فرحة الأنفس، نشر وتحقيق لطفي عبد البديع، القاهرة، 1956م.
17 - ابن القوطية، محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم (ت:367هـ/977م)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله الطباع، بيروت، 1957م.

18 ـ ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكة زين الدين الزرعي (ت:751هـ)، احكام أهل الذمة، مطبعة جامعة دمشق، تحقيق د. صبحي الصالح، 1961م.
19 ـ البكري، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، (487-404هـ/-1014-1094م)، المغرب في وصف افريقيا والمغرب، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1968م.
20 ـ الحجري، أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم توفي بعد 1614م، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، 1987م.
21 ـ ....، العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، 1987م.
22 ـ الحميدي، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله (488-420هـ)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1975م.
23 ـ الحميري، اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري (173-105هـ/789-723م)، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، 1983م.
24 ـ ....، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، القاهرة، 1980م ط2.
25 ـ ....، الذيل والتكملة، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973م.
26 ـ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار العرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963م.
27 ـ المقري، أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، دار الكتب

العلمية، بيروت، ط1، 1995.
28 ـ الناصري، أحمد بن خالد الناصري (1835-1897م)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م.
29 ـ النباهي، محمد بن الحسن بن يحيى بن عبد الله بن الحسن الجذامي النباهي ،تاريخ قضاة الأندلس، المرقبة العليا، تحقيق لجنة احياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983م، ط5.
30 ـ الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، توفي 599هـ/1203م، بغية الملتمس، تحقيق ابراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، دون تاريخ.
31 ـ مؤلف مجهول، نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر، تحقيق الفريد البستاني، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، 2002م، ط1.

ثانياً: المراجع العربية

1 ـ أبو خليل، شوقي، علماء الأندلس وإبداعاتهم المتميزة واثرها في النهضة الأوروبية، دار الفكر، دمشق، 2004م، ط1.
2 ـ ....، الحضارة العربية الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1987م، ط1.
3 ـ أحمد عبد الرزاق أحمد، الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى، دار الفكر العربي، 1991م، ط1.
4 ـ أرسلان شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، دار الحياة، بيروت، 1983م.
5 ـ الأسد، ناصر الدين، التراث الحضاري المشترك بين اسبانيا والمغرب، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، 1993م، ط1.
6 ـ أمين، أحمد، ظهر الاسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1966م، ط4.

7 ـ الأهواني، عبد العزيز، الزجل في الأندلس، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2002م، ط2.

8 ـ بدوي، عبد الرحمن، الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987م، ط1.

9 ـ بشتاوي، عادل، الأندلسيون المواركة، مطابع انترناشيونال برس، القاهرة، 1983م، ط1.

10 ـ ....، الأمة الأندلسية الشهيدة، مطابع انترناشيونال برس، القاهرة، 1985م، ط1.

11 ـ التواتي، عبد الكريم، مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، مكتبة الرشاد، الدار البيضاء، 1967م.

12 ـ ثقفان، عبد الله، الأدب الموريسكي، دار كتاب العربية، 2011م، ط1.

13 ـ الجيوسي، سلمى الخضراء، الحضارة العربية في الأندلس، دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998م، ط1.

14 ـ الحايك، سيمون، نقل الحضارة العربية إلى المغرب، مكتبة الاسكندرية، مصر، 1987م.

15 ـ حتاملة، محمد عبده، محنة مسلمي الأندلس، نشر الجامعة الاردنية، عمان، 1977م، ط1.

16 ـ ....، التنصير القسري لمسلمي الأندلس، نشر الجامعة الاردنية، 1980م، ط1.

17 ـ ....، التهجير القسري، نشر الجامعة الاردنية، الاردن، عمان، 1982م، ط1.

18 ـ ....، الأندلس، التاريخ والحضارة والمحنة، مطابع الدستور التجارية، الاردن، عمان، 2000م، ط1.

19 ـ حتي، فيليب، تاريخ العرب، تعريب ادوارد جرجي، جبرايل جبور، تاريخ العرب، دار الكشاف للنشر، بيروت، 2009م، ط13.

20 - ....، العرب تاريخ موجز، دار العلم للملايين، بيروت، 1991م، ط4.
21 - الحجي، عبد الرحمن، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار العلم، بيروت، 1976م.
22 - حلاق، حسان، دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، 1999م، ط2.
23 - ....، موسوعة العائلات البيروتية، دار النهضة العربية، بيروت، 2010م، ط1.
24 - حموده، علي محمد، تاريخ الأندلس السياسي العمراني والاجتماعي، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1957م، ط1.
25 - حومد، أسعد، محنة مسلمي الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1988م، ط2.
26 - الدرة، عبد القادر، العلماء الشهداء، رسالة ماجستير، الجامعة الاسلامية، غزة، قسم التاريخ، 2009م.
27 - دويدار، حسين يوسف، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، مطبعة الحسين الاسلامية، القاهرة، 1994م، ط1.
28 - الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، دار المعرفة، دمشق، 1988م، ط1.
29 - رائف، أحمد، وتذكروا من الأندلس الإبادة، ديوان المطبوعات، الجزائر، بدون تاريخ.
30 - راشد، رشدي، علم الهندسة والمناظر في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001م، ط2.
31 - رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998م، ط3.
32 - سالم، السيد عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1971م.

33 - ....، المغرب الكبير، العصر الاسلامي، القاهرة، 1966م.
34 ـ السامرائي، خليل، علاقات المرابطين مع امارات المغرب الأقصى، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، 1979م.
35 ـ سعيدان، أحمد سليم، تاريخ الفكر العلمي في الاسلام، سلسلة عالم المعرفة، العدد 131، 1988م.
36 ـ السويدان، طارق، الأندلس التاريخ المصور، شركة الابداع الفكري، الكويت، ط1، 2005م.
37 ـ شاكر، مصطفى، الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة، دار الاشبيلية، سوريا، 1990م، ط1.
38 ـ شبارو، عصام، الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، دار النهضة العربية، بيروت، 2002م، ط1.
39 ـ الشطشاط، علي حسن، نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء، القاهرة، 2001م.
40 ـ الصالح، صبحي، الاسلام ومستقبل الحضارة، دار الشورى، بيروت، 1982م.
41 ـ الصياد، محمد، اثر العرب والاسلام، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالتعاون مع اليونسكو، القاهرة، 1970م، ط1.
42 ـ طقوش، محمد سهيل، تاريخ المسلمين في الأندلس، دار النفائس، بيروت، 2010م.
43 ـ طه، عبد الواحد ذنون، دراسات أندلسية، المدار الاسلامي، بيروت، 2004م، ط1.
44 - ....، حركة المقاومة الاسلامية في الأندلس، المدار الاسلامي، بيروت، 2004م، ط1.
45 ـ الطوخي، أحمد، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر،

تقديم أحمد مختار العبادي، الناشر مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1997م، ط1.
46 ـ الطويل، توفيق، في تراثنا العربي الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة، 1985م، العدد 87.
47 ـ عبد الرحمن، جمال، دراسات أندلسية وموريسكية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008م.
48 ـ عبد المعطي، حسام، العائلة والثروة...البيوتات التجارية المغربية في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م، ط1.
49 ـ العبادي، عبد الحميد، المجمل في تاريخ الأندلس، دار القلم، القاهرة، 1964م.
50 ـ العمر، ناصر بن سليمان، سقوط الأندلس دروس وعبر، دار القصيم، السعودية، 2005م، ط1.
51 ـ عنان، محمد عبد الله، الآثار الأندلسية الباقية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ط2.
52 ـ ....، نهاية الأندلس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مكتبة الخانجي، القاهرة 1966م، ط4.
53 ـ ....، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام، القاهرة، 1967م، ط2.
54 ـ عناني، محمد زكريا، الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1999م، ط1.
55 ـ عوض، عبد الفتاح، فصول في تاريخ الأندلس، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2005م، ط1.
56 ـ عويس، عبد الحليم، التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1994م، ط1.
57 ـ الغزالي، محمد، التعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية، دار نهضة مصر، 2005م، ط6.

58 ـ فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر، دار الجيل، 2000م، ط1.
59 ـ فريد بك، محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقي، دار النفائس، بيروت، 1981م، ط1.
60 ـ الفقي، عصام الدين، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1990م، ط1.
61 ـ قشتيليو، محمد، حياة الموريسكيين الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، مطابع الشويخ، تطوان، 2001م، ط1.
62 ـ ....، محنة الموريسكوس في اسبانيا، مطابع الشويخ، تطوان، 1999م، ط2.
63 ـ ....، انبعاث الاسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ط1.
64 ـ قطب، محمد علي، مذابح وجرائم محاكم التفتيش، دار القلم، بيروت، 1987م، ط2.
65 ـ الكتاني، علي المنتصر، الصحوة الإسلامية في الأندلس، مؤسسة أخبار اليوم، قطر، 1992م، ط1.
66 ـ ....، المسلمون في أوروبا وأميركا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ط1.
67 ـ كرد علي، محمد، غابر الأندلس وحاضرها، المكتبة الأهلية، مصر، 1923م، ط1.
68 ـ كليل، صالح، خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الأوسط، رسالة ماجستير، الجزائر، 2007م.
69 ـ المدين، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، مطبعة البعث، دمشق، دون تاريخ.
70 ـ المراغي، عبد الله، التشريع الإسلامي لغير المسلمين، مكتبة دار الأدب، القاهرة، 1965م.

71 ـ المطرجي، محمد هشام، شعلة الأندلس أنارت الغرب، مطبعة باشات، طرابلس، 2008م، ط2.
72 ـ مظهر علي، محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال، المكتبة العلمية، مصر، 1947م.
73 ـ الملا، أحمد، أثر العلماء المسلمين في الأندلس، دار الفكر، دمشق، 1981م، ط2.
74 ـ منتصر، عبد الحليم، أثر العرب والاسلام، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970م.
75 ـ مورو، محمد، الجزائر تعود لمحمد، دار المختار الاسلامي، القاهرة، 1992م، ط1.
76 ـ المليلي، عمر بن مبارك، تاريخ الجزائر القديم والحديث، الشركة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 1976م.
77 ـ نافعة، حسن، تراث الأندلس، ترجمة احسان صدقي العمر، سلسلة عالم المعرفة، ج2، العدد 234.
78 ـ نصر الله، سعدون، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1998م، ط1.
79 ـ يونس، فتحي علي، أثر العرب والمسلمين في الحضارة الأوروبية، مركز البحوث العربية، القاهرة، 1996م.

ثالثاً: المراجع المعربـة

1 ـ ارينال، مرسيدس غارثيا، محاكم التفتيش والموريسكيون، ترجمة خالد عباس، المشروع القومي للترجمة عن المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م.
2 ـ اشباخ، يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة

محمد عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط2، 1958م.
3 - إيبالثا، ميغيل دي، الموريسكيون في اسبانيا وفي المنفى، ترجمة جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، 2005م.
4 - ايبارا، ميغيل انخيل، الموريسكيون في الفكر التاريخي، ترجمة وسام جزر، مراجعة جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م.
5 - ايرفنغ، واشنطن، اخبار سقوط غرناطة، ترجمة هاني نصري، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، 2000م، ط1.
6 - بروفنسال، ليفي، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.
7 - بوزورث، كليفورد، تراث الاسلام، تأليف حسن نافعة، ترجمة حسين مؤنس، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، 1998م، العدد 234.
8 - بيانوبيا، فرانشيسكو ماركيث، دراسات أندلسية وموريسكية، ترجمة جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008م، ط1.
9 - دوزي، رينهارن، المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995م.
10 - الدوميلي، العلم عند العرب، ترجمة محمد يوسف موسى، دار القلم، بيروت، 1962م.
11 - رستن، جيمس، محاكم التفتيش في اسبانيا، ترجمة مجيد العمري، دار السيد، السعودية، 2009م، ط1.
12 - ريبيرا، خوليان، التربية الاسلامية في الاسلام، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، 1994م.
13 - ريسلر، جاك، الحضارة العربية، ترجمة خليل أحمد خليل، دار عويدات، بيروت، 1993م، ط1.
14 - سارتون، جورج، تاريخ العلم، القاهرة، 1957م.

15 ـ غالا، أنطونيو، المخطوط القرمزي، ترجمة رفعت عطفة، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1998م، ط2.

16 ـ كارادياك، لوي، الموريسكوس الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية، ترجمة عبد الجليل التميمي، تونس، 1983م.

17 ـ كاسترو، أميركو، اسبانيا في تاريخها، المجلس الأعلى للثقافة، ترجمة علي منوفي، القاهرة، 2003م، ط1.

18 ـ كولان، ج.س، الأندلس، ترجمة ابراهيم خورشيد واخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980م، ط1.

19 ـ لين، بول، العرب في اسبانيا، دار المعارف، ترجمة علي الجارم، القاهرة، 1944م، ط1.

20 ـ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة لويس مولينا، مدريد، 1983م.

21 ـ هورتز أنطونيو، دومنغيز، تاريخ مسلمي الأندلس، حياة ومأساة اقلية، ترجمة عبد العال طه، قطر، 1988م، ط2.

هونكه، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الالمانية، فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة مارون الخوري، دار الجيل، بيروت، 1993م، ط3.

وات، مونتغمري، في تاريخ اسبانيا الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1998م، ط1.

خامساً: المراجــع الإسبانيــة

الواردة في مصادر ومراجع الرسالة

1-Carmano (Fransisco Diaz):Compendio de Historia de Expana, Barcelona, 1911.

Los Moriscos del reino de Granado, Madrid, 1976.

2-Caro Baroja (J):Los Moriscos del reino de Granado, Madrid, 1976.

3-Davilla. COLLADO (Manuel):El pooder civil en Espana, Memoria premiada por la real Academia de las Ciencias Morales Y politicas, Madrid, 1885.

4-Dominguez ORTIZ (Antonio):Historia de los Moriscos, vida Y Tragedia de una minoria, Madrid, 1978.

5-La Fuente, Alcantra:Historia de Granada, Tomos 3, Granada, 1896.

6-Garcia arenal, Mercedes:Los moriscos la inquisicion, procesos del tribunal de Cuenca, Madrid, 1978.

7-Garcia Gomez:Fragmento de la epoca sobre noticias de los reyes nazaritas o capitulacion de Granada o emigracion de los andaluces a Marruecos, Al andalus VII, Madrid-Granada, 1942.

8-LonGas, PEDRO:Vida religiosa de los moriscos, Madrid, 1915.

9-De Lozoya (El Marques):Los Origines del Imperio, La Espana de Fernando esabel, Madrid, 1939.

10-Marmol CARVAJAL (Luis):Historia de la reblion Y castigo de los moriscos del Reino de Granada, Segunda edicion, Madrid, 1797.

11-ORiol CATENA, (Francisco):La repoblation del Reino de

Granada despues de la expalsion de los moriscos, Madrid, 1935.

12-Ortiz Dominguez Y Vincent Bernard :Historia de los moriscos, vida Y tragedia de una minoria, Madrid, 1978.

سادساً: المراجع الفرنسية

1-Braudel, (Fernand):La Méditerrannée et le monde Mediterraneen à l'époque de PhiLippe II, Ed/L'Etoile, Paris, 1966.

2- .... :Les Espagnoles et L'Afrique du Nord de 1492 à 1477 en revue africaine, 1928.

3-CardaiLLac, (Louis):Morisques et chrétiens un Affrontement polémique (1492-1640) Paris, 1977.

1-Circourt, Count Albert :Sous la domination des chrétiens, Paris, 1846.

2-.. :Histoire des arabes en Espagne, Paris, 1848.

3-Epalza (Miguel del):Moriscos et Andalous en Tunisie au XVII siécle, en etude sur les moriscos Andalus en tunisie, Madrid, 1973.

4-Fournel-Guérin (J):Les morisques aragonais et l'inquisition de saragosse (1540-1620), université paul valéy, Montpellier III, 1980.

5-Lapeyre (H):g éographie de l'Espagne morisque, Paris, 1959.

6-PANELLA (Juan):Le transfert des morisques Espagnoles en Afrique du Nord, Barcelona, 1971.

سابعاً: المراجع الإنكليزيـة

1-Elliot, J.H:Imperial Spain, London, 1969.

2-De Fourneaux, Marcelin:Daily life in Spain in the Golden age, unkhnown LTD, London, 1970.

3-Lane-Poole (Stanley):The moors in Spain, edition, London, 1888.

4-Lea-Charles:History of the inquisition in Spain, 3 volumes, nuevayork, London, 1967.

5-Plaidy (j):The Spainish Inquisition, London, 1978.

6-Prescott (W.H):History of the reign of Ferdinand and Isabella the catholic, Abridge and edited by, C. Harvey Gardiner, London, 1962.



فهرس الموضوعات

الفصل الثاني

أوضاع الموريسكيين في ظل الكثلكة

الفصل الثالث

طرد الموريسكيين من الأندلس وأماكن انتشارهم خارجها


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

يتمحور موضوع الكتاب حول المرحلة الأخيرة من تاريخ الأندلس، أي سقوط غرناطة حيث سادت العصبية والنزعة لإنهاء الوجود الإسلامي من قبل الملكَين الكاثوليكيَين فريديناند وإيزابيلا بشكل نهائي. ويقوم بتسليط الضوء على المأساة التي ألمّت بالموريسكيين وأدّت إلى تشتيت هذا الشعب في أصقاع كثيرة.

وما بين المقدمة والنهاية في هذا الكتاب، تتراوح الكلمات حتى تصبح عوالم شاسعات وزاخرات بشتى أحداث تلك الحقبة وسردها بمنهاج علميّ يتطرّق إلى الحالة الإجتماعية والإقتصادية والفكرية والعمرانية لإبراز تاريخ الأندلس الذي استمر ثمانية قرون.

وهنا تبرز محاولة التحدّي للعرب المسلمين في إدراج البصمات التي لا يزال يتردّد صداها، والتي كانت مصدر فخر واعتزاز ومحطّ أنظار العالم.

ISBN 614-442-611-1
9 786144 426111